مكتبة التاريخ الوسيط

عالم العصور الوسطى
في
النظم والحضارة

تأليف

ج. ج. كولتون

ترجمة وتعليق

الدكتور جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٣

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر والتوزيع

ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية



مكتبة التاريخ الوسيط

عالم العصور الوسطى

في

النظم والحضارة

تأليف

ج . ج . كولتون

ترجمة وتعليق

الدكتور جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٣

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر والتوزيع

ت ٣٩٤٧٢٠ إسكندرية

هذه ترجمة كتاب :

Coulton, G. G., The Medieval Scene : An Informal Introduction to the Middle Ages. Cambridge (At the University Press), 1961.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى لغته الأصلية سنة ١٩٣٠ ،
ثم صدرت طبعة مخفضة سنة ١٩٥٩ ، وأعيد طبعه سنة ١٩٦٠ ،
وسنة ١٩٦١ .

تصدير

فى يناير سنة ١٩٦٤ ظهرت الطبعة الأولى من الترجمة العربية لهذا الكتاب ، بعد جهد من الاعداد دام سنوات ، وكنت قد ضمنتها عديدا من الشروح والحواشي ، وقدمت لها بكلمة تاريخية موجزة ، وذيلتها بالمراجع والفهارس التى لا يشتمل عليها النص الأصلى فى الانجليزية .

والآن ، وبعد سنوات ثلاث ، أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة . مزيدة بما أضفت إليها من تعليقات ، ومنقحة بما جددت فيها من صياغات .

ولما كانت المقدمة التى صدرت بها الطبعة الأولى ، دراسة تاريخية موجزة عن أهم نظم أوروبا وحضارتها فى العصور الوسطى ، وكانت - بتعبير أدق - مدخلا إلى النظم الأوروبية الوسيطة وحضارتها ، فقد رأيت أن هذه المقدمة فى حاجة إلى شيء من الافاضة بحيث تكون أكثر شمولا واستيعابا لما أوجزه المؤلف أو تجاوز عنه .

وبالله التوفيق ؟

الاسكندرية فى أول مارس ١٩٦٧ — جوزيف نسيم يوسف

كلمة المترجم

(تصدير الطبعة الاولى)

مؤلف هذا الكتاب هو جورج جوردون كولتون ولد بمدينة كينجزلين King's Lynn بانجلترا سنة ١٨٥٨ ، وزاول مهنة التدريس فى كلية ترينيتي Trinity College بكامبريدج محاضراً فى مادة تاريخ الكنيسة . وكان زميلا فى كلية سان جون St. John's College ، ومحاضراً فى اللغة الانجليزية بالجامعة . وهو احد الثقاة المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى . وفى سنة ١٩٢٩ قبل زميلا فى الاكاديمية البريطانية . وله مؤلفات عديدة أهمها « الصورة العامة للعصور الوسطى » Medieval Panorama ، و« دراسات فى العصور الوسطى » Medieval Studies ، و «الحياة الاجتماعية فى بريطانيا» Social Life in Britain ، و « الدين خلال خمسة قرون» Five Centuries of Religion ، و «الحياة فى العصور الوسطى» Life in the Middle Ages ، و « القرية فى العصور الوسطى » The Medieval Villlage ، و« القرية والاقطاعية والدير فى العصور الوسطى » Medieval Village, Manor and Monastery ، و « عقوبة الموت على الهرطقة فى الفترة من ١١٨٤ الى ١٩٢١ » The Death Penalty for Heresy from 1184 to 1921 ، و « محاكم التفتيش » The Inquisition ، و « تشوسر وانجلترا فى عصره » Chaucer and his England ، و « الفن وحركة الاصلاح الدينى » Art and the Reformation ، و « من القديس فرنسيس الى دانتي » From St. Francis to Dante ، و « حياة القديس برنارد » The Life of St. Bernard ، و « دراسات فى الفكر الوسيط » Studies in Medieval Thought . هذا

بالإضافة إلى الكتاب الذى نتولى ترجمته وهو Medieval Scene بعنوان «عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة»، وكثير من البحوث والمقالات فى مختلف الدوريات التاريخية. وقد توفى ج. ج. كولتون سنة ١٩٤٧ عن تسعين سنة، بعد حياة حافلة أمضاها فى المحاضرة والكتابة والتأليف.

لقد كان كولتون من كبار المشتغلين بالتاريخ الأوروبى الوسيط، وبخاصة النظم والحضارة موضوع هذا الكتاب. وجدير بالذكر أنه ظهرت فى هذا الموضوع فى الغرب كتب مستقلة قائمة بذاتها، نذكر منها تآليف مونرو وسيليرى (١) Munro & Sellery، و ج. كورث (٢) G. Kurth، و ج. جروب (٣) G. Grupp، و ف. فون بزولد (٤) F. v. Bezold، و ك. فوسلر (٥) K. Vossler، و ا. أير (٦) E. Eyre، وكرمب وجاكوب (٧) Crump & Jacob وجاك لي جوف (٨) Jacques le Goff، وغيرهم.

(١) Munro & Sellery, Medieval Civilization. New York, 1907.

(٢) Kurth, G., Les origines de la Civilization moderne. 2 vols. Bursaels, 1923 .

(٣) Grupp, G., Kulturgeschichte des Mittelalters. 6 vols. Paderborn, 1921 - 25.

(٤) Bezold, F. v., Aus Mittelalter und Renaissance kulturgeschichtliche Studien. Munich and Berlin, 1918.

(٥) Vossler, K., Medieval Culture. 2 vols New York, 1929.

(٦) Eyre, E, (ed.), European Civilisation. Vol. III: The Middle Ages. London, 1935.

(٧) Crump, C. G. & Jacob, E. F., The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951

(٨) Jacques le Goff, La Civilisation de L'Occident Médiéval. Paris, 1965.

وإلى جانب ذلك ظهر العديد من الكتب والمقالات التي تناولت إحدى نواحي النظم والحضارة ، أو نظم وحضارة إحدى الدول الأوروبية بالذات.

ومما يذكر أن المكتبة العربية فقيرة في هذا الحقل . فالكتب المؤلفة بالعربية نادرة ، وتكاد تقتصر على الجزء الثاني من كتاب « أوربا العصور الوسطى » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، وهو الكتاب الوحيد الذي عالج النظم والحضارة الوسيطة . أما عن المؤلفات التي تناولت جانباً من جوانب النظم والحضارة ، فنذكر منها كتاب « النهضات الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة » للدكتور سعيد عاشور والدكتور محمد انيس ، و « المجتمع الأوربي في العصور الوسطى » للدكتور ابراهيم احمد العدوى ، و « الجامعات الأوربية في العصور الوسطى » للدكتور سعيد عاشور ، و « تاريخ الفلسفة الاوربية » ليوسف كرم ، و « فلسفة العصور الوسطى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ، و « تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى » للدكتور نظير حسان سعداوى ، و « محاكم التفتيش » للدكتور على مظهر .

ومن الكتب والأبحاث المعربة نذكر كتاب « نماذج بشرية من العصور الوسطى » تأليف ايلين بور وتعريب محمد توفيق حسين ، و « الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا » تأليف كولاند وفينوجرادوف ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، و « الديرية : أسبابها ونتائجها » تأليف كولتون ترجمة الدكتور جمال الدين الشيال ، و « المسرح الديني في العصور الوسطى » تأليف ج. فرابييه و ا. م. جوسار ترجمة الدكتور محمد القصاص ، و « القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط » تأليف ارشيبالد ر. لويس ترجمة أحمد محمد عيسى ، وكتاب « تراث العصور الوسطى » الذي أشرف على تحريره كرمب وجاكوب ، وقام بمراجعة الترجمة العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة

والاستاذ محمد بدران ، وقد صدر الجزء الاول منه . وكذلك كتاب « الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى » تأليف ل. م. هارتمان و ج. باراكلاف ، وقد قمت بنقله إلى العربية. وهناك أيضا بعض الكتب المعربة عن تاريخ أوروبا السياسى فى العصور الوسطى ، تناولت فيما تناولته بعض جوانب الأنظمة الوسيطة ؛ مثال ذلك كتاب « أوربا فى العصور الوسطى » تأليف ه. و. ديفز ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود الذى يحوى فصولا عن الاقطاع والمدن الحرة والدولة فى العصور الوسطى ، وكتاب « تاريخ أوربا فى العصور الوسطى » تأليف ه. ا. ل. فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور إبراهيم احمد العدوى ، وقد تضمن بدوره فصولاً عن نمو المدن والحركتين الفكرية والديرية .

وإن الحديث عن الأنظمة والحضارة الوسيطة يقودنا إلى الإشارة إلى الكتب المؤلفة والمعربة عن الحضارة الإسلامية وأثرها فى حضارة أوروبا خلال تلك الفترة من الزمن . فمن النوع الأول كتاب « المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية » تأليف الدكتور سعيد عاشور ، و « تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » تأليف الدكتور عبدالمنعم ماجد . ومن النوع الثانى « تراث الإسلام » تأليف توماس ارنولد وآخرين ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ، و « تاريخ الحضارة الإسلامية » تأليف ف. بارتولد ترجمة حمزة طاهر ، و « حضارة الإسلام » تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة عبد العزيز جاويد ، و « أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى » لجورج يعقوب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .

من العرض السابق يتضح لنا أنه لا يوجد كتاب شامل تناول النظم والحضارة الأوروبية الوسيطة باللغة العربية سوى مؤلف الدكتور سعيد

عاشور . وفيما عدا ذلك فليس هناك غير نتف أو شذرات أو بضع صفحات أو فصل أو بعض فصل عالج زاوية معينة من زوايا النظم أو الحضارة ؛ وعلى هذا فالكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أول كتاب معرب شامل للنظم والحضارة الاوروبية فى العصور الوسطي لأحد المؤرخين الغربيين الثقاة المتخصصين فى هذه الناحية .

ومن سمات هذا الكتاب أنه يجمع بين دفتيه أهم مظاهر التاريخ الاوروبى الوسيط فى النظم والحضارة . وكان هذا من دواعى اختيار عنوان الكتاب على الوجه الذى صدر به . فهو يتناول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية السائدة فى الغرب الاوروبى إبان تلك الحقبة من الزمن ، منذ انحلال الامبراطورية الرومانية حتي حركة الإصلاح الديني . ويقسم المؤلف هذه الفترة الى قسمين متميزين هما : العصور المظلمة وتمتد من سنة ٤٠٠ الى سنة ١٠٠٠ ، والعصور الوسطى الحقيقية من سنة ١٠٠١ الى سنة ١٥٠٠ . ويستعرض عبر هذه القرون الطويلة أهم الأنظمة الوسيطة كالاقطاع والقرية والمدينة والكنيسة والنظام الأبرشى والفروسية والرهبنة . ثم ينتقل إلى أبرز مظاهر الحضارة الاوروبية ، وهى التجارة والأسفار والفلسفة والفكر الحر والقانون والسياسة والديانة الشعبية .

قسم كولتون كتابه إلى أحد عشر فصلا ، تناول فى الأول الذى أطلق عليه « الفوضى والتجديد » تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها فى قبضة العناصر الجرمانية فى القرن الخامس ، ذلك القرن الذى شاهد من الأحداث والتغييرات الخطيرة ما يبين بصفة قاطعة أن العالم الرومانى قد انتهى عندما تداعى « النظام القديم » من أساسه أمام جحافل الجرمان المتبربرين ليفسح المجال لأنظمة وحضارة جديدة . لقد كان هذا بمثابة نهاية عصر وبداية عصر

جـــديد . انهار ذلك الصرح الشامخ فى الســياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله أنظمة مغايرة وأمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الأدبيــة والمادية والاجتماعية الخاصة بها ولقد عبرت الانسانية خلال هذه الفترة نوعا من الحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن سداها الدين ولحمتها الحرب : فالأول أوحى به منذ البداية ظهور المسيحية وانتشارها وتأصل جذورها بعد القضاء على الوثنية وعبادة الأباطرة . ثم اعتراف الاباطرة بها آخر الامر كديانة رسمية للدولة ، وتأسيس الكنيسة الرومانية ، ومجيء الغزاة البرابرة وإبقائهم على تلك الكنيسة فى الوقت الذى كانوا يكتسحون فيه الدول والحكام العلمانيين . أما الحرب فترتبط بنشأة الاقطاع وتطوره . ويوضح المؤلف كيف استمد الاقطاع أصوله من عادات وتقاليد الجرمان حتى قبل أن يستقروا فى جوف الإمبراطورية . ويخلص من هذا أن مجتمع العصور الوسطى فى ظل الاقطاع كان يختلف عما كان معروفا أيام الامبراطورية الرومانية ، أو عما هو معروف فى أيامنا هذه . فبينما كانت الإمبراطورية الرومانيـة تقوم على المركزية المتطرفة ، كانت العصور الوسطى لا مركزية إلى حد بعيد . ومع ذلك فقد كان هناك نوع من الامتزاج التدريجى البطيء بين العنصرين التيوتونى والرومانى . فضــلا عن الأثر الذى تركته الوثنية القديمة فى الديانة الجديدة . ومن الكتاب الغربيين المحدثين الذين كتبوا عن الاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط ، الى جانب كولتون ، يجب أن نذكر ج . و . كوبلاندوب . فينوجرادوف و ج . كالمت و ا. دوبش و ز . كولبورن . بول لاكروا .

ويختتم كولتون هذا الفصل الأول بكلمة سريعة عن مساوىء العصور الوسطى

ومزاياها . فيذكر أن العصور الوسطى كانت على حـــد رأى ادوارد جيبون ـــ فترة ركود وظلام وجمود ليس فيها أى خير للإنسانية . إذ قال جيبون فى مقدمة كتابه « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » إنه إنما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهـــور والانحطـــاط التى تغلبت فيهـــا البربرية والدين على النظـام والحضـــارة . فانهيار الدولة الرومانيـــــة وقـيام الدول المتبربرة ، والقضـــاء عـلى الوثنية وظهور المسيحية ـــ كل هذا كان فى نظر جيبون بمثابة انهيار المدنية وبدء البربرية فى التاريخ الغربى الوسيط . ويأخذ بهذا الرأى أيضا المؤرخ و . ب . كير W. P. Ker فى كتابه « العصور المظلمة » , وكذلك سولومون كاتز S. Katz فى كتابه « انهيار روما ونشأة اوروبا فى العصور الوسطى » . وفى هذا الحكم كثير من الظلم والبعد عن الحقيقة . حقا لقد أوجدت غارات المتبربرين حالة من الفوضى والاضطراب فى وقت كان فيه العالم الرومانى يلفظ آخر أنفاسه وكان على العصور الوسطى التخلص من هذه الحالة، وإيجاد نوع من الهدوء والاستقرار النسبى . وقد قامت تلك العصور بمهمتها ، ونجحت فى إعادة الحيـاة إلى ما كانت عليه من قبل . وبدأ الظلام الذى شاب الغرب الاوروبى ينقشع تدريجيا . ثم أن هذه العصور لم تخل من مدنية خاصة بها لها صفاتها ومقوماتها ومميزاتها ، مدنية كانت نتيجة طبيعية للظروف التى أحاطت بالانســـان فى فترة التمهيد والانتقال من القديم الى الوسيط . وعلى هذا ، فانه وإن كان للقرون الوسطى بعض المساوىء فقد كان لها أيضا بعض المزايا ، مما ساعدها على تأدية واجبها فى التمهيد لعصر النهضة الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة .

أما الفصل الثانى وعنوانه « القرية فى العصور الوسطى » فيوضح فيه المؤلف

كيف كانت القرية الوسيطة تمثل الوحدة السياسية والدينية فى المجتمع الغربى، بينما قامت الوحدة الزراعية على ما يعرف بالاقطاع . والاقطاع نظام يتعلق بالأرض وفلاحتها وتوزيعها بين الناس، تلك الأرض التى على أساسها انقسمت المجتمعات افقيا الى طبقاتها المعروفة فى العصور الوسطى ، لكل منها مكانها ومميزاتها وحقوقها وواجباتها فى السلم الاقطاعى تبعا لما ترتبط به من سمة الاقطاع . فكان هناك السادة كبار ملاك الارض من رجال الدنيا والدين على السواء فى الطبقات العليا ينعمون بكل شيء ، والأقنان ورقيق الأرض فى الطبقات الدنيا محرومين من كل شيء . ولقد كان الترابط وثيقا بين القرية والاقطاع فى تلك العصور ، بمعنى أن القرية الوسيطة كانت قرية اقطاعية : ويحدثنا المؤلف عن نظام الزراعة فى هذه القرية الاقطاعية ، وعن مروجها، ومراعيها ، وغاباتها وحقولها ، والأرض المشاع فيها ، وموظفيها ، وعمالها ، وحاجياتها ومطالبها ، ومجلسها ومحكمتها ، ثم قصر البارون وأرضه . وأخيرا عزلة القرية عن العالم المحيط بها واكتفائها الذاتى . ونخرج من هذا كله بصورة واضحة مبسطة عن الطبقية والاقطاع والقرية الاقطاعية فى المجتمع الغربى الوسيط :

وفى الفصل الثالث وهو « الكنيسة والقرية » ، يشير كولتون إلى احتكار الكنيسة الرومانية للتعليم الدينى الذى أصبح مقصورا عليهـا وعلى رجالها ؛ وكيف أن رجال الدين لم يبذلوا نشاطاً ملموساً فى هذا المضمار ، ولم يكونوا على قدر كبير من الكفاءة التى نسبت إليهم » وقد بلغ الأمر بالكنيسة الوسيطة أنها أصبحت تهيمن على مصالح الخلق ومقدراتهم ، وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، حتى أن مجرد الخروج على أوامرها ونواهيها وتعاليمها كان يعتبر

هرطقة يتعرض صاحبها لأشد أنواع العقاب : وما أكثر أسلحة الكنيسة التي كانت تستخدمها ضد معارضيها ، من حرمان ونقمة ولعنة وقطع : وهكذا كانت تلك الكنيسة في ظل الظروف التي أحاطت بزوال الدولة الرومانية وبداية العصر الوسيط هي كل شيء بالنسبة لكل الناس : وقد ساقها هذا مع مرور الزمن إلى الدخول في صراع عنيف مع القوى العلمانية ، مما ترتب عليه هو وسياسة الاحتكار التي اتبعتها ، فقدان هيبتها ونفوذها ، ثم انهيارها آخر الأمر : وتضمن هذا الفصل أيضا دراسة مركزة عن أبرشية العصور الوسطى ولنظامها ، وموظفيها ، ودخلها ، وكل ما يتعلق بها : وقد تناول النظام الأبرشي بشيء من التفصيل العالم البلجيكي هنري بيرين H. Pirenne في كتابيه «مدن العصور الوسطى» و «تاريخ اوروبا الاقتصادي والاجتماعي في العصور الوسطى» .

وخصص كولتون الفصل الرابع وهو « المدن الحقول » لمدينة العصور الوسطى . فذكر أنه ليس هناك فارق كبير بين المدينة والقرية في تلك الأزمنة ؛ بمعنى أن المدينة الوسيطة لم تكن سوى قرية نامية . وكانت الحياة فيها عبارة عن غرس جديد ناهض أكثر منها امتدادا للحضارة الرومانية القديمة . ثم ينتقل إلى الحديث عن مقومات المدينة، ومظاهر الحياة فيها وفي ضواحيها، ومساكنها، ونظمها البلدية ، وضرائبها ، والحريات التي حصلت عليها والامتيازات التي تتمتع بها . ويعتبر كتاب بيرين « مدن العصور الوسطى » حتى اليوم من أحسن ما كتب في هذا الموضوع .

وفي الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن ظاهرة بارزة من ظواهر العصور الوسطى وهي الفروسية التي تعتبر نظاما دينيا وحربيا معا . لقد كان الفرسان

أصلا من الرجال الأحرار الذين اتخذوا من الحرب صناعة لهم . وكانوا يعملون فى أوائل القرون الوسطى فى فرق المشاة فى جيوش الجرمان . ثم انتقلوا فى القرن التاسع إلى القتال على ظهور الخيل ، وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الحين بالفرسان : وأصبح لكل منهم تابع يعاونه فى ارتداء ملابسه وحمل سلاحه ؛ وكان هذا التابع يتلقى أصول الفروسية على يد سيده ؛ وعندما يبلغ سن الرشد يصبح هو الآخر فارساً ، ويتقلد رتبة الفروسية فى احتفال كبير له تقاليده وطقوسه ؛ وجدير بالذكر أن أبناء الفرسان لم يتمتعوا فى البداية بحقوق الوراثة من حيث اللقب وشرف الأصل ، وإنما استقرت هذه الأمور متأخرا فى القرن الحادى عشر حينما أصبحت الفروسية لا تعنى صناعة الحرب والقتال فحسب ، وإنما اصطبغت بصبغة النبل وشرف الدم يتوارثها الإبن عن أبيه . كل هذا مر عليه كولتون مرورا سريعاً . ولكنه مع ذلك زودنا بنماذج وأمثلة طريفة مسهبة عن الفروسية وحفلاتها وطقوسها ومبارياتها ، مستقاة من كتاب جوانفيل عن حياة القديس لويس ومن حولية فرواسار عن حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . ويعتبر كتاب سيدنى بنتر S. Painter عن الفروسية فى فرنسا فى العصور الوسطى متمما لما أغفله كولتون فى هذا الشأن . كما تمدنا كتابات ب . لاكروا P. Lacroix و ا. تنيسون E. Tenison و ف . وودهاوس F Woodhouse بمعلومات مسهبة عن الفروسية .

وفى الفصل السادس يتكلم المؤلف عن ظاهرة أخرى هامة من تاريخ القرون الوسطى ، وهى الرهبنة التى كانت أول نشأتها فى مصر فى هيئة حركة توحدية انفرادية . ثم تطورها إلى حركة الحياة الاجتماعية الاشتراكية بين الرهبان ، وانتقالها إلى أوروبا حيث ساعدت على انتشارها هناك الظروف

المختلفة التي سادت في ذلك الوقت . وهي حالة القلق والاضطراب إثر غزوات الجرمان ، وقيام الحروب المستمرة ، وحركة الاضطهاد الديني التي صاحبت ظهور المسيحية . وقد بدأت الحياة الديرية تأخذ شكلها الواضح في أوروبا على يد القديس بازيل في القرن الرابع الميلادى . وفي القرن السادس تطورت الفكرة الرهبانية إلى ما يعرف بالديرية البندكتية نسبة إلى القديس بندكت الذي وضع قانونا للرهبان أساسه إنساني وروحي معا ، و يقوم على أربعة أسس هي التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء . ولم يغفل بندكت الناحية العلمية ، فكانت أديرته منبعا للعلم بينما كان عامة الناس يغطون في جهل عميق . ونتيجة لذلك انتشرت ديرية بندكت محل حياة التوحد والتقشف . ولكنها لم تلبث أن سارت نحو الانهيار بسبب ازدياد الثروة الموقوفة عليها . و باتت الرهبنة في أمس الحاجة إلى الإصلاح .

ولم تلبث أن ظهرت حركات إصلاح جديدة منها الحركة الكلونية التي بدأت في القرن العاشر ضيقة أول الأمر . ولكنها أخذت تتسع وتنتشر ، وكان أساسها الاتحاد التام بين جميع البيوتات الكلونية والاتصال المباشر بالبابا . ولحقتها جماعات رهبانية أخرى مثل جماعة السسترشيان التي عادت إلى التقاليد البندكتية الأصلية مع إدخال شيء من التصوف فيها ، وتجنب الملبس الفاخر والتمسك بالبساطة في كل شيء . وجماعة الكارثوذيان وكان أعضاؤها ينزعون إلى التوحد كل منهم داخل صومعته ، وإن كانوا يعيشون تحت سقف دير واحد . وجماعة الاخوان الفرنسسكان التي كان أساسها الفقر والتقشف مع الاندماج في الحياة العامة للوعظ والتبشير والارشاد والتعليم : وكذلك الاخوان الدومينيكان الذين كان من مبادئهم الوعظ والارشاد بين الناس .

مع العمل بكل الوسائل على مكافحة تيار الهرطقة الذى كان قد اشتد وقتذاك. هذا ، إلى جانب جماعات أخرى مثل الاخوان الكرمليين ، والإخوان الأوغسطينيين ، وغيرهما : ولكن مع مرور الزمن أخذ الفساد يدب في نظم الرهبنة والديرية نتيجة تكاثر الأوقاف والهبات على الأديرة وإهمال روح تعاليمها وقوانينها ، الامر الذى أدى إلى تدهورها وانحلالها فى أخريات العصر الوسيط ، بعد أن فقدت مثاليتها الأولى وبعد أن انحرف الرهبان عن مبادئها الاصلية .

وجدير بالذكر أن المؤرخ فردريك هير F. Herr يعرض فى كتابه « عالم العصور الوسطى - أوروبا من ١١٠٠ إلى ١٣٥٠ » لموضوع الرهبنة والديرية فى الغرب من زاوية مر عليها كولتون مرورا سريعا . يقول فى الفصل الثالث من كتابه ، وعنوان الفصل المذكور « ديانة الشعب » ، إنه مما يثير الدهشة اننا اذا بحثنا عن قلب الكنيسة النابض بالحياة فى تلك الأزمان قبل تعرضها لتيار الهرطقة وحركات الاصلاح ، لوجدناه فى الدير . فحتى منتصف القرن الثانى عشر لم تكن قيادة العالم المسيحي فى يد البابوات أو المشرعين الكنسيين أو اللاهوتيين الجامعيين ، ولكنها كانت فى يد الرهبان . وقد شهدت الخمسون سنة التى سبقت عام ١١٢٢ عددا من البابوات الذين نشأوا داخل الأديرة . وكان كبار أساتذة اللاهوت من بين الرهبان . وكذلك كان أوائل الفلاسفة العظام فى التاريخ . كما كان وعاظ الأديرة هم الحفاظ على الثقافة الشعبية ، وقد ظل الفن الشعبي باقيا وتطور فى كنف الأديرة . لقد عاش الرهبان بين الناس ، وشاركوهم أفراحهم وأحزانهم . وكانت الاديرة هى الملاذ الذى يهرع إليه الفلاحون الكادحون فى الأرض هربا من آلام الجوع وقسوة

وأستبداد سادتهم الأرستقراطيين . وكان طبيعيا أن يتوقع الناس من الرهبان أن يكونوا على مستوى عال من التوجيه والارشاد . وكان على الرهبان ، تحت ظل هذه الظروف ، أن يصلوا إلى مرتبة الكمال.

وكان هذا أمرا صعب التحقيق بعيد المنال . ويفوق فى أهميته النواحى الأخرى من سياسية واجتماعية . فقد وقع الناس جميعا ، من رجال الدنيا والدين على السواء ، فى شباك الصراع العلمانى . وأدركوا أنه من المستحيل أن يعيشوا فى هذا العالم ، وأن يكونوا فى ذات الوقت أشبه بالملائكة . وقد وجد من يستطيع القيام بهذا العبء . إذ وقع على الرهبان فى أديرتهم مسئولية اضفاء لون من القداسة على الحياة المسيحية . ومع استحالة تحقيق تلك الأمنية فى عالم ملىء بالعنف ومشبع بالإثم والخطيئة - كان باستطاعة الراهب وحده الوصول إلى مستوى الكمال الشخصى المنشود . وكان هذا اليقين فى استحالة بلوغ الناس مرتبة الكمال هو أساس حركات الاصلاح التى شهدتها العصور الوسطى فى قرونها الأخيرة . وعندما انعدم الأمل نهائيا فى إدراك هذا الكمال ، اتجه الجميع إلى المحافظة على نقاء الديرية كما كانت فى بداية عهدها ، والعمل على تطهيرها من الفساد الذى بدأ يستشرى فيها ويهدد كيانها . وهكذا كان على كل من يبحث عن هذا الكمال أن ينبذ الحياة الدنيا بالالتجاء إلى الدير . ولكن ماذا بوسع تلك الأديرة أن تفعل عندما تصبح هى نفسها موطنا للفساد حيث يمضى الرهبان وقتهم فى الشجار وشرب الخمر ؟

ومبكرا منذ القرن التاسع تسللت أنواع من حركات الاصلاح كشعاع أو بصيص من نور عبر تاريخ الكنيسة اللاتينية . وأصبحت مثل هذه الحركات

خلال القرنين العاشر والحادى عشر أكثر تركيزا . كما اكتسبت أهمية سياسية واجتماعية واعتبارا من القرن الثالث عشر غدت أكثر قوة ونفوذا . ومهدت الجماعات الرهبانية الجديدة لعصر جديد تسوده الكنيسة التي يحكمها البابوات . ومما يذكر أن كثيرا من حركات الاصلاح السابقة للقرن الثانى عشر ، وكذلك معظم الجماعات التي ظهرت في القرن الثالث عشر ، قد اتسمت بالتحفظ ؛ ذلك أنها قامت بإصلاح النظم القائمة فحسب :

ومن ثم بدأت هذه الزعامة الديرية فى الانهيار لأسباب مختلفة ، منها الثراء المتزايد عن طريق الهبات والأوقاف ، والبطالة ، وحياة التراخى والكسل التى تفشت بين الرهبان نتيجة استخدامهم الاقنان للعمل فى أراضى الأديرة . وكان أن بدأت حركات اصلاح الرهبنة والديرية حتى تعود إلى سيرتها الأولى . وكانت هذه الحركات والجماعات الرهبانية الناشئة لها خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر تعمل بطريق غير مباشر لإصلاح الكنيسة وهيئة رجال الدين العلمانيين . وكان انشاء دير جديد ، أو اصلاح آخر قديم فى الغرب ، يعنى تنقية الدماء المسيحية مما شابها من عفن وفساد . وهكذا كانت هذه الخلايا التى تهب الحياة هى الملاذ الذى يأوى إليه المسيحيون الهاربون من العالم بحثا عن الكمال المنشود .

فمن ناحية ، كانت الحاجة الى تأسيس جماعات رهبانية جديدة بمثابة رد فعل للدعوة الى الاصلاح ، ومن ناحية أخرى ، كان البابوات ، بعد أن ناءوا بمطالب الكنيسة المتزايدة ، يبحثون عن حليف لهم : وكان هذا الحليف هو الدير . ولم يترك أمر اصلاح الديرية للصدفة ، ولكنه كان طبقا لنظام مدروس . وهكذا شهد القرن الثانى عشر العديد من الجماعات الرهبانية الجديدة

الداعية للاصلاح مثل السسترشيان . وكان هدفها جميعا هو التحليق بعيدا عن هذا العالم ، بعد أن غرقت كنيسة العصور الوسطى بخاصة والعالم المسيحى بصفة عامة فى الدنيويات .

لقد نظر المعاصرون الى الجماعات الديرية والرهبانية الجديدة بمزيج من الاعجاب والأمل والخوف . وغدا التساؤل : هل سيعود الرهبان الجدد بالعالم المسيحي الى سابق عهده ؟ ام هل يعتبر ظهور هؤلاء الرهبان النذير بنهاية العالم والحساب الأخير ، وبحكم الله على الأرض ؟ وكيف يمكن أن يتفق الوضع الجديد فى تلك الجماعات الرهبانية مع وحدة الكنيسة ؟ وفى الحال لاحت فى الأفق بذور الكراهية والشك والمنافسة بين الجماعات الرهبانية الجديدة ، وبينها وبين الجماعات القديمة . ولكن ما وجده المعاصرون كان أكثر هولا وبشاعة . ذلك أن المؤسسات الجديدة لم يكن باستطاعتها مواجهة اللهفة الدينية الملحة وكافة المطالب التي تضطرم فى النفوس . كما لم يكن بوسعها مواجهة تدفق الحركات الفكرية والروحية الجديدة الوافدة من بلاد البحر المتوسط . وكان أن ظلت الديرية — سواء الطراز القديم منها ، أو الديرية فى ثوبها الجديد الذى تزيت به فى القرن الثانى عشر — هيئة ارستقراطية اقطاعية ترتبط بالأرض وبالاقتصاد الزراعى ، بعيدة عن المدن واقتصادها النقدى المرتبط بالتجارة والصناعة . ووجدت بطبيعة الحال ، استثناءات قليلة من تلك القاعدة فى المناطق التى كانت فيها خطوط التقسيم بين المدينة والقرية غير واضحة تمام الوضوح . وقد ساهم الرهبان بقدر ضئيل فى الحياة الفكرية الجديدة التى ازدهرت فى المدارس الكاتدرائية والجامعات والمدن الجديدة — تلك الأماكن التى سرى فيها تيار الحياة قويا دافقا مندفعا جارفا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ولقد بقيت الكنائس والأديرة ذات الأنظمة القديمة داخل نطاق ضيق محدود من الأرض التي شيدت فوقها . وكان الرهبان ، بصفة عامة ، مرتبطين بأديرتهم مدى الحياة . وكانت الأديرة البندكتية التي يزيد عددها عن الألف ، وكذلك الجماعات الرهبانية الجديدة التي تجاوزت المائة والتي شكلت على نفس الطراز ، عبارة عن واحات تتوغل في أودية الغابات أو على ضفاف الجداول الصغيرة أو فوق المرتفعات الجبلية في ايطاليا والمانيا . وكان بوسع تلك الأديرة ايواء اللاجئين اليها هربا من الأزمات والفوضى والاضطرابات التي كانت اوروبا مسرحا لها خلال تلك الحقبة من الزمن . ولكن لم يكن بوسعها القضاء على تلك الفوضى أو حتى العمل على ازالة أسبابها .

وفي الفصل السابع من هذا الكتاب يعالج كولتون موضوع التجارة والأسفار . فيحدثنا عن الاتحادات ونقابات المهن في العصور الوسطى وأنواعها . فقد كانت هناك مهن كبرى ومهن صغرى ، وكان الأفراد ينضمون اليها كل حسب ميله ومهارته وحذقه في صناعته . ويستعرض نشأة هذه النقابات وتطورها مع بيان مساوئها ومزاياها . فمن مضارها أنها وجدت أساسا لمصلحة المهن وأربابها فحسب . فهي تتحكم في تحديد الصناعة ونوعها والسعر وأماكن للبيع بحيث تنعدم حرية الفرد العادي . وكانت الأرباح لا تعود إلا لصالح أعضاء النقابة دون باقي أفراد الشعب . وأما عن محاسنها فكانت تنحصر في أمرين : أولها محافظتها على مستوى العمل ، وثانيهما مكافحتها الغش وأساليبه قدر الاستطاعة . ومع ذلك لم تصادف إلا نجاحا ضئيلا في هذه الناحية . هذا عن التجارة المحلية الداخلية الضيقة . أما الرحلات والأسفار والمغامرات البحرية بمعناها الواسع فتبدو في نشاط انجلترا التجاري عبر القناة ، وفي بعثات البابوية إلى التتار ، ورحلات آل بولو إلى

الشرق الأقصى ، وفى ازدياد التعامل التجـارى بين الغرب والشرق الأدنى وبخاصة أثناء الحروب الصليبية وبعد انتهائها . لقد أدت هـذه الحروب إلى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، وازدياد القوة البحرية للمـدن التجارية الاوروبية ، وبصفة خاصة المدن الايطالية مثل جنوه وبيزا والبندقية وفلورنسا التى غدت طرقا هامة للتجارة الدولية وقتذاك . وهذا يدل على أنه مع بداية العصور الوسطى الحقيقية بدأ نشاط واضح فى ميـدان التجارة الخارجية ، سواء بين الجزيرة البريطانية والقارة ، أو بين بلدان القارة وبعضها البعض ، أو بين أوروبا وبلاد الشرقين الأقصى والأدنى . وجدير بالذكر أن كتاب هنرى بيرين « تاريخ أوروبا الاقتصادى والاجتماعى فى العصور الوسطى » يعتبر من أفضل ما كتب فى هذه الناحية . وهذا ما يمكن أن يقال ايضا عن كتاب وليم هايد W. Heyd وعنوانه « تاريخ تجارة الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى العصور الوسطى » :

ويعالج الفصل الثامن موضوع « الفلسفة والفكر الحر » . ولابد أن نقدم لذلك بكلمة سريعة لم يعرض لها المؤلف إلا فى أسطر معدودات ، عن الأسباب التى أدت إلى ظهور الفكر الحر والمذاهب الفلسفية المختلفة فى أواخر العصور الوسطى . لقد تسلطت الكنيسة الرومانية على عقول الأفراد ومقدراتهم ، وكانت نظرة أهل العصور المظلمة إلى الحياة نظرة ضيقة فى نطاق المسيحية التى كانت تدعو إلى التفكير فى العالم الآخر . فكان الفرد يقبل كل شىء دون فهم أو إدراك أو مناقشة ، وخضع لآراء الكنيسة وتعاليمها خضوعا أعمى ، وأصبح يصدق كل ما يقال له من الخزعبلات والخرافات وهكذا لم يهتم أهل العصور الوسطى المبكرة بهذه الحياة الدنيا ولم يقدروها حق قدرها ؛ فهى فى نظرهم فترة زائلة لا قيمة لها . وكان من أثر ذلك أن نظروا إلى التراث القديم نظرة ضيقة ،

مما أدى فى نهاية الأمر ومع مرور الزمن إلى وجود شعور بالسأم والملل وحالة من الضغط والكبت والحرمان ، ونتج عن ذلك الغليان والانفجار . كل هذا يعتبر من أهم عوامل التغيير فى الإنسان وفى المجتمع الغربى الوسيط ، فى وقت بدأ فيه هـذا المجتمع ، بعد أن انقشع الظلام الذى صاحب بداية التاريخ الوسيط ، ينفض عن كاهله غبار الماضى ويستعيد قوته ونشاطه وفكره . فكان أن تخلخلت المفاهيم والمعايير الوسيطة ، وبدأت النفس البشرية محاولاتها الأولى للانطلاق من تلك الدائرة المغلقة التى وضعتها فيها الكنيسة ، والخروج على تعاليمها وطاعتها . وساعد على ذلك أيضا ظهور أسطورة فى اخريات القرن العاشر تقول بأن العالم سينتهى بنهاية الألف الأولى، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به . فكان أن ظهرت موجة من الزهد والتقشف والتصوف والبعد عن ملذات الحياة ومباهجها . وإن تميزت هذه الأسطورة بشىء فإنما تتميز بقيمتها الرمزية فقط باعتبارها من العوامل التى ساعدت على نهضة القرن الحادى عشر وظهور الفكر الحر فى القرن الذى يليه . وتناول ذلك بالتحليل والبحث والدراسة المؤرخ شارل هومر هاسكنز فى كتابه « نهضة القرن الثانى عشر »

على أية حال ، أصبح الفكر الحر يمثل تحرك الروح الإنسانية من قيود العصور المظلمة إلى أوضاع جديدة . فحاول المفكرون الخروج عن التفكير المسيحى الوسيط المتزمت ، والتحرر من تقاليده البالية التى كانت تحد من نشاطهم وانتاجهم . كما عادوا إلى التراث القديم محاولين إحيائه والإفادة منه ؛ وبدأت المذاهب الفلسفية القديمة مثل الارسططالية والأفلاطونية فى الانتشار . وأخذت الأذهان والعقول تحتك بين العنصرين الرجعى المتزمت والمجدد المتحرر ، على مسائل حيوية فى التفكير والفلسفة فى ذلك العصر . ويتمثل هـذا أصدق تمثيل فى شخصيتين من أكبر الشخصيات التى ملأت العصور الوسطى حركة ونشاطا ، ألا وهما القديس برنارد أرف كليرفو الذى يمثل التفكير

الديني الضيق والفيلسوف بطرس ابيلارد زعيم الفكر الحر في القرن الثاني عشر، والداعي إلى تحرير الذهن من التقاليد البالية واستخدام العقل وتطبيقه على كل شيء حتى على الدين نفسه . وإن كان الفكر الديني قد انتصر على الفكر الحر في أول الأمر ، إلا أن قوة فلسفة ابيلارد صمدت في الأجيال التالية ممثلة في هذا الرعيل من الفلاسفة والمفكرين الذين جاءوا بعده ، ومن بينهم تلميذه بطرس اللمباردي مؤلف « كتاب الجمل » ، وتوما الأكويني صاحب « الكامل في اللاهوت » ، ووليم اوكهام ، ومارسيل اوف بادوا ، وغيرهم .

لقد وجدت الكنيسة في هذه النهضة الفكرية وتلك المذاهب الفلسفية خطرا يهدد كيانها ويقوض بنيانها . ولذلك قاومتها بكل ما وسعها من قوة ، مستخدمة في ذلك أسلحتها التقليدية . وأخذت تصم كل من يحاول الخروج على تعاليمها بالهرطقة وتوقع عليه قرار الحرمان ، وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف ابيلارد نفسه وتلميذه بطرس اللمباردي . وساعد ذلك على ظهور حركات الهرطقة ومحاكم التفتيش وما ترتب عليها من آثار مفجعة من حيث المحاكمة واحراق من أدانتهم الكنيسة . ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف عجلة الزمن عن السير في الطريق المرسوم لها . فقد بدأ سلطان الكنيسة في التقاص تدريجيا ، بينما أخذ أفق الإنسان الضيق يتسع شيئاً فشيئاً ، مما يؤكد بأن الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى كانت تتميز بنوع من التحرر والانطلاق من قيود العصور المظلمة وأنظمتها وتعاليمها وفلسفتها وتفكيرها إلى أوضاع جديدة مغايرة .

وينقسم الفصل التاسع من هذا الكتاب إلى قسمين : الأول يتناول فيه كولتون القانون ، ويكتفي بالحديث عن القانون الكنسي وعن هبة قسطنطين المزورة وغيرها من المراسيم المزيفة التي أصدرتها البابوية تمكيناً لسيادتها الدينية

والدنيوية على الغرب الأوروبي كله . ثم يشير إلى النهضة التي شملت الكنيسة في القرن الثاني عشر ، واهتمام جراشيان باحياء القانون الكنسي في تلك المراسيم التي أصدرها في منتصف ذلك القرن ؛ ولو انها لم تكن في هيئة مجموعة قانونية بالمعنى المفهوم ، وإنما في شكل مرجع عام للطلاب امتاز بطابعه المدرسي. وكانت هذه المراسيم والمجموعات اللاحقة لها سندا للبابوية في صراعها ضد القوى العلمانية وعلى رأسها الإمبراطورية ، ويختتم هذا القسم بالكلام عن دور الجامعات التي بزغت شمسها في القرن الثاني عشر ونهضته العلمية الأولى التي صاحبت النهضة الكنسية . فالجامعات هي التي حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير أذهان الناس وزيادة عدد المثقفين. كما خرج من بين جدرانها الكثير من العلماء والمفكرين الذين أخذوا ينادون بالاصلاح الشامل في النظم والتعاليم الكنسية ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه.

وفي القسم الثاني من الفصل التاسع يتحدث كولتون عن الفكر السياسي. فيشير في عجالة إلى الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية الذي شغل الفترة الثانية من العصور الوسطى . ولتفصيل ذلك نقول ان الأسباب الحقيقية لهذا الكفاح هي محاولة كل من السلطتين الدينية والدنيوية إعلاء شأنها على حساب الأخرى ، وقد مر هذا الكفاح بعدة مراحل كانت أولاها بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع حول مشكلة التقليد العلماني . وانتهت باذلال الامبراطورية في حادثة كانوسا الشهيرة. أما المرحلة الثانية فكانت بين البابا كاليكستس الثاني Calixtus II والامبراطور هنري الخامس ، وانتهت بعقد اتفاقية ورمز بين الطرفين سنة ١١٢٢ لحل مشكلة التقليد العلماني. ولم يلبث أن ثار النزاع مرة أخرى بين البابا اسكندر الثالث والامبراطور فردريك بارباروسا الذي قام بعدة حملات في ايطاليا لتحقيق سيادته عليها. ولكنه هزم في الحملة الأخيرة ، واضطر إلى عقد اتفاقية مع البابا تقوم على

نفس الأسس السابقة . وكانت المرحلة الرابعة من الصـراع أيام البابا انوسنت الثالث الذى أذل الملوك والأمراء فى الغرب ، وبلغت البـابوية فى عهده أقصى قوتها فى التاريخ الوسيط ، وإن كانت تحمل بين جنباتها عوامل ضعفها وانهيارها .

لقد نشأت حول الكفاح بين الكنيسة التي يمثلها البابا والدولة التي يمثلها الامبراطور كثير من النظريات السياسية التى قام بترويجهـا أصحاب المصالح من مناصرى الكنيسة لتدعيم سلطانها ونفوذها على أساس ديني وقانونى معا : وقد تعرض كولتون للنظرية الخاصة بهبة قسطنطين المزورة وتلك التى ضمنها القديس أوغسطين فى كتابه « مدينـة الله » فضلا عن بعض الأقوال المنسوبة إلى عدد من البابوات . ولكنه لم يشر إلى النظريات الأخرى مثل « نظرية الوحدة » ، و « نظرية السيفين » ، والعبـارات المأثورة للبـابا انوسنت الثالث عن سيادة البابوية . وكلها تنـادى بتفوق البـابوية على الامبراطورية . وجدير بالذكر ان مثل هذه النظريات كانت عند البابوات بمثابة عقيدة متأصلة فى أعماق أذهانهم ، وأصبحت هديا وسندا لهم فى تحقيق مصالحهم وأطماعهم ورفع سلطانهم على الامـبراطورية وغـيرها من القوى الزمنية الأخرى فى العالم المسيحى الوسيط .

ومع ذلك فان هذه الانتصارات التى حققتها البابوية فى الشئون العلمانيـة كانت تحمل بين طياتها بذور التدهور والخذلان . إذ خرجت البـابوية على رسالتها الروحية فى محاولة هدفها هدم الاباطرة وإذلال الملوك . فأثارت الشكوك حول قدسيتها ، وبدأ الناس ينفضون من حولها . حدث كل هـذا فى الوقت الذى كان فيه العالم الغربى يتغير من العصر الوسيط إلى عصر النهضة .

ويتناول كولتون فى الفصل العاشر موقف الكنيسة من التجارة بمعنييها الضيق والواسع ، وموقفها من الربا والربح والإقراض بالفائدة . لقد كانت التجارة فى القرون الأولى من المسيحية فى حكم المعدومة ، إذ حرمها الكتاب المقدس صراحة . وكان هذا أيضا هو موقف الآباء والكتاب المسيحيين الأول مثل حنا فم الذهب . وعلى هذا الأساس نظرت الكنيسة إلى التجارة باعتبارها عملا مرذولا ، وازداد موقفها من التجارة عنتا وتشددا بعد أن تحولت الى هيئة اقطاعية لها مصالح ترتبط بالأرض وفلاحتها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من السادة الاقطاعيين . ومع ذلك فقد اضطرت تحت ضغط الظروف وبمرور الزمن إلى التراجع التدريجي عن موقفها المتزمت ، وان لم يكن ذلك بصورة رسمية واضحة . ووجد بعض الكتاب المعتدلين الذين وافقوا على حصول التاجر على كسب شريف معقول ، مثل كل من القديس توما الأكوينى والقديس أنطونينو فكان هذا بداية ظهور مبدأ السعر العادل فى التجارة وحتى ذلك الحين كان مجرد الحصول على ربح كبير يعتبر إثما لا تقبله السلطات الكهنوتية . وطبقا لذلك تم تحديد الاسعار منعا من التلاعب أو الكسب غير الشريف . واعتبارا من القرن الثانى عشر ظهرت مشكلة جديدة هى مشكلة الربا ، أى اقراض النقود بفوائد . وكانت المسيحية تعتبر الربا خطيئة مميتة لأنه محرم فى الكتاب المقدس بحيث لم يكن سهلا الجدال فيه . وكان هذا يعنى بكلمة واضحة القضاء على حرية التجارة النامية فى ذلك الحين . وكان الأمر يستلزم ادخال تعديلات فى القانون السائد أو فى التعريف الأصلى للربا نفسه ، حتى ينهض المجتمع وتسير عجلة الحياة . وفعلا استجدت مبادىء عن الربا هدفها تخفيف التحريم المسيحى له فوجد بابا مثل انوسنت الثالث مثلا يوافق على استثمار الأموال فى بعض النواحى . ومع ذلك نجد بابا آخر مثل جريجورى التاسع يعود إلى موقف الكنيسة المتزمت ، ويحرم الربا تحريما باتا ، متحديا

بذلك التجارة النامية فى المجتمع الغربى الوسيط . ولم تكن مثل هذه المعارضة لترجع عقارب الساعة الى الوراء ، إذ وجد كثير من علماء اللاهوت الذين عارضوا رأى البابا فى هذا الشأن ، وفى مقدمة هؤلاء الأكوينى ومن جاء بعده من الفلاسفة . ولكن بظهور المؤثرات الجديدة فى أخريات العصور الوسطى، تغيرت نظرة كثير من البابوات والحكام العلمانيين إلى التجارة والربا ، مما يؤكد بأن عصرا قد ولى بأوضاعه وتقاليده ليحل محله عصر جديد مغاير.

والفصل الأخير من الكتاب وهو « ديانة الشعب » عبارة عن دراسة فى أفكار الرجل العادى ومعتقداته . يقول المؤلف إن معظم المعتقدات والنبوات والأساطير والاحتفالات الدينية والأعياد المقدسة وطقوس الكنيسة تنبعث من بين الطبقات الدنيا . ولذلك كانت موضع الرضا والقبول والارتياح . وأما الدين الرسمى بأسراره ومغاليقه ، فقد عملت الكنيسة قدر استطاعتها على تبسيطه حتى يكون فى مستوى الفهم من عامة الشعب ولم يكن هذا بالأمر السهل أو الميسور .

ومرة أخرى يدلى فردريك هير بدلوه فى موضوع ديانة الشعب ، الذى خصص له فصلا مسهبا قائما بذاته فى كتابه « عالم العصور الوسطى » يتمم ما أغفله كولتون : يقول ان ديانة العصور الوسطي كانت مزيجا من عناصر عديدة هى الوثنية والتراث القديم والشعب والمسيحية . وكانت تلك هى ديانة الفلاحين وجانب كبير من النبلاء والطبقة البرجوازية فى المدن وصغار رجال الدين والرهبان . ويدل مظهر تلك الديانة على قيام صراع واضح بين عناصرها المختلفة التى تتألف منها . ومع ذلك فقد حدث تآلف بينها فى الحياة اليومية العادية . وتكشف عن ذلك الأحوال فى مقاطعة بريتانى

التى تعتبر حتى يومنا هذا حصن الكاثوليكية الفرنسية التقليدى .

وكان التوازن بين تلك العناصر فى تغير مستمر ، مما يصعب معه تقدير المواضع التى حلت فيها الصلاة محل السحر أو العكس . لقد قامت الكنيسة ـ أى بيت الله ـ مكان المعبد الوثنى القديم ومارست أعماله كما انبعث فى تقويمها التقويم الوثنى القديم الذى تسلطت أعياده واحتفالاته على كافة شئون الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط من المهد إلى اللحد كذلك تحولت الآلهة والأرواح الخيرة فى الوثنية إلى قديسين فى الدين الجديد . وكان أن صعدت المسيحية والكنيسة اللاتينية فوق أكتاف الناس ، وقد اصطنعت لنفسها سلطة خارقة للطبيعة : فالاله المسيحى هو اله للقوة والرعب، وهو اله للمرح فى نفس الوقت وقد استعبد الشيطان الانسان بسبب الخطيئة التى تردى فيها ولكن هذا الانسان يدين بالطاعة والولاء للاله الجديد . والولاء والايمان يعنيان الطاعة دينيا وسياسيا . لقد كان قانونا فعالا ذلك الذى ربط الانسان فى خوف ومحبة الى الله خالق الكون ، والى القديسين حلفاء الله فى المعركة ضد الشيطان

لقد كانت الحياة معركة مستمرة بين الله والشيطان أو بين الخير والشر . وقام القداس وغيره من الطقوس والشعائر الدينية طلبا لخلاص النفس، بدور بالغ الأهمية فى الحرب ضد الشيطان . هذا ، وتمثل ملابس رجل الدين عدة الخلاص . فهو بوصفه ممثل المسيح على الأرض ، يقود الناس الى ارض الله الأبدية بعد صراع مرير مع العدو القديم ، اى الشيطان . وقد أخذ شراح ومفسرون كثيرون بهذا التفسير الشعبى للقداس خلال القرن الثانى عشر ولفترات طويلة لاحقة ؛ بينما نبذه علماء القرن الثالث عشر . ومع ذلك فقد

فشلوا فى استئصاله واجتثاث جذوره من الديانة الشعبية : وقد اورد هونوريوس تفسيرا شعبيا يرى فيه القداس الدينى كما لو كان مجلسا للقضاء حيث يحاكم الله الخطاة من الناس ، ويقوم الشيطان فى هذا المجلس بدور المدعى ورجل الدين بدور الدفاع .

وان من يبغى الحصول على فكرة شاملة لما تعنيه الديانة الشعبية ، عليه دراسة الكنائس الرومانية فى اوروبا فى العصر السابق للقوط . لقد بنيت الكنائس ابتداء من عصر الامبراطور شارلمان على هذا الطراز القوطى ، وبخاصة فى فرنسا والمانيا ووسط اوروبا . وبحلول القرن الثانى عشر أصبحت الكنيسة الرومانية هى الكنيسة التى اعتادها الشعب . وهكذا بقيت طوال الفترة الوسيطة من التاريخ ، على الرغم من الغزو القوطى والنماذج الجديدة الأخرى التى انتشرت مع حركات الاصلاح . ولا جدال أن تلك الكنيسة قد تركت اثرا بالغا فى تشكيل حياة الناس وقتذاك .

ويستطرد هير قائلا بأن الكنيسة الرومانية بأسوارها الحجرية القوية كانت معقل الله على الأرض . ففيها كان الله وحده سيد الجميع . ومنها طردت كل الأرواح الشريرة التى تقود الناس الى الخطيئة وتجذبهم الى مملكة الجحيم . فالكنيسة هى بيت الله الذى يهب الحماية والعدالة للانسان الخاطىء . وقد حولت الطاقات السلبية الى اخرى ايجابية عن طريق الكفارة والاعتراف والطقوس الدينية التى تؤدى الى الهداية والخلاص . وكانت هذه الكنيسة المقدسة نبعا للطاعة المقدسة . وأخذ انصارها من الأساقفة ورؤساء الاديرة والسادة العلمانيين وصغار الكهنة ، يجمعون الآثار والمخلفات والذخائر الدينية من شتى أرجاء العالم لحفظها بها ، كي يزيدوا من قدرتها على اتيان المعجزات وعلى اجتذاب الحجاج وجمع الأموال .

وقد آثر الناس أن يدفنوا في ظل حماية كنيستهم وقديسيها . ففى هـذه الصحبة المقدسة كانوا يترقبون بخوف وفرح البعث والديونة . وكانت جنازة الميت موضع اهتمام زائد . كما كانت احتفالات الكلونيين ، طايعة المصلحين الديريين ، لتكريم الميت ، كبيرة الأثر فى تغلبهم على الارستقراطية الفرنسية والاسبانية والمجرية ؛ بل وعلى الامبراطورية نفسها . وجدير بالذكر أن العطايا والهبات السخية التى أغدقت على الأديرة والكنائس فى العصر الوسيط ، قد اضطرتها الى اقامة شعائر وطقوس دينية فى المواسم والاعياد المقدسة . وخلال القرن الثانى عشر تفشت بين الرهبان ورجال الدين العلمانيين ظاهرة الافراط فى الاكل والشراب ، وبخاصة فى الأعياد المقدسة . وليست هـذه الظاهرة الا استمرارا لفكرة عيد المحبة بين الاله المسيحى وابناء بيته ، وهي الفكرة الرئيسية فى الكتاب المقدس عن هداية البشرية .

وقبل أن تغزو الهرطقة وحركات الاصـلاح الكنيسة اللاتينية ، كان رجال الدين على اتصال عاطفى بمعتقدات وأحاسيس شعوبهم . وقد تقاسم رجال الدين مع بنى جلدتهم من العلمانيين جميع مظاهر حياتهم ، بما فى ذلك أعيادهم وخلافاتهم وأفراحهم . وقد حاولت المجامع الكنسية ، دون جدوى ، اقصائهم عما درجوا عليه . والأمثلة عديدة على مشاركة قساوسة الابرشيات شعوبهم فى حرفة الزراعة .

لقد أعطت ديانة الشعب أسبقية هائلة للمعركة المحتدمة بين النعيم والجحيم أو بين الروح والجسد . ومع ذلك ارتبط الإثنان ببعضهما ارتباطا وثيقا ، ذلك أنهما وجهان لحقيقة واحدة . فمعركة قس الأبرشية أو الراهب فى ديره ضد الشيطان ، لا تختلف فى شيء عن معاركهما ضد عدو فى قرية مجاورة .

لقد كان الشعار الدائم هو الله والحق . ويعتبر الإيمان أقـوى سلاح للوصول إلى هذا الحق . ووجدت الكنيسة نفسها منذ العصور الوسطى المبكرة مجبرة على توسيع نطاق مباركتها حتى تشمل العادات القديمة جدا، مثل المبارزة والوسائل البربرية التى كانت متبعة لتبرئة البرىء وتذنيب المذنب ، وغير ذلك من العادات التي تغلغلت فى عقائد الناس وأذهانهم ، ولم يكن من السهل استئصالها بين يوم وليلة وكان يفضل عقد المحاكمة إما داخل الكنيسة نفسها أو خارجها مباشرة ؛ لأن الفكرة الراسخة عند الناس هى أن الله إله الكنيسة سيساعد الشخص للوصول إلى الحق :

ومع كل ذلك ، يؤخذ على ديانة العصور الوسطى فى المجتمع الغربي مادتيها وافتقارها إلى الروحانية الحقيقية . كما أنها كانت تعتبر انعكاسا للسحر والشعوذة. ويمكن تفسير مثل هذه الامور بسهولة . ذلك أنها نابعـة أساساً من الشعب الذى كانت تجاربه فى الحياة مخالفة تماما . وإن كان هـذا لا يمثل ، فى الحقيقة ، واقعية العقيدة وحيويتها وقد اتسمت ديانة الشعب فى الحقبة الوسيطة من التاريخ بالجهاد وميلها إلى العدالة ، وهما الخاصيتان اللتان ساعدتاها على تحقيق مكانة بارزة فى مجتمع تسوده الحرب والغلبة فيه للقوى ، وفى وقت كان على كل فرد أن يكافح فى سبيل حقه . وكانت مخالفة القانون أمراً عادياً يتكرر حدوثه . وكان العالم يعيش فى خطر حيث تهدده قوى خفية غير معروفة مليئة بالمخاطر والأهوال . وتبدو هذه القوى فى الافق فى أوقات المحن والأزمات والمجاعات والأوبئة والفيضانات ، وغيرها من الأحداث اليومية التى قد تكلف الفرد حياته . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن جمال المظهر الخارجى ليس إلا غلافا سميكا تكمن تحته عوامل الانفجار .

لقد كانت الديانة الشعبية فى العصور الوسطى ديانة ساذجة بدائية، ولكنها حققت فى تلك الفترة من الزمن ضروريات حيوية لا غنى عنها فى حياة الفرد والمجتمع

ويختتم كولتون الفصل الأخير من كتابه بدراسة تحليلية لقصيدة بطرس الفلاح ، وهى للشاعر الإنجليزى وليم لانجلاند الذى عاش فى القرن الرابع عشر وتتميز القصيدة بأهميتها الفائقة ، لأنها تلقى ضوءا كافيـا على أفكار الناس العاديين ومداركهم فى أخريات العصور الوسطى : وفيهـا يكشف المؤلف عن أحاسيسه وخواطره وانفعالاته النفسية فى صدق وأمانة وإخلاص. فهو يسلط الأضواء على مختلف الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع آنذاك ، وبخاصة الطبقة الدنيا التى كانت تعيش فى بؤس وشقاء مريرين ، ونعنى بها طبقة الفلاحين الكادحين فى الأرض ويصف التدهور الذى أصاب شتى مرافق الحياة. فالرشوة متفشية ، والمال يتحكم فى كل شيء ، والعدالة تبـاع وتشترى ، والتجار يمتصون دماء الشعب فى جشـع ونهم ، والشعب مسكين مغلوب على أمره ، والفساد يستشرى فى الجهاز الكنسى البابوى : والشاعر يصور ذلك فى صورة قاتمة بحيث يبدو أن الطريق مسدود أمامه ، وهو لا يكاد يجد المنفذ أو الخلاص . ومع ذلك فهو يطالب فى إصرار بإصلاح جذرى شامل ، مما يدل على أنه لم يفقد الأمل النهائى فى أن تحدث المعجزة ويتم الإصلاح المأمول ، الذى سيكون على يد بطرس ذلك الفلاح المسكين الذى تدور حوله القصيدة .

القصيدة إذن تدور بصفة أساسية حول الفلاحين عصب المجتمع الغربى الوسيط وعموده الفقرى . وقد تعرض لذلك بالدراسة التحليلية فردريك هير فى الفصل الثانى من كتابه ، وعنوان الفصل المذكور «الطبقة الارستقراطية والفلاحون» . يقول إن الفلاح أوجد لنفسه خلال تلك الحقبة من الزمن ، ثقافة خاصـة متميزة ترتكز على كده وعرقه وعمله [illegible] فى الأرض : وقد مكنه هذا من المساهمة الفعالة فى عملية الاستقرار الزراعى الذى حدث فى الغرب فيما بين القـرنين

السادس والثالث عشر فأصلح الأرض البور الكراب الخلاء وأفلحها ، وان كانت ثمارها قد عادت على سادته الإقطاعيين .

ويرجع شعور الفلاح بالكبرياء إلى عدة عوامل ، منها سوء معاملة سيد فظ مستبد غليظ القلب وأرض قاحلة جرداء وكنيسة لا ترحم . وتبدو نغمة الكبرياء هذه بوضوح فى قصيدة وليم لانجلاند . إذ يرى الشاعر أن الكنيسة هى المكان الذى يفوق الأماكن الأخرى ، والذى يعيش فيه الناس جميعا على مختلف فئاتهم وطبقاتهم أخوة متحابين أحرارا . ويتساءل الشاعر : هل يمكن حقيقة القول بأن الكنيسة ، وهى « بيت الله » الذى يتآلف فيه الجميع ، كانت أبوابها مفتوحة أمام الجميع حيث تهبهم الحماية والمأوى والعدل والأمن والسلام ؟ إن الرد بالإيجاب على ذلك أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد . إذ ازداد الارتداد عن المسيحية ، واتسع نطاق انتشاره بين النبلاء والفلاحين فى أجزاء كثيرة من جنوبى أوروبا ووسطها ، ممن رفضوا تقبل حماية الكنيسة أو الاعتراف بأنها صورة من بيت الله على الأرض .

لذا كانت صيحة النصر التى أطلقها مارتن لوثر البروتستانتى العظيم فى القرن السادس عشر وترنيمته « ما يزال الله حصن الأمان » ، تعبر بحق عن نهاية المأساة التى كانت العصور الوسطى المتأخرة مسرحا لها . ذلك أن الكنيسة اللاتينية غدت خرابا أوقفتها القلاع الأخرى عند حدها ، ونعنى بذلك أكواخ الفلاحين وأسوار المدن الجديدة . ففى هذه المدن اختفت الكنيسة وسط الأعداد الهائلة من البيوت والمبانى ، أو بقيت مهملة بينها مثل المتاحف ودور الآثار تماما . وكانت هذه هى النتيجة النهائية والحتمية لكفاح الكنيسة ضد القوى العلمانية وأزماتها المتتالية فى العصور الوسطى المتأخرة ، عندما جاهدت

عيثا لتسمو فوق النبلاء والناس جميعا ، مدعية التفوق على سلطة النبلاء المتعطشين بدورهم للتحكم فى أقدار الشعب المسكين المغلوب على أمره ، ومدعية كذلك التحكم فى عواطف الفلاسفة .

وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن قصيدة بطرس الفلاح تعبر بحق عن عصر تغير وانتقال ، وعن وجود عالم متغير تحرك فيه الركب الإنسانى من قيود وتقاليد العصر الوسيط المبكر ، وخرجت فيه النفس البشرية من نطاق التفكير المسيحى المحدد المعالم إلى مجالات أوسع وأفق رحب ، معلنة بذلك انتهاء العصور الوسطى وانبثاق عصر آخر جديد .

تلك هى محتويات الكتاب التى عرضها كولتون عرضا مركزا واضحا مبسطا . ويلاحظ أن الأمثلة العديدة الواردة فى ثنايا الفصول مستمدة أساسا من تاريخ انجلترا الفكرى والاجتماعى والاقتصادى ، والتى يمكن اتخاذها كنموذج للحالة التى كان عليها المجتمع الأوروبى الوسيط بصفة عامة ، اللهم إلا إذا أشار المؤلف إلى غير ذلك .

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر وهى أن مؤلف الكتاب يتصف بالحياد فيما كتبه إلى حد بعيد فلم يكتف بذكر الجوانب الحسنة فى حضارة العصور الوسطى وأنظمتها ، بل أشار أيضا إلى الجوانب السيئة فيها : فهو يذكر فى الفصل الثانى مثلا كيف كانت قوانين الكنيسة وأحكامها تهدر إهدارا تاما ، وخاصة فى أيام الآحاد والأعياد المقدسة . ويبين فى الفصل الثالث أنه فى الوقت الذى حرمت فيه المجالس الدينية إقامة الأسواق فى أبهاء الكنائس ، كان رجال الدين هم أول من خرج على هذا التحريم ، بتكديس الحبوب والغلال ووضع الجعة والنبيذ فى ممرات كنائسهم ، وترك ماشيتهم

ترتع فى أبهائها . ويؤكد فى نفس الفصل أن رجال الدين كانوا يمارسون الربا الذى اعتبرته الكنيسة والكتب المقدسة خطيئة مميتة . وفى الفصل الخامس الذى تناول فيه نظام الفروسية يؤكد تفوق العرب على الغربيين فى هذا الميدان . ويضرب مثلا لذلك بالأسبان الذين أخذوا عن المغاربة أصـول الفروسية وتقاليدها . ويشير فى الفصل السادس إلى فساد الحركة الديرية بعد أن تكاثرت الهبات والأموال على الأديرة ، وكيف تخلى الرهبان عن مبـادىء وتقاليد الرهبانية المبكرة ثم يعرج إلى فساد الرهبـان حتى وصـل بهم الحال إلى الاتجار بالقداديس ، والانغماس فى الفسق والفجور ، واقـتراف جرائم الزنا دون خشية من عقاب الله : كما كانوا يتعاطون الخمور مما ترتب عليه الإهمال فى إقامة الخدمات الدينية . وتفشى الجهل بينهم ، فهبط مستوى التعليم هبوطاً واضحا ونبذوا اللغة اللاتينية حتى باتوا يتلون القداس دون فهم معانيه : ويشير كولتون فى الفصل السابع الخاص بالتجارة إلى الحيل العديدة التى كان يلجأ إليها المتلاعبون فى كل حرفة وتجارة : وكيف كان شعـار أعضاء نقابات المهن السائد هو الغش والخداع والتدليس ، والحلف زورا وبهتانا باسم الله فى سبيل الحصول على المكاسب من عرق الشعب وكده : وفى الفصل الثامن يبرز إفادة كثير من الفلاسفة والمفكرين فى العصور الوسطى فى الغـرب من مفكرى الإسلام وفلاسفته . فنجد القديس توما الاكوينى مثلا يعتمد على على فلسفة كل من ابن سينا وابن رشد ، بينما اعتمد روجر بيكون على ابن سينا وهكذا ، مما كان له أثره فى التعجيل بظهور الفكر الحر فى الغرب الأوروبى الوسيط . وأوضح فى الفصل الأخير الذى تحدث فيه عن ديانة الشعب ، كيف أن قصيدة بطرس الفلاح تثير الشفقة والعطف على الجياع والفلاحين المساكين الكادحين الذين كتب عليهم أن يحيوا حيـاة تعسة شقية كان لها أثرها فى الانفجار الذى زلزل أركان العالم الوسيط .

هذا عرض تحليلي للمؤلف وكتابه . وبعد فقد اقتضى نقل الكتاب إلى العربية تزويده بكثير من المعلومات والبيانات والفهارس التى لم يتضمنها الأصل الانجليزى . منها هذه المقدمة السريعة فى نظم وحضارة أوروبا فى العصور الوسطى ؛ وكذلك التعليق فى الحواشى على الكثير من النقاط التى قد تكون معروفة للقارىء الغربى ، ولكنها فى حاجة إلى المزيد من الإيضاح بالنسبة للقارىء العربى . ومعظم هذه التعليقات خاصة بالأعلام والأماكن والأحداث الهامة والاصطلاحات . وللتمييز بين حواشى المؤلف الأصلية وبين حواشي المترجم فقد أضيف إسم المؤلف بين قوسين (كولتون) بعد حواشيه . كما ذيلت الترجمة العربية بقائمة بأسماء المراجع التي اعتمد عليها المعرب فى تعليقاته بالحواشى . وذيل كل فصل من فصول الكتاب بقائمة بأهم المراجع الخاصة به . ونظرا لأنه لا يوجد فى الأصل الانجليزى فهرس تفصيلى لمحتويات الكتاب ، وفهرس آخر أبجدى عام بأسماء الأعلام والأماكن وغيرها — فقد قام المعرب بتضمين ترجمته هذين الفهرسين ، تسهيلا للقارىء العربى ، وتحقيقاً للفائدة المرجوة من هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق ؟

الاسكندرية فى يناير سنة ١٩٦٤

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة المؤلف

إن الجانب الأكبر من هذا الكتاب الصغير ، والذى يتناول الأحوال الاجتماعية ، كان قد صدر في شكل حلقات مسلسلة من الأحاديث الإذاعية في خريف سنة ١٩٢٩ . وكان ينشر اسبوعيا في مجلة « المستمع » « Listner » . أما كل ما يتعلق بالفكر الوسيط ، فقد أعيد طبعه أو تم نقله من مقالتى الواردة فى كتاب «تاريخ العالم» لهارمز وورث Harmsworth (الفصل ١١٧) . وإنى لمدين بالشكر للناشر لتفضله بالسماح لى باعادة نشره فى هذا الكتاب

ج . ج . كولتون
كلية سان جون بكامبريدج
اغسطس سنة ١٩٣٠

الفصل الأول

الفوضى والتجديد

لا يسعنا فهم عقلية العصور الوسطى إذا لم نضع أنفسنا أولا عند نقطة البداية للسير نحو مجتمع هذه العصور . ونرى من المناسب أن يشمل بحثنا هذا ما يطلق عليه إسم العصور المظلمة ، وأن نحدد العصور الوسطى بصفة عامة بأنها الفترة التى تبدأ بانحلال الإمبراطورية الرومانية وتنتهى بحركة الإصلاح الدينى . ولا يمكن وضع حد فاصل عند أى من الطرفين . ونستهل الحديث بقولنا إنه كانت هناك حكومة ثابتة مستقرة ظلت قائمة أجيالا طويلة فى بعض أرجاء أوروبا ، بعد أن قضت عليها غزوات البرابرة فى مناطق أخرى . فضلا عن أن دعوة لوثر قد أقحمت بعض أصقاع المانيا سنة ١٥١٧ فى ثورة دينية أشد وطأة من تلك التي كان يطلق عليها حركة الاصلاح النهائي فى إنجلترا سنة ١٥٣٠ . هذا ، وكان عصر النهضة قد بدأ يؤثر على الفكر الايطالى سنة ١٣٥٠ ، أكثر مما أثر على الفكر الفرنسي سنة ١٤٥٠ ، أو الفكر الانجليزى سنة ١٥٠٠ . ويمكن تحديد العصور المظلمة — وهي النصف الأسبق — بأنها تقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ ميلادية وأما القرون الخمسة التالية فانها تشكل بمعنى أخص ما يعرف بالعصور الوسطى الحقيقية حسبما يطلق عليها المؤرخون الفرنسيون .

وهنا يجدر بنا أن نتناول كلا الفترتين على التوالى ، لأنهما كانتا متصلتين بطبيعة الحال . وإذا تعين علينا ، من باب الاختصار ، أن نعالج

الموضوع إجمالا ، وجب أن نضع نصب أعيننا دائما أن أى تمييز غير محدد بين الفكر فى العصور الوسطي من جهة والفكر القديم أو الحديث من جهة أخرى ، لا يمكن أن يكون حقيقة مؤكدة . ويمكن القول، بوجه عام، إن بعض وجوه الفكر هى التى تحدد خصائص أى عصر من هذه العصور الثلاثة .

لقد كان البرابرة الذين أغاروا على الامبراطورية الرومانية شديدى التمسك عادة بمبدأ الفردية. وغالبا ما كانت قبائل الشمال من مستوطنى الأدغال التى اعتمدت فى حياتها بصفة أساسية على صيد الحيوانات والأسماك وتربية الماشية ، والتى بلغ أرقاها حضارة ومدنية مرحلة الزراعة المستقرة ، وبفضلها كانت القرية هى الوحدة الأساسية الرئيسية — أقول غالبا ما كانت هذه القبائل تعيش فى تجمعات كبيرة تتفق تقريباً مع الولايات الحديثة. وكان الفرد يستدعى فى أوقات الأزمات الكبرى فحسب لكى يقوم بواجبه نحو القبيلة أو الامة بأسرها . وكان الغزاة المغول القادمون من الشرق هم أيضا لا يزالون أشد تمسكا بالفردية . وكان ثمة شبه اعتراف ببعض الفوارق بين الطبقات ، ولكن المغول كانوا يفخرون بشعارهم القائل « لا ملك لنا ، ولا نريد لنا ملكا أيا كان ، ففيما بيننا كل رجل ملك » . وظل الغزاة ينمون هذه الفردية المتطرفة إلى حد ما ، حتى قبل أن ينقضوا على الامبراطورية الرومانية والواقع لولا أنهم تعلموا فعلا وقتذاك كيف يوجهون ضرباتهم بشىء من قوة أمة متحدة ، بل وبقوة جنسيات متباينة يربطها معا فى تلك الآونة هدف واحد محدد ، لما وسعهم قط ان يهزموا الجيوش الرومانية : ولقد أدرك القوط ، وهم أسبق أولئك الغزاة وأكثرهم تمدينا ، بصورة جلية ، أهمية قيام حضارة راقية فلم يتطلعوا إلى تحطيم جهاز العمل الرومانى أو إبداله

بأنظمتهم الاجتماعية : بل عمدوا إلى أن يهيئوا لأنفسهم اولا مكانا فى ظل هذه الحضارة العظيمة . وحتى بعد نجاحهم فيما بعد فى العمليات الحربية ، فقد حاولوا الاحتفاظ بالنظام القديم طالما كانوا يشعرون بالقدرة على العمل(١) ، وكان النظام الامبراطورى الذى يمتاز بدقته المتناهية فى شئون الضرائب والمالية شديد التعقيد بالنسبة لهم ، بحيث لم تكن هناك ضرائب مفروضة من جانب الدولة فى الامبراطورية الغربية خلال ستة قرون أو سبعة ، إلى أن ادت الحروب الصليبية إلى فرض أنظمة بناءة فى شئون الحكم . ففى خلال تلك القرون الستة أو السبعة ، كان على الحكام أن يعيشوا ويعملوا اعتمادا على دخل أملاكهم الخاصة ، وعلى الخدمات الإجبارية التى كان لهم ان يطلبوها من رعاياهم أثناء الخدمة العسكرية ، وفى تشييد الحصون والجسور ، وعلى ما يتسنى لهم الظفر به من غنائم الحرب . وقد ساهم ذلك - شأنه شأن أى أمر آخر - فى جعل الحرب أمراً عاديا مألوفا فى المجتمع

---

(١) نجد مثلا واضحا لذلك فى القوط الشرقيين فى ايطاليا الذين كانوا متفوقين حضاريا على العناصر الجرمانية الأخرى . لقد أدركوا اهمية قيام مدنية متقدمة وهم الشعب الغالب الأقل مدنية الذى عاش مع الشعب الرومانى المغلوب صاحب التراث القديم . لذلك لم يحطموا جهاز العمل الرومانى ، ولم يستبدلوه بأنظمتهم الاجتماعية . بل نراهم يبقون على النظام القديم ، ويهيئون لأنفسهم مكانا فى ظله ومن أشهر ملوكهم الذين نهجوا هذا السبيل وشجعوه مؤسس دولتهم المسمى ثيودوريك ، أنظر Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, 109,110; LaMonte, The World of the Middle Ages, 46; Cantor, The Medieval World, 73 sqq.

الوسيط (١) .

على أنه وجدت فى تلك الأثناء مدنية جديدة آخذة فى النمو على أنقاض المدنية القديمة ، تلك هى مدنية النظام الاقطاعى — أو كما يود البعض تسميتها على سبيل السخرية - مدنية تفتقر إلى النظام . ونقول « على سبيل السخرية » لأنه يبدو اننا نجهل الحقيقة الجوهرية ، وهى أن الاقطاع ولو أنه غير منظم ، إلا أنه - على الرغم من بيروقراطية الامبراطورية الرومانية (٢) الفائقة التكوين ،

---

(١) على الرغم من أن الجيش الاقطاعي كان يضم أحيانا فرقا من رماة السهام والمشاة ، إلا أنه كان يتألف فى معظمه من الفرسان الذين ينحدرون من أصل عريق يرتبط بالمولد وشرف الدم ويقاتلون على ظهور الخيل . وكانت شجاعة الفارس نوعا من المغامرة الهوجاء ، وولاؤه هو ولاء التابع للسيد المتبوع . وكانت مصالحه الخاصة لها اعتبارها ، خاصة إذا تعلق الأمر بالغنائم والاسلاب والحصول على فديات عن الاسرى : ومن ثم إذا تقابل جيشان اقطاعيان ، كان بوسع أى فارس التصرف كما يحلو له . أما النتيجه النهائية فتعتمد على سلسلة من المبارزات التي يحددها عامل الشجاعة الفردية . وأما الحروب بمعناها الواسع المعروف فكانت نادرة الوقوع فى اوروبا الاقطاعية . وقد تميز القتال فى ذلك العصر ، بصفة عامة ، بشن الغارات على أرض العدو بقصد السلب والنهب ، أو قيام المناوشات بين جماعات قليلة العدد من الفرسان ، أو المنازلات والمباريات الفردية ، أو المعارك المتعلقة بحصار المعاقل والحصون ، أنظر C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 67 — 68 .

(٢) للمزيد من المعلومات عن البيروقراطية الرومانية ، أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ، ص ٧٣ وما بعدها .

والممثلة فى أكبر هيئتيها البيروقراطيتين كما يود غالبية الناس أن يقولوا - كان مع ذلك منظما إذا ما قورن بتلك الحياة الموغلة فى البدائية التى عاش الغزاة فى ظلها فى غاباتهم ومستنقعاتهم الوطنية . وبوسعنا أن نقول بأن الاقطاع كان ، على وجه التقريب ، عبارة عن امتزاج بين العناصر التيوتونية والعناصر الرومانية القديمة قدر الاستطاعة ، بحيث يتم التآلف بينهما على أكمل وجه . وكان المجتمع الرومانى قد أخذ فعلا فى الانحلال قبل غزوات البرابرة ، بينما كان المجتمع التيوتونى آخذا فى التبلور فى صورة مجتمع أرقى مدنية عما كان عليه فى الماضى . وترتب على ذلك أن أصبح الائتلاف أيسر منالا عندما حان الوقت ليستقر الشعب التيوتونى الغالب مع الشعب المغلوب ذى التقاليد الرومانية .

لقد كانت العلاقة بين القن وسيده فى النظام الاقطاعي(١) علاقة مزدوجة ،

---

(١) جدير بالذكر أن لفظ الاقطاع Feudalism لم يستخدم فى اللغتين الانجليزية والفرنسية وفى غيرهما من اللغات الاوروبية الحديثة إلا فى أخريات القرن الثامن عشر ، عندما وجهت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ عناية العلماء والباحثين الى بعض خصائص الانظمة القديمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمات مثل « الاقطاع » و « النظام الاقطاعى » و « القن » و « القنية » و « المانور » و « الدومين » ، وما شابهها لها مكانها فى المعاجم والقواميس ؛ وأصبحت تكون جزءا من حصيلة المصطلحات التى يستخدمها الكتاب والمؤرخون المحدثون ويقول كارل ستيفنسون فى كتابه «الاقطاع فى العصور الوسطى » اننا نجد مثل هذه التعبيرات مناسبة عند ما نتحدث عن تلك العلاقات المتشابكة التى قامت بين الأفراد وبعضهم البعض فى القرون الوسطى . أنظر C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 1 — 2.

إذ تشمل الناحيتين الاقتصادية والشخصية . فالرجل الواحد حسبما ذكرنا آنفا ، لم يكن مالكا لأرض رجل آخر فحسب ، بل كان أيضا سيداً له . وكان الميل نحو هذا الاتجاه خلال الأجيال الأخيرة من تاريخ الامبراطورية ، يرجع أساسا إلى مدى استغلال الطبقات العاملة والطبقات الوسطى المكافحة ، وهي عصب المجتمع وعموده الفقرى . أما الضرائب فقد توخت الدولة الرومانية فى فرضها عناية تامة ودقة متناهية وكانت من بعض الوجوه فائقة من حيث أصالتها وقدرتها المنتجة . غير أنها لم تلبث أن تحولت تدريجيا إلى أداة كبرى للظلم والطغيان . فقد كان من أيسر الأمور على الرجل صاحب النفوذ أن يتخلص من أعبائه عن طريق الرشوة أو التهديد والإرهاب . أما صغار القوم فكانوا يلوذون بالفرار لضيق ذات ايديهم ولعجزهم عن مراضاة جباة الضرائب . ومن ثم وقع العبء الرئيسي على الفلاحين والمزارعين . واضطر هؤلاء الناس الذين كان عددهم فى إزدياد مطرد الى الاحتماء فى كنف أقرب سيد من مـلاك الأرض . وكان المالك الكبير يقول بلهجة طبيعية فيهـا من الاقناع ما يكفي : « إن باستطاعتى حماية أرضى لا أرض الآخرين ، فاعطني أرضك ، ولسوف أردها إليك مقابل أجر بسيط » .

وهكذا نشأ ماعرف فى القانون بحق الملكية غير الثابت . وبموجب هذا الحق يكون لمن يحرث الأرض حقوقا قبل الغير ، . لكن لا يكون له أى حق قبل السيد الكبير الذى آلت الأرض إليه . وكثيرا ما تقع أعيننا على شيء من هذا القبيل فى مجتمعنـا الحديث . مثـال ذلك أن يقوم أحد الأديرة أو فاعل خير بانشاء ناد للصغار يمارسون فيه لعبة الكريكت أو كرة القـدم . فهو يذهب إلى صاحب أرض فضاء صالحة للبناء ويحصل منه على إذن مؤقت ليلعب الأولاد فيها ، ويصبح لهؤلاء الأولاد ومديرهم حقوق قبل أى قادم

جديد ، فى حين أنه لاحقوق لهم قبل المالك الأصلى الذى يحق له أن يسحب ترخيصه فى أية لحظة .

هذا ، وقد اعترف المجتمع التيوتونى بصورة قاطعة بوجود رابطة شخصية بين فرد وآخر ، لاصلة إطلاقا بينها وبين الروابط العائلية أو روابط الدولة. فكان على الشبان أن يلتحقوا بخدمة محارب عظيم ، يأكلون على مائدته ، ويقاتلون فى معاركه . وإن هذه « الألفه والزمالة » كما كان يطلق عليها ، أو « حق السيد على المسود الذى يدين له بحلف يمين التبعية والولاء » (١)

---

(١) أوضح كارل ستيفنسون فى مؤلفه « الاقطاع فى العصور الوسطى » الاجراءات المتعلقة بيمين التبعية والولاء فى المجتمع الغربى الوسيط . يقول ان القن عبارة عن فلاح يعيش على قطعة من الأرض عبارة عن خصص صغيرة مبعثرة يمنحها اياه سيده اللورد صاحب الدومين ، وهو مرتبط بهذه الأرض ارتباطا وثيقا بموجب واجبات التبعية التى لاتعرف حدا . إذ جرت العادة أن يقدم التابع بين يدى السيد المتبوع يمين الطاعة والتبعية « homo » ، ثم يؤدى بعد ذلك يمين الولاء والاخلاص « fidleitas » ، وذلك فى احتفال واحد ذى شقين . يبدأ الشق الأول بأن يركع التابع أمام سيده واضعا يده فى يده ، معتبرا نفسه رجله متعهدا بالدفاع عنه ضد الجميع ، فى الحياة وحتى الموت . بعد ذلك يقول السيد انه قبل فلان تابعا له . وبعد هذه الاجراءات يؤدى التابع يمين الولاء والاخلاص : وهى أن يحلف على الكتب المقدسة والذخائر الدينية بما يؤكد العهد الذى قطعه على نفسه . ولم تكن هناك بطبيعة الحال صيغة معينة لهذا القسم ، وإن كان لايخرج فى جملته ومضمونه عما ذكرناه . وكانت اجراءات التبعية معروفة عند الفرنجة ، ولعلها كانت أقدم من ذلك . ويبدو أن الاحتفال كان فى جوهره خاضعا للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التى تقضى بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة أو =

كما يجب أن نسميها ، كان معترفا بأنهـــا رابطة أوثق من تلك التي تقوم بين الإبن وأبيه ، أو بين أحد الرعايا والحاكم . وقد اعترف المجتمع الرومانى كذلك منذ أقدم العصور بوجود روابط اختيارية من هذا القبيـل تحت اسم « الحماية » patrocinium . ولما كانت هذه العادات قوية متأصلة على جانبى الحدود قبل الغزو الجرمانى ، فانه يسهل علينـــا أن نرى كيف حافظت تلك الغزوات عليها ، وعملت على نشرها وتقديسها . وتحت ظل هـذه الظروف كان الشخص البسيط فى أشد الحاجة إلى المساعدة عما كان عليه من قبـــل . وكان على استعداد لان يبيع نفسه فى سبيل هذه المساعـدة ، بينما كان بوسع الشخص المقتدر أن يفوز بصفقة رابحة من وراء ذلك .

وهكذا نشأت حالة مجتمع دامت قرونا طويـــلة ، وبلغت ذروة نموها حوالى فترة الغزو النورمانى لانجلترا . وكان هذا المجتمع يشمل افرنجة الغرب ، وهم أولئك السكان الذين نزلوا فيما نسميه الآن فرنسا ، وقد أخـذ النورمان عنهم معظم حضارتهم . وكان دخول الإقطاع فى شكل أكثر تنسيقـــاً ونظاما عما هو موجود فى بعض الأنحاء الأخرى بأوروبا ، ميزة كبرى لانجلترا .

= العشيرة . أما يمين الولاء والاخلاص فقد استحدثت نتيجة التأثير المسيحى . ومع ذلك لم يكن هذا اليمين وحده كافيا لايجاد رابطة التبعية . اذ نعرف أنه كان يطلب من الرعايا الاحرار فى عهد الكارولنجيين ، كما كان الحال فى عصر متأخر ، أداء يمين الولاء للحاكم حتى ولو لم يكونوا اتبـــاعا له . ونخلص من هذا أن يمين الولاء بمفرده لا يعنى التبعية ، فى حـــين أن المبايعة والتبعية كانتا تدلان ضمنا على الولاء والاخلاص للسيـــد المتبوع . أنظر
C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 18 - 19 .

ومن ثم كان المجتمع الأوروبي في ظل النظام الإقطاعي منظما تنظيما يختلف اختلافا كبيراً عما كان عليه أيام الإمبراطورية الرومانية ، أو عما هو عليه الآن . وأيا كانت النظرية ، فالواقع أن الطاعة يدين بهـــا الفرد لصاحب الأرض التابع له تبعية مباشرة . وربما كان للفرد سيد واحد لأن المقتنيات الملكية كانت وفيرة ، وكان الفلاح يدين بالولاء للملك وحده فيما يتعلق بهذه المخصصات : هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجوز أن يكون الفلاح تابعـــاً لستة من السادة ملاك الأرض تتفاوت درجة صلتـــه بهم . فاذا كان صاحب الأرض التابع له الفلاح مباشرة هو السيد صاحب الأملاك ، فإن هذا التابع المحلي — ونقول ذلك لنضع الكلام في صيغة حديثة — قد يصبح المستأجر المباشر من الملك ، بيد أنه ، من ناحية أخرى ، يجوز لهذا التابع أن يحصل على أراضيه تحت تبعية متبوع آخر ، وهذا الأخير تحت تبعيـــة شخص ثان ، وهذا الثاني تحت تبعية كونت أو بارون أو أسقف أو رئيس دير ؛ بحيث انه كان ثمة مراحل عديدة بين الفلاح الحقيقي الذي يحرث الأرض وبين الحكومة المركزية . ولكن الفرد كان يدين بالولاء لصاحب الأرض التابع له مباشرة . ومن الجائز أن يكون له سادة عديدون ، ومع ذلك لم يكن له سوى سيد واحد من المتبوعين ، وهو الشخص الذي استمد منه الأرض رأسا . ومن هنا نشأ التناقض العجيب الذي أصبح الفلاح بمقتضاه يكن لسيده النبيل من الولاء أكثر ما يكن للملك . وكان يفصل في المخاصمات أمام محكمة السيد النبيل ، أي محكمـــة صاحب الأرض حقاً أنه لو قتـــل أحد الأرقاء فعلا أو مثل به ، كان من الجائز استئناف الحكم أمام محكمة الملك ، أما في غير هذه الحالة فيتعين على العبد وسيده أن يتقاتلا دفاعا عن النفس : لقد كانت الامبراطورية الرومانية قائمة على المركزية المتطرفة ، بينما

كانت العصور الوسطى لا مركزية إلى حد بعيد (١) .

على أنه كانت فى تلك الأثناء سلطة مركزية كبيرة آخذة فى النمو . ففى أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية — والذى كان قد أصابها بصفة قاطعة قبل تلك الكارثة التى انتهت بغزوات البرابرة — كان هناك شيئا واحدا آخذا فى النمو بصورة أقوى ، ونعنى بذلك ظهور الدين المسيحى . وقد اختلفت الآراء فى تفسير هذا الحدث ؛ ولكنه مع ذلك حدث لا سبيل إلى إنكاره ، شأنه شأن أى ظاهرة أخرى فى التاريخ ؛ ذلك أن الإيمان بنجار مصلوب ، وباتحاد دائم فيه عن طريق الأسرار المقدسة التى وضعها ، قد اختطف من الناس قلوبهم ، وأذهـــل عقولهم أكثر من أى حادثة أخـــرى سجلهـــا الزمن بما فى ذلك الديانة البوذية . وقـــد خشيت الحكومـــة الامبراطورية من أمر هذه الطائفة الجـــديدة ، وكرهتها باعتبارها دولة داخـــل الدولة . ولذلك نشأت الديانة الجديدة فى ظل الاضطهاد . وأخيرا رأى قســـطنطين الكبير أنه عاجز عن سحقها ، فآثر التحالف معها . وأصبحت الكنيسة الجديدة هى كنيسة الدولة . (٢) وإذا كان قد سمح للعقائد الأخـرى بالبقاء بصفة

---

(١) أنظر عن ذلك كو بلاند وفينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٨ ، والكتاب مذيل ببعض المراجع المتعلقة بالإقطاع فى العصور الوسطى . راجع أيضا هارتمان وباراكلاف : الدولة والإمبراطورية فى العصـور الوسطى ، ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف ، ص٧٥.

(٢) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص٩٣ - ٩٤ والحواشى : راجع أيضا Cantor, The Medieval World: 300 —1300, 22—24; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 29 sqq., 46 sqq., 79 sqq.

عامة ، فإنما سمح لها بذلك باعتبارها ضربا من الشعوذة فحسب . أما الآن فما عاد يسمح بأية عقائد أخرى . وقد غدت الكنيسة بعد أن كانت مضطهدة تستجدى الرحمة ، هيئة قوية قام كثيرون فى وجهها مراراً دون جـدوى . وكانت هذه الكنيسة قد بلغت مرحلة النضج والقوة قبل انحلال الامبراطورية ؛ وكان تنظيمها ، وملابسها ، وحتى بعض طقوسها متمشية على نسق ما كان متبعا فى الامبراطورية نفسها .

وقد أغدقت عليها هبات لها وزنها ؛ ولكن جانبا كبيرا منها استخدم فى الأغراض الدينية أو الخيرية . بل كان البرابرة ، وهم فى أحسن أحوالهم ، يحترمون الكنيسة ويبجلونها . (١) ولهذا السبب ظل الأسقف والقس عادة كل منهما فى وظيفته ، بينما كانت غارات البرابرة تكتسح أمامها الحكام المدنيين ؛ وهكذا اتخذت الكنيسة قالب الامبراطورية ، كما يتخذ سرطان البحر قالب قشرته لينزوى بداخله . ويمكن القول بأنه حوالى عام ٧٠٠ كانت الكنيسة الرومانية هى كل ما تبقى من الامبراطورية الرومانية . ذلك أن أسقف روما وصل تدريجيا وبمضى الزمن إلى مركز رئاسى ، واعترف به بصفة قاطعة تقريبا على كافة الأساقفة الآخرين . وهكذا أضفى بصورة واضحة ملموسة نموذج عملى على تلك النظرية الخاصة بمدينة الله ، وهى النظرية التى ابتدعها القديس أوغسطين (٢) ، بينما كانت « مدينة الإنسان » ، أى

---

(١) للمزيد من المعلومات ، أنظر .Pirenne, Medieval Cities, 42 sq

(٢) هو القديس أوغسطين أوف هيبو .St. Augustine of Hippo ولد سنة ٣٥٣ وتوفى فى ٤٣٠ عن ٧٧ سنة . كان قبل اعتناقه المسيحية مدرسا لعلم البيان فى إيطاليا . كما كان على علم بآداب اللاتين القدامى والمناقشات

الامبراطورية ، آخذة فى التدهور والانقسام على بعضهما . وان هـذا المثل الأعلى الذى سنعود اليه فى أحد الفصول القادمة ، قد سيطر تقريبا على عقلية الفرد فى القرون الوسطى ، ولو أن هذه السيطرة لم تبلغ هذا الحد من الناحية العملية :

لقد بدأت العصور الوسطى ببعض المزايا والمساوىء . أما المزايا فأهمها اثنتان تبدأ بهما صفحة ناصعة إلى حد بعيد . ففى طيهما تكمن القوة الدافعة للدين الجديد وهو المسيحية . ولم يعترف جيبون Gibbon بهاتين المزيتين ، فمن الواضح أن مجىء المسيحية كان فى نظره أول الانتصارات البربرية وأكثرها شؤماً . وكان يهزأ بمفاخرة أحـد آباء المسيحية الأول وهو الآب

= الفلسفية والأدبية فى عصره ، وقرأ الكثير عن أدب الاغريق وفلسفتهم فى التراجم اللاتينية . وله مؤلفات عديدة أهمها كتابه المشهور « مدينة الله » « De Civitate Dei » الذى بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ ، وقد تحدث فيه عن فلسفة المسيحية . والكتاب فى الواقع عبارة عن لاهوت وقصص أكثر منه تاريخ وفلسفة . ومما يذكر أن جهود القديس أوغسطين الأدبية هو وغيره من القديسين كانت لها آثارها فى سرعة انتشار الرهبنة فى أوروبا فى القرن الخامس . أنظر عن ذلك : هرنشو : علم التاريخ ، ص٤٢ ، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ، ص ١٥-٤٦ ، عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٥-٢١ أ. نظر كذلك .Mommsen, Med and Ren Studies, 265-98 - ومؤلف كتاب «مدينة الله» هو غير القديس أوجسطين أول رؤساء أساقفة كانتربرى الذى أوفده البابا جريجورى الكبير إلى انجلترا عام ٥٩٧ على رأس بعثة تبشيرية لنشر المسيحية فيها من جهة والعمل على إعادة فرض النفوذ البابوى الرومانى عليها من جهة أخرى ، أنظر :
Woodward, Hist. of England, 13.

ترتوليان Tertullian (١) (ت حوالى سنة ٢٢٠ م) بأن نجارا منسيحيا كان على استعداد للرد على أسئلة حيرت عقول أعظم حكماء العصور القديمة . لقد كان لهذا الازدراء ما يسوغه إذا نظرنا إليه من وجهة نظر واحدة : ولكن إذا امعنا فى الأمور بعمق ، يتعين علينا أن نعتبر اهتمام النجار(٢) جديا بكل هذه المسائل ، وفى أن نجد جوابا يكون له بصفة عامة قيمة أخلاقية بارزة ، كسبا حقيقياً للحضارة ذلك أن المجتمع فى الامبراطورية الرومانية أصبح تدريجياً مجتمعا جامدا لا حياة فيه . فكانت الأصالة فى الآداب والفنون قد تدهورت ، وكان المواطن الرومانى قد تخلى عن الكثير من حرياته السياسية، قانعاً بأن يعهد بأمر الدفاع عن الامبراطورية إلى المرتزقة من البرابرة . وكانت الطبقات الوسطى ، وهي الطبقات العاملة الكادحة ، تسام الاضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضرائبى تلقى بمقتضاه « أثقل الأعباء على ظهر الجواد الوديع » وفى غمرة هذا الاستهتار أو الانحلال كان هناك شيء واحد قد نما بقوة وثبات ، الا وهو الدين الجديد .

---

(١) ولد ترتو ليان سنة ١٦٥ وتوفى فى ٢٢٠ عن ٥٦ سنة . وهو محام كبير من قرطاجنة ، وقد اعتنق المسيحية ورسم كاهنا ، وانصرف منذ ذلك الحين إلى التأليف فى الشئون الدينية . وكان متفقها فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، ووضع عدة مؤلفات منها كتاب يسمى « دفاع » تناول فيه اضطهاد الرومان للمسيحية ، وكتاب « إلى الأمم » الذى يهاجم فيه الوثنية . وقد حمل بشدة على الفلسفة والفلاسفة إعتقادا منه أنهم أعداء للدين ؛ ويبدو هذا واضحا فى كثير من تآليفه . أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية، ص ١٢-١٣؛ Katz, Decline of Rome, 7-8, 182; Coulton, Med. Panorama, 13-14, 260; Dill, Roman Soc., 385.

(٢) أى المسيح .

ولكن هذا الدين فقد بعض خصائصه السابقة حوالي سنة ٤٠٠ م . وقد أدى قبوله كدين للدولة إلى ضعف هذا المجتمع ، كما أدى إلى قوته . بيد أنه ظل محتفظا بكثير من تلك القوة والأصالة اللتين ميزتا المجتمع المسيحي باعتباره الشيء الوحيد الذى لا يتفق قيامه مع الحضارة الرومانية التقليدية ، والشيء الوحيد الذى طالب بأحقيته فى اجراء تغييرات جذرية شاملة داخل مجتمع اعتمد فى سبيل ثباته على كيان أفقى يقوم على الفوارق الطبقية . وكذلك بوصفه الشيء الذى طالب بولاء يفوق الولاء المفروض للدولة ، ومن ثم بوصفه الشيء الذى دمغ بالاضطهاد فى عالم يختلف فيه وجه التسامح . وتتميز عقلية القرون الوسطى ، ولو من الناحية الشكلية على الأقل ، بالاقتناع بأن لكل انسان روح يتعين عليه أن يلتمس لها الخلاص . ومن هنا كان الخلاص هو الغاية النهائية التى لا بد منها لكل كائن حى . وليس ذلك بالمثل الأعلى البعيد التحقيق ، ولكنه أعظم واجب على فرض على الجميع .

لقد غرست هذه البذرة الثورية فى أرض تم حرثها بيد الثورة السياسية والاجتماعية . وربما كانت الاستعارة أدق إذا قلنا إنه تم حرثها فى حقول اكتسحها طوفان جبار ثم تركت بصفة مؤقتة قاحلة جرداء مع بقائها غنية بالأرض البكر . وقد أصبح ذلك بمرور الزمن ميزة العصر الوسيط الثانية ، الجديرة بالرثاء كما كان شأنها فى بادىء الأمر . وقد احتفظ النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية (١) بدستوره السياسى والاجتماعى سليما نسبيا لعدة قرون أخرى ؛ ولم يكد يفضل أكثر من أن يسجل الزمن طيلة هذه الحقبة . أما النصف الغربى فقد غرق وأصابه الانحلال ، ولكنه لم يلبث أن طفا على

(١) المقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية .

وجه الماء بحيوية بلغ من أمرها أنه ما أن ولت العصور المظلمـــة حتى سار الغرب في المقدمة ، وأحرز سبقاً فى تلك الفنون التى تفوق فيها الإغريق .

ولنعد الآن إلى الوراء لنواجه مساوىء العصور الوسطى . فهذه العصور تنطوى بدورها على سوأتين ، إحـــداهما معنوية والأخرى مادية . وهذه الأخيرة لا تحتاج هنا إلى اهتمام خاص ذلك أن الفوضى التي ألمت بالعالم الغربي معروفة تماما . ونجد من الوجهة المعنـــوية العملية نه بينما اجتذبت المسيحية الكثير من أفضل ما أنتجه الفكر القديم ، فقد اختلطت فى الوقت ذاته إلى حد بعيد بتمدن غير أصيل .

ويمكن تقدير العناصر الرئيسية قبل المسيحية بأربعة . العنصر الأول وهو الفلسفة التى تحتوى على قدر عظيم من دروس الأخلاق ؛ ولكنها في جوهرها دروس أكاديمية ، فضلا عن قصورها عن الوصول إلى مستوى الرجل العادى . أما العنصر الثانى فهو دين الدولة الذى تظاهر به الرجل العادى بوصفـه أمرا رتيبا روتينيا . ولكن هذا الدين لم يعمد قط إلى تدريس الأخلاق أو حتى التظاهر بذلك ، إذ كان دينا رسميا بحتا فحسب . والعنصر الثالث هو العبادات المختلفة وبخاصة تلك التى من أصل شرقي . مثال ذلك عبـــادات سيبيل Cybele ، وايزيس Isis ، وسيرابيس Serapis ، ومثرى Mithras . (١) وقد تميزت هذه الديانة الأخيرة بقدر ضئيل من المعنويات : بينما اتصفت العبادات

---

(١) فيما يتعلق بهذه العبادات أنظر : Rose, Ancient Greek Religion, 108, 126-9 ; idem, Ancient Roman Religion, 94-5, 132 sqq. , 136 sqq ; Cerny, Ancient Egyptian Religion, 134 sqq. ; Dill, Roman Society, 76-83.

الأخرى ، أو بعضها على الأقل ، بإباحية صريحة . والعنصر الأخير هو اليهودية ، وهى قوية فى إيمانها بالوحدانية وفى نفورها من عبادة الأصنام ، كما أنها قوية فى تضامن شعبها اجتماعيا،وان كانت تتميز بضيق الأفق والتعصب ذلك أنها كانت تتخيل يهوه Jehovah على أنه إله قبلى صديق لبنى اسرائيل فحسب ، وأنه يكره من ليس من أصل يهودى . ولقد اتحدت هذه الخيوط الأربعة فى الديانة المسيحية .

سبق أن ذكرنا ما يبدو لنا أنه أعظم حدث لا يقبل الجدل فى التاريخ ، ذلك هو الايمان بنجار مصلوب . ولو انه صعد الى السماء ، إلا أنه أذهل عقول الناس واختطف قلوبهم الى حد لا مثيل له بين الأحداث التى سجلها التاريخ . ولقد تمكنت هذه الأفكار الجديدة تماما من الكثيرين ، حتى أنهم صموا آذانهم عن كل نصح لهم بالعدول عنها ، وكانوا على استعداد لأية تضحية فى سبيلها . وكان هذا هو مصدر ما بدا من حماسهم وصلابتهم التى لا تلين فى تمسكهم بهذا الدين ، وهو ما ذكر جيبون أنه أحد الأسباب الرئيسية التى أدت الى انتشار المسيحية . فمن أجل إنسان واحد ملهم تأثر مئات من الناس تأثرا عميقا ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة . وهكذا اتجه الدين الجديد الى استيعاب الكثير من أفضل عناصر الفكر السابقة . ولكن كان ثمة ما هو أكثر من الاستيعاب ، إذ وجد تآلف حقيقى بينها . وكان أن صهرت هذه الشعلة الحية تلك الاسلاك التى كانت منفصلة عن بعضها وحولتها الى سلك واحد . ويمكن القول أن الفكر بالنسبة للقرون الوسطى قد سار فى اتجاه واحد وبصورة أبلغ وضوحا وتحديدا مما جرى فى أى وقت مضى ، بل ومنذ أن دونت أحداث التاريخ . وظل هذا الوضع حقيقة ماثلة حتى بعد أن استقرت كافة الأوضاع التى سنعود اليها فيما بعد .

بيد أن هذه العقيدة الجديدة قد أثرت فيها الآراء القديمة ، فأخذت عنها بعض نواحي ضعفها . فانحدر الفكر من مستواه الرفيع إلى مستوى العامة ، مما يتفق مع المعنيين اللذين تنطوي عليهما كلمة Vulgaris اللاتينية ، أي الشعبي أو العامي . إذ انتشرت المعرفة Vulgus بين الناس قاطبة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعين على الفكر أن يتنازل من عليائه لينتصر . لذلك عمد الفكر الرفيع الى التوفيق الى حد ما بينه وبين الآراء الفجة المغرضة . فعن الوثنية أخذت المسيحية عادة عبادة الصور التي مقتها الآباء الأقدمون . ويؤكد اوريجين (١) Origen (سنة ٢٤٠ م) أنه لا يوجد مسيحي بلغ به الجهل أن

(١) تتلمذ اوريجين على يد كلمنت الاسكندرى ؛ ويعتبر من أبرز الشخصيات التي ظهرت في تاريخ الكنيسة المسيحية . ولد حوالى سنة ١٨٥ م ، وهو من الاسكندرية ، ونشأ في بيئة مسيحية . ونعرف عنه أنه تلقى تعليمه الديني على يد والده . وفي أثناء اضطهادات الإمبراطور سفيروس استشهد أبوه ليونيداس . واضطرت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية الى التوقف عن أعمالها ، خاصة وأن رئيسها كلمنت كان قد غادر البلاد ولم يحل محله أحد . وهكذا بدأ اوريجين في التدريس بصفة غير رسمية بالمدرسة المذكورة . ثم قام دمتريوس أسقف الإسكندرية وقتذاك بتثبيته في منصبه كرئيس للمدرسة ، وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره . وقد أدى نشاطه الى ظهور نهضة كبيرة في تلك المدرسة ، وهو يعتبر بحق أول أستاذ للنقد العلمي للتعاليم الدينية . ويبدو انه اهتم في الفترة الأولى من حياته العملية بدراسة النصوص الدينية ، وكتب عليها كثيرا من التعليقات . وقد حذا حذو استاذه كلمنت في استخدام الفلسفة اليونانية لخدمة المسيحية . واضطر الى مغادرة مصر سنة ٢١٥ م . ويبدو انه عاش في مدينة قيسارية بعض الوقت ، ثم عاد مرة اخرى الى الاسكندرية . ولكن العلاقات ساءت بينه وبين الأسقف دمتريوس ، واضطر الى ترك البلاد مرة ثانية سنة ٢٣١ حيث أمضى البقية الباقية من حياته في سورية . وقد توفي أثناء اضطهادات الامبراطور ديكيوس سنة ٢٥٠ م عن ٦٥ سنة تقريبا . ومما يذكر عنه انه استخدم التعليم الديني في خدمة العقيدة الجديدة ،

يؤمن بأنه يستطيع أن يتوصل إلى الله عن طريق التأمل فى صورة ما (١) ومن العبادات الدينية انتقل إليها حماسة لم تكن دائما متفقة مع الأخلاق . واما عن اليهودية فقد انتقل إليها تعصب لا سبيل معه إلى التسامح . ذلك أن المختارين الذين اصطفاهم الله كانوا يؤلفون جانبا من الإنسانية ؛ أما الباقون — أى « الأمم » و « غير اليهود » — فان الله لم يشملهم بعهده . لذلك كان الدين الجديد على استعداد لتبنى الفكرة الامبراطورية التى كانت تهدف إلى السيطرة على العالم ولو بالقوة إذا اقتضت الضرورة ذلك . وهكذا احتفظ بالفكرة الامبراطورية العظيمة البناءة ، الا وهى فكرة العالمية .

وحينما اكتسح البرابرة فى أثناء غزواتهم الحكام والقضاة الرومان ، كانوا يستبقون عادة الأسقف فى أسقفيته والقس فى مذبحه . وكان من المتعذر القضاء على السلطات الأسقفية والكهنوتية نظرا لتماسكها الشديد وقوتها الروحية . أما اللاتينية التى كانت فى وقت ما هى اللغة المألوفة لدى كافة الشعوب الغربية المثقفة ، فقد بقيت بفضل كتب الخدمة الدينية فى الكنيسة ، وبفضل

= وجاهد للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة . كما قام بتفسير العهد القديم ، وبخاصة سفر التكوين ، على أساس فلسفة أفلاطون القائمة على ثنائية العقل والمادة . لقد كان اوريجين متطرفا فى آرائه أثناء حياته . وبعد وفاته اشتد الجدل حول أفكاره خلال القرنين الخامس والسادس ، ورفضت المجامع الدينية قبول الكثير منها : أنظر عن ذلك المراجع التالية :

French, The Eastern Orthodox Church, 29 sqq. ; Tollington, Clement of Alexandria, Vol 1, 48 ; katz, Decline of Rome, 56; Burgh, Legacy of Ancient World, II, 362—6 & notes.

وكذلك راغب عبد النور : أوريجانوس ، مقال فى رسالة مارمينا الرابعة ، ص ٥ — ٣٦؛ بتشر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ١ ، ص ٦٢ — ٩٦ .

(١) Contra Celsum, bk. VII, c. 44. (كولتون) .

ترجمة الكتاب المقدس الذى أصبح بعد مراجعة القديس جيروم (١) St.Jérome له هو النسخة اللاتينية المعتمدة المعترف بها فى العالم ، والتى حلت عمليا محل النص الاصلى . وفى الظروف المواتية ظلت بعض المجموعات من الكتب ، أو مئات منها ، فى مأمن من الضياع داخل الأديرة ، أو فى السكرستيات (٢) الملحقة بالكنائس الكبرى — نقول ظلت هذه المجلدات باقية بعد فناء كل شىء ، طالما لم تمسها أسوأ غارات القراصنة بأى سوء .

وهكذا عملت المسيحية ، مرة أخرى ، على تبسيط المعرفة بما يتفق مع المعنيين اللذين ينطويان تحت هذه الكلمة . فمن ناحية ألقت من فوق ظهر السفينة إلى اليم بقدر كبير من أفضل ما يحتويه التراث الفكرى القديم ، باعتباره تراثا ضارا عديم الفائدة وكان طبيعيا أن يجتذب المذهب الطهرى (٣) الآباء الأول . وقد شكا ترتوليان من أن الفلاسفة الأقدمين كانوا زعماء حركات الهرطقة . بينما أحس القديس جريجورى الكبير بالخزى

---

(١) ولد القديس جيروم سنة ٣٤٦ وتوفى فى ٤٢٠ عن ٧٥ سنة : وهو أحد الكتاب المسيحيين ، عاش متنسكا داخل صومعته فى فلسطين وله مؤلفات عديدة من أهمها ترجمته لحياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى اللاتينية بعد أن زارهم فى مصر فى أوديتهم ومغاورهم فى بطون الصحراوات الشرقية والغربية . وقد ساعدت كتاباته باللاتينية على سرعة انتشار الرهبنة في الغرب . أنظر : Burgh, op. cit., 1, 310—1 ; Coulton, Mediaeval Panorama. 9,11

(٢) السكرستيات هى الحجرات الملحقة بالكنائس لحفظ مقدساتها فيها ، كالملابس الكهنوتية التى تستعمل عند أداء الطقوس الدينية ، والأوانى المقدسة وما اليها .

(٣) هذه الطائفة شديدة التمسك بالعفة والطهر وآداب الدين ، ولذلك عرف أصحابها بالطهريين .

عندما سمع أن أسقفا كان يدرس قواعد اللغة ، أى آداب اليونان والرومان القدماء التى كان الطالب يتلقنها فى سن مبكـــرة بدراسة فرجيـــل Vergil مع امتداحه لجوبيتر Jove بوصفه رب الأرباب الذى يطالب مشددا بالمحبة على الأرض » (١) ومن ثم كانت المجلدات الخاصة بتراث اليـونان والرومان القدماء التى حفظها لنا الزمن قليلة العدد نسبيا ، وضعيفة فى مستواها . أما رؤيا الكاردينال نيومان Newman التى تراءى له فيها راهب العصور الوسطى على أنه عالم كلاسيكى ، فيغلب عليها عنصر الخيال إلى حد بعيد . ومن ثنايا هذه المبالغات تتضح لنا الحقيقة ، وهى أنه « مهما كان تعليم رجل الكنيسة للمثالية محدودا ، فان التعليم المثالى لم يتمكن من المحافظة على كيانه إلا فى أحضـــان رجال الكنيسة ... ولم يكن مرد أكبر جهالة فى العصور المظلمة راجعا إلى قوة النظام الكهنوتى بل إلى ضعفه » . (٢) وأما ما تبقى من العلم القديم فقد انتشر بين شعب أقل ثقافة من المجتمع الذى حل محله . ومع ذلك فقد كان أوفر منه نشاطا ، كما تميز بنظرة أحدث إلى الأمور .

وكما كانت المسيحية ، كما يقول الدكتور وارد فاولر Warde Fowler ، « غرسة وإن نمت فى أرض أنبتت محاصيل أخرى ، فلا تزال جديدة كل الجدة من حيث تكوينها وحيوية عنصرها » ، كذلك كان شأن الفـكر الوسيط . وربما اختلف هذا الأمر اختلافا بينا عن كل من الفكر الـكلاسيكى من جهة والفكر الحديث من جهة أخرى : لقد كان الفكـــر الوسيط فى أول الأمر فخورا بوعيه الجديد . واستلهم موقفه حيال اليونان والرومان من وحى شعار ترتوليان القائل : « إننا رجال الأمس ، ومع ذلك قد ملأنا عالمـــكم » .

(١) Ep IX, 54; cf. R.L. Poole, Medieval Thought and Learning, 2 nd ed. 7 (كولتون) .

(٢) H. Rashdall, Universities of Europe, I , 26 (كولتون) .

« hesterni sumus, et vestra omnia implevimns » . كذلك كان الفكر من وحى الدعوة إلى استجابة الفرد لضميره . « وإن لمحة خاطفة إلى عقيدة العصر الوسيط تكفى ليدرك المرء كيف سرت فى غمرة ذلك كله فكرة قيمة الفرد الخالدة فى تباين شديد مع نظريات العصر القديم . وهى فكرة أوحت بها المسيحية ، وتشبثت بها الروح الجرمانية إلى أعمق أعماقها » . (١) ولم تفقد القرون الوسطى إطلاقا تلك النغمة الواردة فى رؤيا يوحنا اللاهوتى (٢) ؛ وهاك ما جاء فى الإصحاح المنوه عنه : « سقطت سقطت بابل العظيمة (٣) أخرجوا منها ياشعبي لئلا تشتركوا في خطاياها (٤) ... والروح والعروس يقولان تعال ... ومن يعطش فليأت (٥) ... يقول الشاهد بهذا نعم . أنا آتى سريعا . آمين . تعال أيها الرب(٦) » .

ولو ان العودة الثانية المرتقبة للمسيح قد طال انتظارها بمرور الزمن، فلا يبدو مع ذلك أنها ستجاوز قط الأفق المباشر . إن المؤلفات عن

---

(١) Gierke-Maitland, Political Theories of the Middle Age, 81 (كولتون) .

(٢) وهى عبارة عن سفر رمزى من أسفار العهد الجديد ، شديد الغموض، وضعه يوحنا اللاهوتى فى جزيرة باتموس فى عهد دوميشيان Domitian . وفيه يدعى كاتبه أنه يكشف عن مستقبل المسيحية بعد زوال مملكة المسيح الدجال . وقد ظل اسم هذا السفر مرادفا لاستعارة غامضة .

(٣) الرؤيا — الاصحاح ١٨ : ٢ .

(٤) الرؤيا — الاصحاح ٢٨ : ٤ .

(٥) الرؤيا — الاصحاح ٢٢ : ١٧ .

(٦) الرؤيا — الاصحاح ٢٢ : ٢٠ .

لمسيح الدجال وفيرة ، وقد كتب روجر بيكون (١) Roger Bacon فى سنة ١٢٧١ عن هذا الاعتقاد بين « المتعقلين » قائلا إن هذه المرحلة الأخيرة في العالم وشيكة الحلول . ولم يترك دانتى(٢) غير النزر اليسير من المقاعد المعدة للجلوس عليها فى فردوسه . وإذا اتيح له أن يدعى من جديد إلى الأرض ، فربما كان أول دهشة أمام أى اختراع حديث منه أمام إدراكه أن العالم قد بقى ستمائة عام بعد موته . وإننا نعاود الالتقاء بنفس الاعتقاد فى كل جيل

(١) ولد روجر بيكون سنة ١٢١٤ وتوفى سنة ١٢٩٤ عن ٨٠ سنة . وهو من جماعة الاخوان الفرنسسكان باكسفورد ومن أعظم عباقرة العصر الوسيط . كان جريئا فى نظرياته وتجاربه ، كما امتاز عقله بالعمق وسعة الأفق . ولبيكون شروح على الطبيعيات وما بعد الطبيعة لأرسطو ؛ ويبدو أنه لم ينفذ تماما إلى هذا الفيلسوف بعد أن تصدى لشرحه ، وكان يعيب على الترجمات اللاتينية لكتبه : ومن أهم مصنفاته « الكتاب الاكبر » ، و « الكتاب الأصغر » ، و « الكتاب الثالث » ، و « موجز دراسة اللاهوت » . والمعروف عن بيكون انه اوغسطينى يجعل للاهوت المقام الأول ، ويمتاز بشعوره القوى بأهمية التجربة وضرورتها وفائدتها . كذلك أفاد فائدة كبرى من الكتب العربية ، وبخاصة كتب ابن سينا الذى يعتبره « زعيم الفلسفة » . وينحصر منهجه العلمى فى ثلاث وسائل هي : « النقل والاستدلال والتجربة » . انظر : يوسف كرم : الفلسفة الأوربية ، ص ١٣٠ - ١٣٦ ؛ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ ؛ Shorter Cambridge Med. Hist., I, 631, 676 , 1096.

(٢) ولد دانتى اليجييرى سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٢١ . وهو شاعر فلورنسى ، ومن أعظم العباقرة الذين أنجبتهم القرون الوسطى . توفى ابواه وهو لا يزال صغيرا . ولسنا نعرف الكثير عن سنى حياته الأولى . وكل ما نعرفه ان وطأة الحرمان التى قاساها فى الصغر تركت أثرها فى مؤلفاته ، ومنها كتاب « الحياة الجديدة » الذى خلد فيه هيامه بمعشوقته بياتريس . وقد لازمه الحزن منذ موتها سنة ١٢٩٠ ، فانكب على الدراسة والاطلاع ،

تقريبا . وكان سير توماس مور (١) Sir Thomas More نفسه يؤيد ذلك.
ولهذا ، فبينما كان الفكر الرفيع في العصور الوسطى متميزا بجدية عميقة ووعى شديد من حيث المسئولية الشخصية ، عانى مع ذلك أحيانا من افتقار إلى الصبر ، وهو العيب الذى شاب هاتين الصفتين . وكان من الممكن أن يفنى العالم فى أية لحظة . فأية فائدة كانت ترتجى من بداية مؤلمة لسلسلة مستمرة ممتدة من الاحداث والاستنتاجات التى استغرقت جهود أجيال أو قرون بأكملها ، على حين أن بضع سنوات أو حتى بضعة أسابيع كانت كافيـــة لإهلاك كل شيء ؟ ولا يمكن ارجاع النقص الأليم فى الوعى التـــاريخى والملاحظة العلمية أو التجربة فى علم الطبيعة والتاريخ الطبيعى خلال الأمد الطويل ، الى صعوبة التدوين والمحافظة على الوثائق والمستندات فور كتابتها ومقارنتها عن طريق المبادلة المستمرة الحرة بين طلاب العلم . انما يرجع ذلك فى معظمه الى هذا الاتجاه الذهنى المسيطر على كثير من كبار المفكرين فى العالم الآخر ، ومؤداه انه فيما يتعلق بهذه الحياة الدنيـا يجب « أن نتخلى عن

= وتشبع بفلسفة توما الاكوينى وتاريخ اوروسيوس وملاحم فرجيل وستاتيوس . وتعتبر « الكوميديا الالهية » هى أروع ما خلد لنا دانتى ، تلك الملحمة الدينية الدنيوية التى وضعها شعرا باللغة الايطالية المعاصرة بدلا من اللاتينية ، والتى لخص فيها ما وصل إليه خيال العصر الوسيط ، كما بدأ بها أيضا بذور الفكر الحديث : ولذلك يعتبر دانتى بداية لحركة النهضة الدلمية التى كانت بشيرا بنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحـــديث . أنظر فشر : اوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٢٧ وما بعدها ; Burckhardt, The Civilization of the Renaissance, 49-50; Coulton, Med. Panorama, 207—222; Hay, The Itatian Renaissance, 56—7 , 74—7.

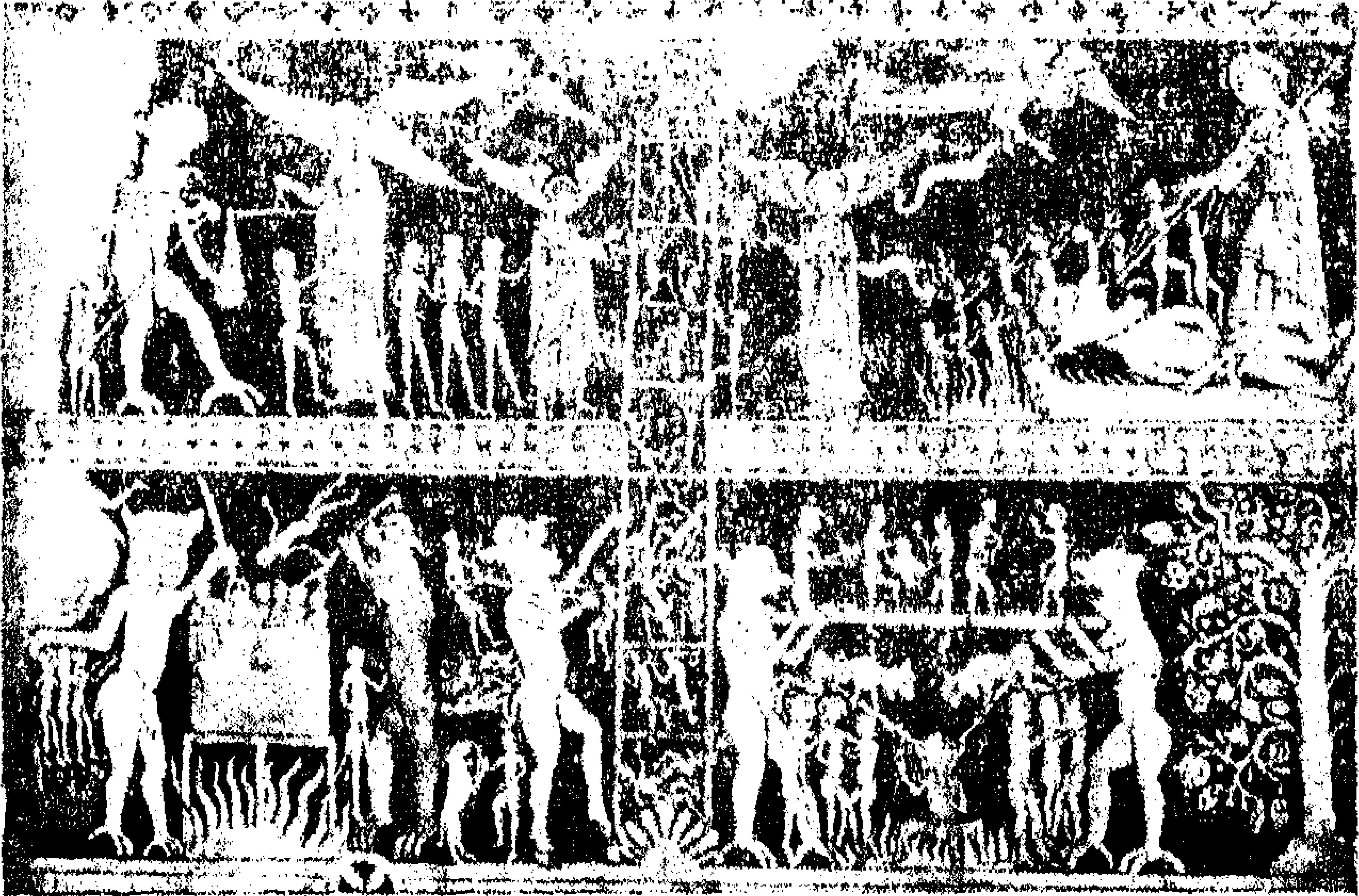
(١) يعتبر سير توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) من مشاهير الساسة والكتاب الانجليز : أنظر عنه كتاب : Coulton, op. cit , 664 sqq.

الأمل الطويل والافكار الواسعة ». ذلك أن أول واجب للانسان وآخره هو أن يعد نفسه للحياة الأبدية .

ولأى نوع من الأبدية ؟ نعاود القول بأننا لا يسعنا تقدير قيمة الفكر الوسيط، ما لم نتذكر الأسس التى كانت نقطة انطلاقه . أما الاختلافات بين الآراء الوسيطة وآراء ما بعد الاصلاح الدينى التى تناولها مرارا الكتاب المحدثون حول عصمة الكتاب المقدس من الخطأ ، فهى فى أغلب الأحيان إما كاذبة برمتها ، وإما مبالغ فيها للغاية . وفيما يتعلق بتفسير نصوص الكتاب المقدس فثمة فى الواقع هوة عميقة بين الرومان الكاثوليك وبين النظرية البروتستانتية . فالرومان الكاثوليك يفرضــون الحكم النهائى قاطبة للكنيسة الرسمية ؛ على حين أن النظرية البروتستانتية تطالب بحق كل امرىء فى أن يفسر النص وفقا لرأيه الخاص وبوحى من ضميره . ولكن نظراً لعصمة الكلمة المكتوبة من الخطـأ ، فانه يصعب تبيـان أى فارق حقيقى : وقــد بشر القــديس توما الأكوينى (١)

(١) ولد القديس توما الأكوينى سنة ١٢٢٥ وتوفى فى ١٢٧٤ عن ٥٠ سنة : وهو ابن الكونت دى أكوينو بجنوب ايطاليا . التحق فى سلك الرهبان الدومينيكان وهو لم يتجاوز العشرين من عمره وتتلمذ على البرت الكارنى العظيم (١١٣٩-١٢٨٠)، وتنقل بين مدن ايطاليا وفرنسا إلى أن أصبح استاذا فى جامعة باريس وهو فى الحادية والثلاثين : ومن مؤلفاته كتاب «شرح الاحكام» ورسالة « فى الوجود والماهية » يبدو فيهما اعتماده الكبير على ابن سينا وابن رشد . وكذلك « شرح الأسماء الالهية لديونيسيوس » و« المجموعة الفلسفية » و « الشروح على أرسطو» ورسالة « فى وحدة العقل ردا على الرشديين» وأخرى «فى أزلية العالم ردا على المتذمرين » وكتابه الضخم المعروف باسم « المجموعة اللاهــوتية » الذى لخص فيه مؤلفاته السابقة . أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية ، ص ١٤٤ - ١٧٧ ؛ فشر : اوربا فى العصــور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ و ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ Coulton, Med. Panorama, 332 sqq; Downs, Basic Doc. in Med Hist., 116.

لوحة رقم ١



سلم الخلاص

صورة حائط بكنيسة شالدون فى سيرى

(تاريخها حوالى سنة ١٢٠٠م)

St. Thomas Aquinas الذى نهج نهج القديس اوغسطين St. Augustine ، بأن مؤلف الكتاب المقدس هو الله الذى له القدرة على تفسير معانيه لا بالكلام فحسب كما يستطيع الإنسان أن يفعل ، بل بالأفعال أيضا : ويترتب على ذلك ، نتيجة أولى ، أن الكتب المقدسة لا يمكن البتة أن تتضمن أى كذب فى معانيها الحرفية . لذلك ، كان لزاما على جميع المسيحيين أن يؤمنوا بكل ما جاء فى الكتاب المقدس باعتباره كلام الله ؛ لأن كل ما يتعلق بشئون الايمان والأخلاق لا يعتبر حقائق أقرها الله فحسب ، ولكن محتويات هذا الكتاب التاريخية تعتبر هى أيضا كذلك . ومن ثم إذا حدث مثلا أن قال شخص ما إن صموئيل لم يكن ابن كمان لترتب على ذلك أن تكون الكتب المقدسة كاذبة ، وهو ما يتعارض مع الايمان ولو عن طريق غير مباشر . ومن هنا يقع صاحب هذا القول فى الهرطقة . وليس الكتاب المقدس بأقل وضوحا فى غير ذلك من النقاط المماثلة . وبوسعنا فى الواقع أن نرمز إلى شجرة الحياة كما وصفت فى سفر التكوين . ويمكن الاقتباس من الاصحاح الثالث (١) لبيان أنها إنما تعني « الحكمة » ؛ ولكن ذلك لا يجب أن يؤثر بحال فى قبولنا للأوصاف من حيث حرفيتها فى أدق معناها . « وإنه ليتعين علينا أن نتخذ حقيقة الخبر أساسا لنا ، وأن نبني على هذا الأساس تفاسيرنا الروحية » . وبناء على ذلك لا يتسنى لنا انكار الواقعة النباتية لهذه الشجرة ، أو الحقيقة الجغرافية الخاصة بوجودها فى الفردوس الأرضى (٢) وهناك فى الواقع ثلاث

---

(١) انظر العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الاصحاح الثالث : الآية ٨ .

(٢) Sum Theol , pars. I. quaestt XXXII and CII (كولتون) .
ويوضح المؤلف هنا كيف كان يسود الفكر الوسيط فى نطاق التعاليم التى أوحت بها المسيحية ، والتى كان الخروج عليها يعتبر هرطقة يتعرض صاحبها لأشد أنواع العقاب .

حالات فقط يمكن بمقتضاها إجراء أي استثناء يتفق كل الاتفاق مع كافة آيات الكتاب المقدس بمعناها الحرفي ، وهذه الحالات هي :

(١) ينبغي التجاوز عن ضعف لغة الإنسان ، وما يستتبع ذلك من عجزها عن التعبير عن أرقى الأفكار :

(٢) ينبغي التجاوز أيضا عن ضعف فهم المستمعين . ولهذا السبب اضطر موسى إلى الهبوط الى بني اسرائيل ليعبر لهم ببساطة ، ومن ثم لم يستخدم في تعبيره ألفاظا دقيقة محكمة .

(٣) ويحتمل كذلك أن يكون عبور موسى وشعبه البحرالأحمر(١) رمزيا بحتا . بيد أننا نرى من المثالين اللذين ضربهما موسى بنفسه ، ومما كان يجرى بصفة عامة فى كنيسة القرون الوسطى وفى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ،إلى أي حد كان ضئيلا أثر الاتجاه نحو الرمزية على تمسك الناس بالمعنى الحرفي للأحداث .

ولما كتب البابا انوسنت الثالث(٢) يطالب الكنيسة اليونانية بالطاعة لكنيسة روما ، بنى مطالبته أساسا ، من بين أسباب أخرى ، على مثلين رمزيين فجين . أولها عندما القى القديس بطرس بنفسه فى البحر بدون ابطـــاء ليلحق

---

(١) العهد القديم - خروج - الاصحاح ١٤ . وفيما يتعلق بالخروج أنظر الدراسة التي عقدها الدكتور نجيب ميخائيل فى كتابه « مصر والشرق الأدنى القديم » - ج٣ -سورية ، ص ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢) يعتبر البابا انوسنت الثالث من أقوى شخصيات القـــرون الوسطى، احتل الكرسي البابوى فى الفترة الواقعة بين عامي ١١٩٨ و ١٢١٦ ، ويعتبره كثير من المؤرخين خليفة هيلد براند الحقيقي . درس بجامعات روما وباريس=

بالمسيح عند صعوده (١) . وثانيهما عندما سار بطرس لحظة ، فى مناسبة سابقة ، مع المسيح فوق الماء (٢) . فتنبأ البابا على هذا الأساس بالسيادة على الجنس البشرى قاطبة ، ما دام الشرح القديم للمزامير يفسر «مياها كثيرة» (٣) بما معناه «العالم أجمع» (٤) ولكن انوسنت حينما استعمل الرمز على هذه الصورة ، لم يخامره أدنى شك من حيث الوصف الحرفى لتصرف

= وبولونيا ، وتفوق على الكثيرين من جهابذة العلم من معاصريه فى الفلسفة واللاهوت وفى القانون أيضا . كان طموحا واسع الآمال ، متمسكا أشد التمسك بحقوق البابوية . وكان البابا فى نظره هو خليفة الله على الأرض ، وخليفة القديس بطرس رأس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . ولذلك تميز عهده بتجدد الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية ممثلة فى شخص هنرى السادس ملك صقلية وابن فردريك باربازوسا : ولقد بلغت البابوية فى عهد انوسنت الثالث أقصى قوتها وأوج مجدها بعد انتصاراتها على القوى العلمانية فى الغرب. ومع ذلك فان هذه الانتصارات كانت تحمل فى طياتها بذور تدهور البابوية وفقدان مكانتها بعد أن خرجت عن رسالتها الروحية وانغمست فى الأمور الدنيوية . فبدأ الناس يتشككون فى قدسيتها وينصرفون عنها ، مما هيأ الجو لظهور عصر جديد : أنظر : Baldwin, Med. Church, 48—58,85—9. وكذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف - ص ٤٧ - ٤٨ .

(١) أنظر العهد الجديد — انجيل يوحنا — الاصحاح ٢١ : ٧ .

(٢) أنظر : العهد الجديد — انجيل متى — الاصحاح ١٤ . وفيما يتعلق بنظرية السيادة البطرسية ، أنظر: Cantor; The Medieval World, 93 sqq.

(٣) أنظر : العهد القديم — مزامير ٩٣ : ٤ .

(٤) لقد أوردت الاقتباسات كاملة فى الفصل الرابع عشر من كتابى : (كولتون) Medieval Studies, 3rd ed. p.9 :

بطرس فى أى من الحالين . . عندما أدين جاليليو Galileo بعد ذلك بقرون عدة ، كانت إحدى التهم الموجهة ضده أن نظريته (١) تتعارض مع النص الواضح فى المزامير : « أيضا تثبتت المسكونة لا تتزعزع »(٢)
" firmavit orbem terrae, qui non commovebitur "

وهكذا أدركت كنيسة العصور الوسطى أنها ملزمة بقبول نصوص الكتاب المقدس فى أدق معانيها حول الجنة والجحيم وقد ساهمت ظروف كثيرة فى تلك الأزمنة المضطربة فى إضفاء لون معتم على تلك الصورة التى كانت قائمة أصلا . وكان القديس توما يتأذى للغاية من أننا قد يساورنا الشك فى الحقيقة المادية الملموسة عن وجود نار الجحيم : وقد أفاض توما حقا فى وصف العذاب ، وفى تأكيد وجود هذه النار بما يفوق ما ذهب اليه كالفن (٣) Calvin الذى كان يؤمن أحيانا عن جهل إيمانا يمت فى الغالب ، بما يتميز به من صرامة ، إلى أسلافه فى العصور الوسطى . وواقع الأمر أن شيئا من المبالغة فى بعض آيات الانجيل ، وفى التقاليد الموروثة عن اليهودية أو المأخوذة عن ديانات أخرى ، وكذلك تحت وطأة شيء من قسوة الاضطهاد وسوء الحالة النفسية - بادرت المسيحية إلى ابتداع مذهب غريب فى النبوات

---

(١) نظرية جاليليو هى إحدى النظريات الفلكية التى أثبتت أن الأرض ما هى إلا أحد الأجرام السماوية وفيما يتعلق بجاليليو ونظريته أنظر :
Crombie, Augustine to Galileo, 4, 6, 18, 59, 60, 116, 119.

(٢) العهد القديم — مزامير ٩٣ : ١ (كولتون).

(٣) حنا كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) هو قائد حركة الاصلاح الدينى البروتستانتى فى فرنسا .

المتعلقة بنهاية العالم (١) . وقد دونت مرارا تنبؤات ترتوليان المخيفة عن عذاب الجحيم الذي سوف يلقاه مرتكبو الاضطهاد . هـذا وجحيم دانتي معروف أيضا لكثير من القراء . ولكن تعبير دانتي عن المفارقات بين الجنة والجحيم أقل خشونة من تعبيرات الواعظ العادي في زمانه أو في زمان لاحق له . وكان القديس فرنسيس الأسيسي (٢) St. Francis of Assisi يعظ عن الجحيم بمثل الدقة التي وصفه بها الجنرال بوث Booth . وقد تعرض

(١) تحتفظ مكتبة دير سانت كاترين في سيناء بعدد من المخطوطات العربية القيمة عن النبوات ، هي مخطوط رقم ١١ وتاريخه ١١٠٦ ، ومخطوط رقم ١٢ وتاريخه القرن ١٤ ، ومخطوط رقم ١٤ وتاريخه القرن ١٧ ، ومخطوط رقم ١٥ وتاريخه القرن ١٤ ، ومخطوط رقم ١٦ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ١٧ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ١٨ وتاريخه ١٣٥٠ ، ومخطوط رقم ٥٨٨ وتاريخه أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر ، ومخطوط رقم ٥٩٤ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ٥٩٥ وتاريخه ١٢٩٠ ، ومخطوط رقم ٥٩٦ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ٦٠٢ وتاريخه القرن ١٧ ، ومخطوط رقم ٦٨٩ وتاريخه القرن ١٨ ، أنظر أيضا الفصل الثامن من هـذا الكتاب . أنظر كذلك مقالي J. N. Youssef, « Prophetologion - An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai, no. 588 - A Survey and Critical Study, » Cahiers d'Alexandrie, série 4, no. 4, 1966, 1-10.

(٢) ولد القديس فرنسيس الأسيسي سنة ١١٨١ أو ١١٨٢ وتوفي سنة ١٢٢٦ . وهو من الشخصيات البارزة التي أسهمت في تطور حركة الفكر وتحرر الروح والنفس البشرية في المرحلة الوسيطة من التاريخ الوسيط . وكانت دعوته تتميز بوجود عنصر التفاؤل فيها ، بعكس من سبقوه . وقد تركت حياته وعقليته والعصر الذي عاش فيه آثارها في الأفكار والآراء التي نادى بها . ومن أهم ما نادى به التمتع بالحياة ، وتمجيد الطبيعة في شتى =

هـذا الموضـوع برتولد اوف ريجنسبورج Berthold of Regensburg الفرنسيسكانى الذى امتدحه روجر بيكون بوصفه أعظم واعظ من بين رجال البعثات التبشيرية فى ذلك الزمان. وفيما يلى خلاصة موجزة لرأيه، مشفوعة بالاشارة إلى الجزء والصفحة فى طبعة بفيفر Pfeiffer النموذجية.

وإن الخاطىء ليعانى الموت مرارا بعدد ما يتراقص فى الشمس من ذرات التراب (ج ٢ ص ٢). فاذا كان جسمك كله من حديد ساخن حتى الاحمرار، وكانت الدنيا بأسرها من الأرض الى السماء شعلة متأججة من النار، وكنت أنت فى وسطها، فاعلم أن هكذا يكون الانسان فى الجحيم، مع فارق واحد هو أن عذابه يكون أسوأ مما وصفنا مائة مرة (ج ١ ص ١٢٧). وعندما تتحد النفس والجسد مرة أخرى فى اليوم الآخر، ويتعين عليهما أن يذهبا معا الى الجحيم، فإن من حلت عليه اللعنة سيشعر بسعيرها، وهو أسوأ مرارا مما يشعر به من يقفز من حيث الندى الرطيب إلى جبل من نار (ج ٢ ص ٤٠). وتدوم ألوان العذاب آلافا من السنين بقدر ما فى البحر من قطرات الماء، أو بقدر

= صورها وعناصرها. كما حاول ايجاد نوع من التوافق بين الله والطبيعة والإنسان. لقد كان انسانا بمعنى الكلمة؛ ويتضح هذا فى نظرته للبشر جميعا على أنهم متساوون فى كل شيء. والقديس فرنسيس، فوق هذا وذاك، هو مؤسس جماعة الاخوان الفرنسيسكان. ولم يكن غرض أعضاء هذه الجماعـة البقاء فى أديرتهم لاداء فروض العبادة والصـلاة فحسب، وإنما السعى فى الأرض للوعظ والتبشير وتعـليم الناس، مع الفقر والاكتفاء بالكفاف من العيش. انظر فشر: اوربا فى العصور الوسطى، ج ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٧؛
Heer, Med. World, 79-89 ; Shorter Cambridge Med. Hist., II, 669-71; Downs, Basic Doc., 139-144.

هذا الشعر الذي نما في جسم الانسان والحيوان منـــذ خلق الله آدم في بدء الخليقة : وبعد كل هذه السنين ، لا تكون الآلام الا في بدايتها (ج١ص٧٢).

وقد ذهبت أغلبية الجنس البشرى إلى هذا الجحيم ، وكان ذلك أمرا مسلما به : كما سلم به القديس توما الأكوينى ، الذى اشتهر من بين جميـــع فلاسفة القرون الوسطى باتزان حكمه بوجه خاص : وقد قدر الكتاب الآخرون عدد من ظفروا بخلاص نفوسهم بواحد في الألف أو في العشرة آلاف أو أكثر من ذلك . أما الأطفال غير المعمدين ، والوثنيون ، ولو أنهم أطهار أبرياء ، فلا بد مع ذلك من ذهابهم الى الجحيم . وبالنسبة للباقين - وان كان دانتى قد تخلى عن اوغسطين واتبع توما الأكوينى في نبذه فكرة العذاب الجثمانى - فان الهواء مثقل بما يصدر عنهم من آهات وأنات . هذا ، وقـــد استقر الفكر المسيحى الوسيط على افتراض أن آخر لحظة في حياة الانسان هي التي تحدد مصيره إما الى حياة أبدية ناعمة تفوق كل وصف ، أو الى عذاب مقيم يجاوز كل تصور . ولما كان هذا المصير يتقرر تبعا لظروف المتوفى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فان العامل الحاسم في هذه الحالة إنما يكون إيمانه بالله : وسيزداد وضوحا فيما بعد المعنى الضخم المستفاد من هذه النتائج الأساسية .

ونعود مرة أخرى الى العصـــور المظلمة لنقول إنه يجب الا نهمل أثر الديانات الوثنية ، كديانات التيوتون والكلت والسلاف ، التى انتصرت عليها الكنيسة ، ولكن مع شيء من التساهل . لقد لاحظت الكنيسة أن قتل الأطفال كان مسلما به قانونا في بعض الحالات بين الفريزيين(١) في القـــرن الثامن ،

(١) ينسب الفريزيون الى فريزيا ، الواقعة غربى اوستفـــاليا ، بين نهرى إمز والراين . وهى حاليا عبارة عن المنطقة الواقعة شمال المانيا .

وسكان ايسلندا فى القرن الحادي عشر . وحتى فى هذه الحالة الأخيرة تساهلت الكنيسة لفترة ما ، إذ علمت الوثنيين فى جزيرة ريجن(١) Rügen العبادة على طريقة القديس فيتوس (٢) St. Vitus . وقد غدا تمثال القديس المذكور بعد ذلك بأجيال قلائل ، أى فى منتصف القرن الثانى عشر ، صنما معبودا أطلق عليه المواطنون اسم « سوانتوفيت » Suántovit . وكانوا يقدمون له من حين لآخر ضحايا بشرية ، ولكنها كانت من بين المسيحيين فحسب . ولقد أوصى جريجورى الكبير(٣) مشددا فى نصيحته للمبشرين الذين أوفدهم الى الوثنيين الانجليز لردهم عن الوثنية ، بضرورة التساهل

---

(١) جزيرة ريجن هى إحدى الجزر الألمانية فى بحر البلطيق .

(٢) القديس فيتوس هو الذى أدخل المسيحية فى جزيرة ريجن . وبعد موته بفترة قصيرة عاد سكان الجزيرة إلى وثنيتهم ، وأخذوا يعبدون صنما كبيرا أطلقوا عليه اسم سوانتوفيت ، وكانوا يفضلون تقديم القرابين والضحايا له من بين المسيحيين . وإن دل هذا على شيء فانما يدل على أن اولئك البرابرة الذين غزوا روما وأخذوا من نظمها وحضارتها بنصيب ، لم يلبثوا أن عادوا إلى بربريتهم القديمة . أنظر : Coulton, Med. Panorama, 42 .

(٣) البابا جريجورى الكبير من أسرة رومانية عريقة ، اعتزل الحياة الدنيا وانخرط فى سلك الرهبنة . وشغل كرسى البابوية فى الفترة من ٥٩٠ الى ٦٠٤ . واستعمل ميراثه الذى آل اليه من أبويه فى بناء الأديرة والصرف على الفقراء وشراء العبيد من أسرى الحرب المسيحيين لتحريرهم . كان عالما يتمتع بمقدرة سياسية وإدارية هائلة وهو من كبار رجال الإصلاح الكنسى ، كما عرف بنشاطه الكبير فى ميدان التبشير . فقد نجح فى تحويل القوط الغربيين من المذهب الأريوسي الى المسيحية على مذهب روما الكاثوليكى . وارسل بعثته المعروفة برئاسة القديس اوجسطين إلى انجلترا سنة ٥٩٧ لنشر

فى غير النقاط الجوهرية . إذ سمح بتدشين (١) المعابد القديمة بما يتفق مع طقوس الكنيسة الجديدة ، والإبقاء على حفلات الوثنيين كما هى ، على أن يوجهونهم فى ذات الوقت من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق . وكان هذا التساهل بدون شك أمرا حكيما وضروريا وقتذاك ، فضلا عن أنه آتى ثماره المحتومة . وهكذا نجد أنه باندماج المسيحية فى العادات الوثنية ، توارث كثير من هذه الأفكار تحت جناحى كنيسة العصور الوسطى .

= الكاثوليكية بها واعادة بسط نفوذ بابوية روما عليها . كل هـذا أكسب أسقفية روما مكانة كبيرة ، وأصبح الغـــرب يعترف بسلطان أسقف روما الدينى والسياسى ، فى وقت كانت فيه أوروبا مرتعا للفوضى من جراء غزوات البرابرة . وفضلا عن ذلك فقد كان جريجورى متعمقا فى العلوم والبحوث الفلسفية واللاهوتية ، كما قام بدراسة كتب آباء الكنيسة الأول وأسهم هو نفسه بنصيب وافر فى التأليف وفى تسجيل الألحان الكنسية . انظر عن ذلك :

Sullivan, Heirs of the Roman Empire, 1—8,48—9; Baldwin, Med. Church, 27; LaMonte, The World of the Middle Ages, 31,72,75, 79; Painter, A Hist. of the Middle Ages. 84—85.

(١) المقصود بالتدشين هنا الرش بالماء المقدس مع إقامة الصلوات المناسبة .

بعض المراجع للفصل الاول

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Bark, W., Origins of the Medieval World. 1958.

Bigg, C., The Church's Task in the Roman Empire. Oxford, 1905.

Carter, J. B., The Religious Life of Ancient Rome. Boston, 1911.

Cutts, E. L., Saint Jerome. London, 1897.

Dill, S., Roman Society in the Last Century of the Western Empire. London, 1910.

Dufourcq, A., L'avenir du christianisme. 8 vols. Paris, 1908 ff.

Ferrero, G, The Ruin of Ancient Civilization and the Triumph of Christianity. Trans by Hon. Lady Whitehead. New York, 1921.

Fliche, A. C.,

1 — The Rise of the Mediaeval Church. New York, 1909.

2 — La chrétienté médiévale. Paris, 1929.

Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J. B. Bury. 7 vols. London, 1896—1900.

Grindle, G. E. A., The Destruction of Paganism in the Roman Empire. Oxford, 1892.

Hardwick, C., A History of the Christian Church. Middle Age. London, 1861.

Huttmann, M. A., The Establishment of Christianity and the Proscription of Paganism. New York, 1914.

Jackson, F. J., An Introduction to the History of Christianity, A. D. 590-1314 New York, 1921.

Jones, A H. M., Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Lagarde, A, The Latin Church in the Middle Ages. Trans. by A Alexander. New York, 1915.

Laistner, M. L. W., Intellectual Heritage of the Early Middle Ages. Ed. by Starr. London, 1957.

Langen, J., Geschichte der römischen Kirche. 4 vols. Bonn, 1881-93.

Laurent, F., Les barbares et le catholicisme. Brussels, 1864.

Lewis, A H, Paganism Surviving in Christianity. New York, 1892.

Maclear, G. F.,

1 — A History of Christian Missions During the Middle Ages. Cambridge, 1863.

2 — Apostles of Mediaeval Europe. London, 1869.

Milman, H. H., History of Latin Christianity. 9 vols. London, 1883 ff.

Pope, R. M., Early Church History. The Relations of Christianity and Paganism in the Roman Empire. London, 1918.

Renán, E., Lectures on the Influence of the Institutions, Thought and Culture of Rome on Christianity and on the Development of the Catholic Church. Trans. by C. Beard. London, 1880.

Robertson, J. C., History of the Christian Church to the Reformation. 8 vols. London, 1874-75.

Ropes, C. J., The Conflict of Christianity with Heathenism. New York, 1908.

Schubert, H. v., Geschichte der christlichen Kirche im Frühmittelalter. Tübingen, 1921.

Smith, T., Mediaeval Missions. Edinburgh, 1880.

Stahlin, O., Christentum und Antike. Wurzburg, 1921.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Taylor, H. O., The Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1957.

Zeiller, J., L'empire romain et l'èglise. Paris, 1928.

الفصل الثانى

القرية فى العصور الوسطى

يلاحظ القارىء أن معظم الأمثلة الواردة فى ثنايا هذا الكتاب الصغير مستمدة من تاريخ انجلترا الاجتماعى ؛ وفى حالة عدم الإشارة إلى العكس ، فللقارىء أن يتخذها على أنها أمثلة نموذجية للمجتمع الأوروبى بصفة عامة ؛

كان التيوتون ، كالمغول ، فى الكثير من أحوالهم ديمقراطيين متعصبين لديموقراطيتهم ؛ إذ كان يحضر اجتماع مجلس القرية بعض ذوى المكانة الذين يتمتعون بنفوذ كبير ؛ ولكن النظرية مؤداها فى أدق معناها أن كل من شبوا محاربين كانوا يعتبرون ، فى حقيقة الامر ، متساوين متكافئين ويحتمل أن عددا كبيرا منهم كان يتكلم فى وقت واحد ؛ ولكن من المؤكد أن الموافقة على القرارات أو رفضها كان يجرى إعلانها بصوت مرتفع . وغالبا ما كان يتم ذلك فى مغمغة من صليل السيوف والحراب والدروع ، لذلك كان الجانب الذى يشعر بأنه الأضعف ، يعمد الى الانسحاب تدريجيا ؛ وتتلخص فحوى نظرية القانون التيوتونى فى اعتبار القرار صادراً بإجماع الآراء . ولا زالت هذه النظرية قائمة فى هيئة المحلفين عندنا (١) ، وما ذكرناه عن اجتماع مجلس القرية يمكن ذكره أيضا عن تلك الاجتماعات التى كانت بطبيعة الحال أكثر أهمية وندرة ، وكان يحضرها جميع أفراد القبيلة ، أو سكان الولاية كما نسميها الآن .

---

(١) يقصد المؤلف انجلترا ؛

لقد انطوت هذه المساواة النظرية بين جميع الرجال الأحرار ، بطبيعة الحال ، على شيء أشبه ما يكون بتقسيم أراضي القرية الى قطع متساوية . وفي معظم الأحوال كان يعاد في الواقع توزيع الأرض من عام الى آخر . وكان ذلك الأمر ميسورا جدا قبل أن تصل تلك القبائل الى حضارة زراعية مستقرة ، وظل كذلك حتى بعد تلك المرحلة ، ووجد الغزو النورماندي أن انجلترا لم تكن قد جاوزت بعد هذه المرحلة . فكان ثمة بقايا لا مراء فيها لنظام التوزيع البدائي للأرض على أساس المساواة . وكان يخص الفلاح العادي قطعة أرض طيبة أو قطعة بور قاحلة ، بقدر ما يسمح لرجل وأسرته أن يحرثوا الأرض على وجه ملائم ، مع الاستعانة بثورين . وكان ذلك يختلف طبعا باختلاف طبيعة الأرض نفسها . ويبلغ متوسط مساحة الأرض نحو ثلاثين فدانا . بيد أننا نلاحظ أحيانا أن مساحتها كانت تزيد أو تنقص كثيرا عن ذلك . ولقد عرفنا الكثير عن الفلاح من كتاب الروك النورماني (١) Domesday Book ، وهو عبارة عن سجل للأرض

---

(١) تم انجاز هذا الكتاب الخاص بمسح الأرض سنة ١٠٨٦ . وهو يستهدف تنظيم ضريبة الدانيين Danegeld . وتفصيل ذلك أن مملكة وسكس الانجلوسكسونية لجأت في أخريات القرن العاشر الى شراء أولئك الدانيين بالمال بعد أن تجددت إغاراتهم على انجلترا ، حتى تتقي شرهم : واضطرت الى فرض ضريبة باهظة على المزارعين وغيرهم من السكان عرفت باسم مال الدانيين وبلغ من فداحتها أن أثقلت كواهلهم ، وغدا الناس في حالة أقرب إلى القنية والعبودية منهم إلى المزارعين الأحرار . وعلى هذا يمكن القول بأن الحياة الاقتصادية قد تأثرت في الجزيرة تأثرا شديدا بضريبة المال الداني التي أسهمت بدورها في التطور الاقطاعي والعبودية الزراعية في البلاد . =

الزراعية وضع لأغراض الضرائب بناء على أمر وليم الفاتح . ولا يزال هذا الكتاب باقيا باعتباره أقيم سجل من نوعه وقدمه فى العالم أجمع . ويوضح لنا الى أى حد كانت نسبة المواطنين الذين كانوا عبيدا بالفعل . كما يوضح كم كان عدد أفراد طبقة أنصاف العبيد ، أى رقيق الأرض . وقد زادت هذه الطبقة المتوسطة بنسبة ما حدث من نقصان فى طبقة العبيد من جهة ، وفى الرجال الأحرار من جهة أخرى . وانا لنحسب بسرور أن العبيد قد تناقص معظمهم بمرور الزمن . ذلك أن القنية لم تكن مجردة من المحبة وروح الخير فحسب ، بل كانت كقاعدة عامة منافية لروح الاقتصاد أيضا . ويكشف كتاب الروك النورمانى عن طائفة من العبيد هبط عددهم فى إقطاعية واحدة ، من اثنين وثمانين إلى خمسة وعشرين فى السنوات العشرين الأخيرة . أما فى انجلترا فقد تلاشت العبودية الحقيقية قبل القرن الثالث عشر ؛ بينما ظلت مزدهرة طيلة العصور الوسطى فى اسبانيا وجنوب فرنسا وايطاليا . وكانت العبودية فى الدويلات البابوية أقرب إلى الزيادة منها إلى الزوال بنهاية هذه الحقبة من التاريخ . لقد شرع أكثر من بابا فى اخريات العصور الوسطى ، العبودية كعقوبة لأعدائهم فى ميدان السياسة . وأما تجارة الرقيق فترجع نشأتها

= ويدل كتاب الروك النورمانى الذى وضع أساسا لتنظيم تلك الضريبة على مبلغ الدقة التى بذلها عمال المالية النورمانية فى الكشف عن كل مصدر من مصادر المال فى طول البلاد وعرضها . ولهذا يعتبر الكتاب المذكور سجل فريد فى نوعه وقيمته وقدمه عن الحياة فى القرية الاقطاعية فى انجلترا فى العصور الوسطى أنظر فشر : أوربا فى العصور الوسطى ، ح ١ ، ص ١٢٢ ، ١٦٣ ؛ وكذلك . Coulton. M·d Panorama, 72 sq., 367; idem, Méd. Village, 10, 111.

القالونية إلى مرسومين باباوين (١) . بيد أن اقتناء العبيد فى انجلترا ، قد دل إلى حد ما على افتقاد الرجل الحر لحريته : فقد كان السادة اللوردات يريدون عملا رخيصا ، ومن ثم كانوا في معظم الأحوال يستغلون مراكزهم فى سبيل الحصول على هذا العمل بالقوة والإكراه أو بطرق ملتوية . واستخلص السيد وليم هدسن (٢) William Hudson ، الذى قام بصبر يدعو إلى الاعجاب بحفائر أثرية عظيمة الأهمية لم يكن يبغى من ورائها مصلحة شخصية ـ استخلص سلسلة قيمة من المعلومات المأخوذة من سجلات مقاطعة نور فولك (٣) Norfolk الانجليزية فى حقول نورفولك : ويلاحظ من كتاب الروك أن نسبة الأحرار هناك كانت كبيرة ، كما كان الحال فى كل المقاطعات التى تأثرت إلى حد كبير بالغزوات الدانية . فالفلاحون كانوا من سلالة الفاتحين الدانيين ، وكان ثمة ثمانية وسبعون من الأحرار فى مقابل سبعة من رقيق الأرض . ولكن أساقفة نوريتش Norwich النورمان ، والذين ذهب إليهم صاحب الأرض ، قد أنزلوا خمسة وستين من الثمانية والسبعين من الأحرار إلى مرتبة العبيد . وكان فى مقاطعة كامبريدج أيضا تسعمائة من الأحرار عند الغزو ، وقد هبط عددهم بعد عشرين عاما من ذلك التاريخ إلى مائتين وثلاثة عشر حرا فقط .

---

(١) أنظر : Coulton, Med. Village, 171,495 sqq. (كولتون) ؛

(٢) وليم هدسن روائى انجليزى ولد فى أمريكا الجنوبية سنة ١٨٤١ وتوفى سنة ١٩٢٢ عن ٨٢ سنة ؛

(٣) نسبة إلى مدينة نورفولك الانجليزية الواقعة على الشاطىء الجنوبى الشرقى لبحر الشمال .

وقد سارت عملية تجريد الأحرار من ممتلكاتهم خلال الشطر الأول من الحقبة الوسيطة بخطوات أوسع مما سارت به القنية الحقيقية نحو الزوال . وفى منتصف الحقبة الوسيطة ـ أى فى عصر تشوسر (١) Chaucer مثلا ـ كان أقل من نصف مواطنى هذه الجزائر أحرارا .

---

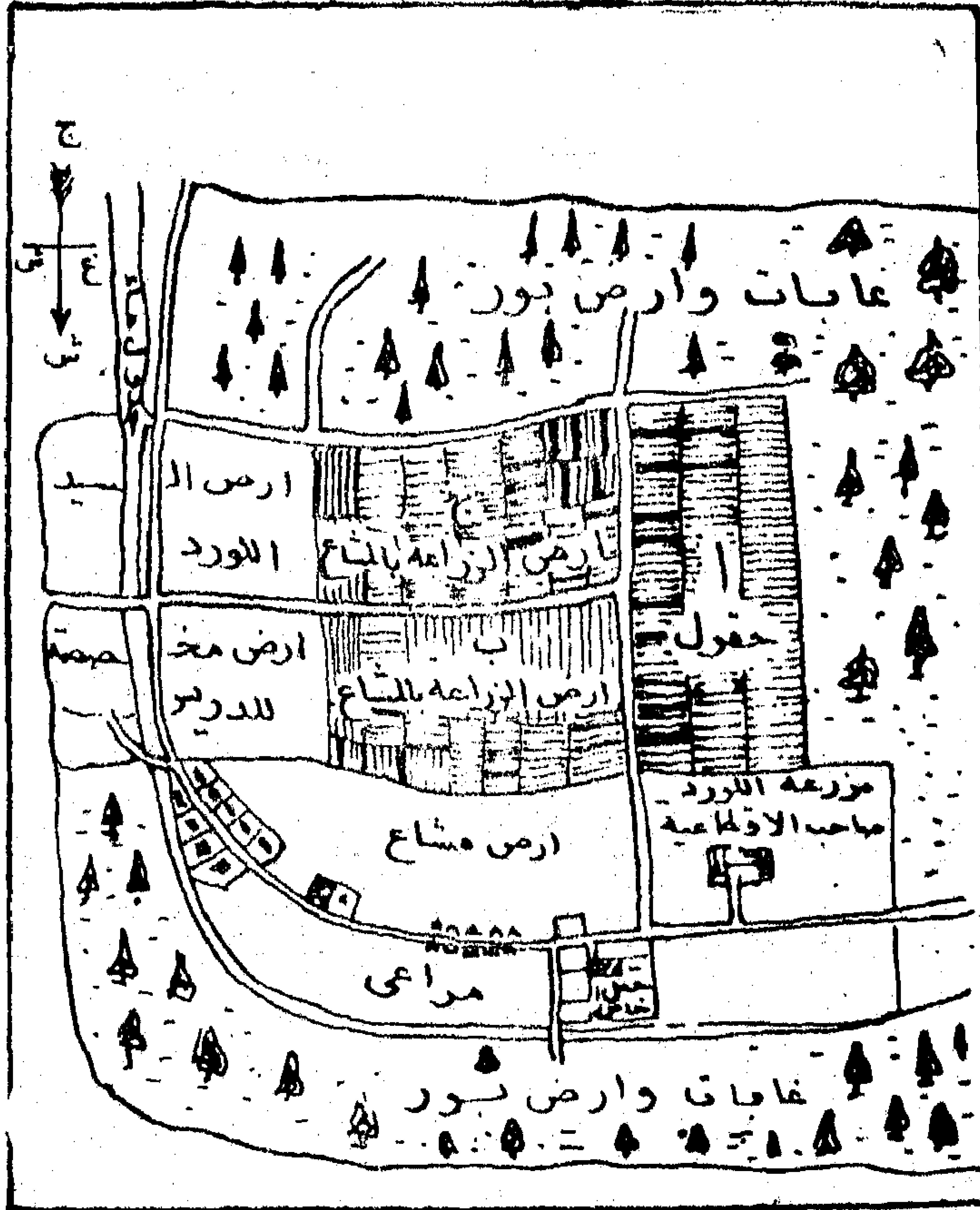
(١) عاصر جوفرى تشوسر النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، إذ ولد حوالى ١٣٤٠ وتوفى سنة ١٤٠٠ وقد أمد انجلترا بما كانت تفتقر إليه منذ أيام الانجلوسكسون ، ونعني بذلك الخلق والابداع الأدبى الذى يرقى إلى مستوى يفضل بكثير ما انتجه معاصروه فى القارة . ولم يصل إلى ما وصل إليه بمحاولة تجنب التأثير الخارجى ، وإنما بالغوص فى أعماق الأدب الفرنسي والأدب الإيطالى والإفادة منهما . كما احتك بنماذج عديدة من الناس ، وعرف حياة البلاط بزواجه من احدى وصيفات الملكة ، وترسل فى مهمات دبلوماسية خارج البلاد . وتقلب فى العديد من الوظائف ، مما أكسبه خبرة بالناس والحياة تركت أثرها فى أعماله التى خلفها لنا . وله مؤلفات عديدة نذكر منها « The Book of the Duchess » الذى وضعه سنة ١٣٧٠ ، و « The House of Fame » (حوالى سنة ١٣٨٠) و «The Parliament of Fowls » (حوالى ١٣٨٢) ، و « Troilus and Criseyde » . وكان آخر وأضخم أعماله هو قصص كانتربرى « Canterbury Tales » . وقد توفى قبل اتمامه ، وفيه يصف المجتمع الذى عاش فيه وعاصره فيما عدا طبقة الارستقراطية : لقد نال تشوسر شهرة واسعة بعد موته مباشرة ، ويكفي أن الشعراء الانجليز فى القرن الخامس عشر اعترفوا به بوصفه أستاذهم ، وكانوا يجاهدون فى تقليد منهاجه وطريقته . أنظر : Myers, England in the Late Middle Ages, 85-6 , 165 . مما سبق يتضح لنا أن شاعرنا كان على معرفة بكل مظاهر الحياة فى عصره . وبالرغم من أنه لم يدخل الجامعة، فقد كانت =

كانت القرية هى الوحدة الأساسية والدينية ، بينما قامت الوحدة الزراعية على الاقطاعية وغالبا ما كانت القرية وإقطاعيات السيد الاقطاعى متلازمين . ولكن كثيرا ما يحدث أن تضم قرية واحـــدة اقطاعيتين أو أكثر . وإذا بحثت عن قريتك فى تاريخ المقاطعة ، أو سألت أحد رجال الآثار المحليين ، فاربما وقعت على أسماء مختلف الاقطاعيات ، وهى تحمل عادة أسماء بعض الملاك السابقين على غرار الأسماء التى لا تزال تطلق حتى وقتنا هذا على كثير من المزارع والحقول .

وكان للسيد اللورد مزرعته الخاصة التى يعيش من ريعها ، وهو قابع فى قصره . ويحتمل أن هذه المزرعة كانت فى العهود المبكرة تحرث برمتها بطـريق « السخرة » . بيد أن نظام العمل مقابل أجر نقدى كان قد أدخل أيضا بصورة تدريجية . ونقول « السخـــرة » لأن القن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وعرق جبينه . وقد عدد لنا أحـــد كتاب

دائرة اطلاعه تدعو إلى الدهشة . كان متبحرا فى فهم فرجيـــل واوفيد وستاتيوس وكلوديان وغـــيرهم من الكتاب القدامى : كما اطلـــع على مؤلفات جيروم وبيوثيوس . وكان على معرفة بكتابات معاصريه الفرنسيين وعلى رأسهم فرواسار ووليم دى ماشو . وأضاف إلى دائرة معلوماته بعـــد زيارته الأولى لايطاليـــا انتاج دانتى وبترارك وبوكاشيو : وهـــو يشارك شكسبير فى مجده ، ويعتبر أحد المؤسسين للأدب الشعـــرى فى انجلترا . انظر : لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٣ ، ص ٧٢٨ - ٧٢٩ ؛ وكذلك McKisack, Fourteenth Century, 529—32; Huizinga, Waning of the Middle Ages, 326.

رسم رقم ١



رسم تخطيطى يوضح كيفية تنسيق الأرض
فى إحدى إقطاعيات القرن الثانى عشر
التى يبلغ تعداد سكانها حوالى ١٥٠ نسمة

العصور الوسطى مختلف الأسباب التى آلت بالرجال الأحرار إلى الرق . ويستهل حديثه بذكر هذه الأسباب وهى :

أولا – من الجائز أن يكونوا قد طلبوا للخدمة فى الحرب فرفضوا ، وعوقبوا بانزالهم إلى مرتبة الذمية .

ثانيا – ربما يكونون قد وهبوا أنفسهم للكنيسة .

ثالثا – ببيع أنفسهم كما يحدث اذا افتقر رجل فذهب إلى أحد السادة اللوردات وقال له : « اعطنى مقدار كذا فأصبح رجلك وأكون رهينة لك » .

رابعا – للدفاع عن أنفسهم ضد طاغية أو عدو محلى بتسليم أنفسهم إلى رجل أقوى .

ويجب علينا أن نتذكر دائما جانبي حياة رقيق الأرض . فاللورد كان بالنسبة له ، كما تعتبر الطبيعة بالنسبة لنا ، أى أنه صديق أو عدو له طبقا للزاوية التي تنظر منها ، ولكنه ضرورة على أية حال . ثم أن القن كان مرتبطا بالأرض ارتباطا وثيقا . على أنه فى انجلترا ، على أية حال ، لم تكن لديه وسيلة لتغيير سادته الا عن طريق اقتراف جريمة ما ، أو المخاطرة بالحرب ، أو عن الطريق الأكثر صعوبة ، ألا وهو تكديس المال وشراء حريته به ، هذا إذا ابتسم له الحظ فقبل السيد أن يبيعه حريته (١) . نقول إن القن كان مرتبطا بالأرض ، وكانت

(١) هذا عن وسائل الخلاص من القنية وعبودية الاقطاع . كما جاء فى مرسوم أصدره الامبراطور شارلمان فى القرن التاسع أنه يحق للتابع ترك سيده المتبوع لأحد الأسباب التالية : إذا عمل السيد على =

الأرض أيضا مرتبطة به ، ولم يكن فى استطاعة السيد تجريده منها الا فى حالة رفضه أداء واجباته القانونية ، أو لأى سبب وجيه آخر.

كانت هذه الواجبات القانونية ، فى الأصل ، هينة للغاية . فقد كان الفلاح يحصل على أرضه ، بشرط أن يعمل ثلاثة أيام فى الأسبوع لحساب سيده ، وثلاثة أخر لنفسه . أما يوم الأحد فكان العمل فيـــه محرما تحريما باتا . وكانت الكنيسة نظريا سبتية (١) ، شأنهـــا فى ذلك من حيث العمل ، بل ومن حيث اللهو أحيانا ، شـأن الكثيرين من أولئك الذين نطلق عليهم اســـم « الطهـريين » . وثمة أمثـــلة على كل من الحالين : فقـــد دون الأسقف أودو ريجالدى Odo Rigaldi الفرنسيسكانى من مـدينة

= انزال تابعه بالقوة إلى مرتبة القنية ، أو تآمر على حياته ، أو اقـترف جريمة الزنا مع زوجته ، أو هاجمه بسيفه قاصدا الحاق الأذى به ، أو تخاذل عمدا عن حمايته بينما كان بوسعه القيام بذلك وقد أكد المبدأ الأخير بعد ذلك بقرنين أحد اساقفة مدينة شارتر ويدعى فولبرت Fulbert فى خطـــاب بعث به الى دوق اقطانيا . أنظر عن ذلك Stephenson, op, cit., 20 — ومع ذلك يجب أن نتذكر أنه بالاضافة الى الوسائل العديدة التى اوردها كولتون فى كتابه للخلاص من القنية وعبودية الاقطاعي ، كانت الثورة هى الطـريق الأخير الذى لجأ اليه الفلاحـــون والاقنان للحصول على حريتهم . فقد كانوا دائمى الثورة على سادتهم الاقطاعيين . وزادت هذه الثورات حدة وعنفا فى اواخر العصور الوسطى ، فى وقت كان فيه النظام الاقطاعى فى المجتمع الغربى يلفظ آخر أنفاسه أمام التغييرات الهائلة التى طرأت على العالم الغربى وقتذاك .

(١) أى أنها تحفظ يوم السبت :

روان (١) Rouen ، فى يومياته لسنة ١٢٦٠ ، كيف وجد محاريث منهمكة فى العمل فى عيد القديس متى (٢) . فسحب الخيل إلى الاصطبل حيث حبسها حتى يدفع أصحابها الغرامة التي تراءى له أن يوقعهـا عليهم . وحدث بعد ذلك بأربع سنوات ، أن شاهد فى يوم من أيام الآحاد عربجيا يسوق عربة فغرمه عشرة سولات (٣) ، أى مايوازى أجـره عن ثلاثة أسابيع (٤) . وكثيرا ما استشهد علماء الأخلاق بعبارة للقديس اوغسطين، قاموا بتفسيرها بمعنى أنه حتى إذا عمل أى فرد فى أيام الآحاد أو الأعياد ، فان الوزر فى هذه الحالة يكون أقل درجة من الوزر الذى ينجم عن الرقص . كذلك عمد القساوسة الاتقياء ليس فقط إلى النهى عن هذا الضرب من اللهو بعدم تشجيعه، بل أيضا بتحريمه فعـلا فى بعض الأحيان . وقد أدان بعض الوعاظ هذا الضرب من اللهو بوصفه خطيئة مميتة . (٥) ومع ذلك فهنا كما فى أى مكان

---

(١) تقع مدينة روان على نهر السين شمال غربى باريس ، وهى عاصمـة مقاطعة نورمانديا .

(٢) يقع عيد القديس متي عند الغربيين في ٢١ سبتمبر من كل عام .

(٣) السول Solidus عمـله ذهبية رومانية سكت لأول مرة فى أيام الامبراطور قسطنطين الكبير حوالى سنة ٣١٢ م ، واستمـرت مستعملة حتى نهـاية الدولة البيزنطية . وقيمتها توازى ١٢ شلنـا وثمانيـة بنسات ونصف . ووزنهـا بالذهب ١/٧٢ من الرطل الانجليزى . أنظر عن ذلك :
Seyffert, A Dictionary of Classical Antiquities, 595.

(٤) Coulton, Medieval Village, 256 ; cf. pp. 530 sqq. (كولتون).

(٥) Ibid, pp. 559 sqq. (كولتون) .

آخر في العصور الوسطى ، كان ثمة هوة عميقة بين النظرية والعمل . ولدينا دليل قوى على أن الفلاحين كثيرا جدا ما عمدوا إلى إهدار المبـدأ السبتي Sabbatizare كما ورد فى الصيغة اللاهوتية فى كلا الحالين . وكثيرا ما شكا علماء الأخلاق من مقدار العمل الذى كان يتم عادة ، ومن الحركة الجارية فى الأسواق ، على الرغم من أيام الآحاد أو الأعياد المقدسة . ويدلون الينا ، فضلا عما تقدم ، بالعلاقة المباشرة بين أيام الآحاد والأعياد وبين كافةأنواع اللهو ، المشروع منها وغير المشروع . وعندما اقترحت حكومة هنرى الثامن فى سنة ١٥٢٦ إلغاء الأعياد غير العامة ، لم يكن ذلك إلا اعترافا متأخرا سبق أن أصر عليه إصرارا علماء اللاهوت منذ أمد بعيد ؛ وهو أن الشرائع التى تهدر فى أيام الآحاد وأعياد القديسين ، أكثر منها فى باقى أيام الاسبوع .

وكانت ثمة واجبات أخرى معينة ، وهى أصلا واجبات اختياريةالغرض منها إرضاء السيد . ثم غدت تقليدا مألوفا لم يلبث أن تحول أخيرا الى التزام قانوني ، شأنه فى ذلك شأن إكرامية العشرة فى المائة المفروضة قانونا فى فنادقنا حاليا . وبالتدريج أصبح مفهوما لدى كل من السيد والمسود أن الدفع النقدى كان أنسب مساومة بين الطرفين . بيد أن القنية كانت فى عصر تشوسر (١) ، هى الظاهرة الأكثر شيوعا . فكانت أرض السيد يزرع جانب منها بواسطة السخرة ، والباقى مقابل أجر يدفع نقدا من المال الذى كان بعض الأرقاء يردونه مقابل اعتاقهم . وكانت الزراعة بصفة عامة ، سواء فى أرض السيد أم فى باقى الاقطاعية ، تتم أحيانا طبقا لنظام الحقلين ، وفى أغلب الأحيان طبقا لنظام الحقول الثلاثة . وكانت الأرض الصالحة للزراعة ،

---

(١) أى فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

فى جملتها ، تقسم الى حقلين أو ثلاثة . وطبقا للنظام الأول ، كانت الدورة الزراعية الوحيدة عبارة عن مجرد الانتقال من دورة الحبوب الى ترك الأرض بورا لإراحتها من سنة الى أخرى على التعاقب . أما طبقا للنظام الثانى، فقد كانت الدورة ثلاثية . ففى السنة الأولى كان يبذر القمح ، ويليه الشعير فى السنة الثانية ، وفى الثالثة يترك الحقل بورا لإراحته(١) .

وكانت الزراعة فى العصور الوسطى الى حد ما على المشاع . أما عن الحدود الحقيقية فقد كانت مثار نزاع دائم بين الناس. ولا شك أن الأراضى المملوكة كانت فى أول الأمر عبارة عن قطعة واحدة غير مجزأة . ولكن بمرور الزمن ، ونتيجة لتقسيمها بين الأبناء ، وتحويلها الى الغير وما شابه ذلك ، انقسمت الأرض ثم تفتت . ففى مقاطعة مارثام Martham ،مثلا، وضع المستر هدسن خريطة تبين ما اجرى من التفتيت فى ملكية واحدة مساحتها ستة أفدنة خلال قرنين من الزمان بعد كتاب الرولك النورمانى(٢) . فقد قسمت هذه الأفدنة الستة على عشرة مستأجرين مختلفين ، كان واحد فقط من بينهم يحمل لقب مالك الاقطاعية . أما الأراضى الصالحة للزراعة فى إقطاعية مارثام ،فقد تفتتت الى ما يزيد عن الفى حصة مبعثرة . وربما كانت حصص فلاح واحد متباعدة الواحدة عن الأخرى بمسافات شاسعة . ومما لاشك فيه أن أولئك الناس كانوا يتكبدون مشقة كبيرة ، فضلا عما يضيعونه من وقت طويل فى ترحالهم من قطعة الى أخرى: ومع ذلك ، فلا بد أنه كانت

---

(١) انظر عن ذلك كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب اوربا – ص ٨ – ٩ .

(٢) أى بعد سنة ١٠٨٦ بقرنين من الزمان .

هناك حركة كبرى منظمة للأخذ والعطاء ، نظرا لوجود أرض متجاورة تم حرثها وبذرها وجمع حصادها جملة واحدة : وكان الحصاد يقسم بين أصحابه بنسبة ما يملكه كل منهم من الأفدنة . ويشبه ذلك الى حـــد كبير ما يفعله الجبليون الآن في سويسرا باللبن الذى يستدر من أبقارهم التى تساق فى قطيع واحد إلى مراعي الصيف العليا ؛ وكذلك الجبن الذى يعمل من ذلك اللبن . الا أن مثل هذه التنظيمات انما تفتح الباب على مصراعيه للاحتكاك والمخاصمات . ومع ذلك فان هذا العمل الجماعى كان أقل تبذيرا مما يحدث فى ظل الانفرادية المطلقة : فمن جهة كان الفلاح مشدودا إلى الأرض بصورة لا فكاك له منها. وكان يتناول أنصبته الخاصة قمحا أو شعيرا أو أرضا غير مزروعة فى دورة الراحة ، شأنه في ذلك شأن غيره ممن يعملون فى الحقل . وبعد الحصـــاد ، يترك الحقل بما عليه من مخلفات القش وسنابل القمح والحبوب التى تتساقط من عمال الحصاد ، غذاء لدجاج القرية وبطها وأوزها ، حيث تلتقط هـــذه الدواجن غذاءها من تلك المخلفات لتصبح فى أوج سمنتها ولذيذ مذاقها حوالى عيد القديس ميخائيل (١).

ولم تعرف انجلترا السياج خلال العصور الوسطى . وظلت الأمور على هذا الوضع إلى أن جاء فى النسخة المعتمدة للعهد القديم ان اسحق خرج مساء ، لا الى الحقول (بالجمع) ، بل إلى الحقل (بالمفرد) . (٢) وكان لكل كوخ

---

(١) يقع عيد القديس ميخائيل عند الغربيين فى ٢٩ سبتمبر من كل عام .

(٢) نص الآية « وخرج اسحق ليتأمل فى الحقــــل عند إقبال المساء » . أنظر : سفر التكوين - اصحاح ٢٤ : ٦٣ .

عادة مزرعته الصغيرة المسورة وحديقته . كذلك كانت أجمل أراضى المروج مسورة ليتسنى الاحتفاظ بها للدريس . ولكن الأرض الصالحة للزراعة كانت على امتدادها الشاسع تفصل قطعها الواحدة عن الأخرى عروق من الخشب ، أو سياج رفيع من الحشائش . وما زال نظام الحقل الكبير قائما فى مختلف أنحاء انجلترا حتى يومنا هذا ولكن المفروض أن مشاهدة معالم العصور الوسطى على حقيقتها تستلزم منا الرحيل إلى الخارج ، كأن نذهب إلى وديان نورمانديا حول دييب Dieppe (١) ، التى تشبه فى تكوينها الطبيعى كنت Kent وساسكس Sussex (٢) ، وإن كانت تختلف عنهما من وجوه عديدة .

وإلى جانب الأراضى الصالحة للزراعة ، والمروج المسورة لحفظ الدريس ، كان هناك دائما كثير من المراعى غير المنظمة والأراضى المشاع التى كان

(١) تقع دييب فى السين الأدنى بفرنسا .

(٢) تقع كنت وساسكس جنوبى غابة ويلد Weald بانجلترا . وقد استقر فيهما السكسون فى أولى غزواتهم على الجزيرة البريطانية حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى : وكانت كنت أول مملكة بالجزيرة تؤول الى الغزاة الجدد ، وقد اشتملت على أجناس شتى من الخلق ، وكانت مدنيتها مزيجا من عناصر حضارية متنوعة . كما كانت على صلة طيبة بجيرانها البريطانيين فى الممالك الأخرى : وامتدت حضارتها إلى الممالك المجاورة لها ، وقامت بينها وبين شعوب القارة ، علاقات تجارية واجتماعية . أنظر عن ذلك :

Whitelock, Beginnings of English Society, 8,13-4, 122, 145,150; Woodward, Hist. of England, 11, 17; Shorter Cambridge Med. Hist., I, 172 sqq.

للفلاحين عليها حقـــوق الرعى والكلأ . وكذلك بعض الغابات التى كان من حق القرية استخدام الحطب الموجود بها للوقـود أو لإقامة السياج دفاعا عن القرية نفسها . وكانت الأخشاب تستخدم أحيانا فى البناء . ولكن لم يكن للقرية ، الى جانب ما تقدم ، أية حقـــوق رياضية . بل إن ممارسة الرياضة فى انجلترا كانت تخضع فى أيام تشوسر لقيود أشد مما خضعت لهـا أيام فيلدنج (١) Fielding .

وللاقطاعية ثلاثة موظفين زراعيين رئيسيين . وكان اليـــد اليمنى للسيد المالك هو وكيل أعماله أو نائبه الذى كان يتصـــدر الجلسة فى محكمة الاقطاعية ، ولم يكن يقل عن هؤلاء أهمية كبير القضـاة « Praepositus » الذى كان ينتخب سنويا باعتباره ممثلا اسميا عن المستأجرين . ولكـن هذا الممثل كان فى الواقع يحاول المحافظة على مصالح السيد مثلما يفعل وكيل أعماله تقريبا . أما الموظف الثالث فهو موظف الأبرشية « Hayward » الذى كانت مهمته فى الواقع حراسة الدريس . ولفظ « Hayward » هـــو تحريف للاسم الأصلى « Heggeward » ، وكانت وظيفته السهر لمنع أى حيـوان من التسلل من بين السياج الى حقل الدريس أو الحبوب ، أو الى غابة اى شخص

---

(١) هنرى فيلدنج قصصى وكاتب سياسى انجليزى ، ولد فى لشبونه سنة ١٧٠٧ وتوفى فى ١٧٥٤ ولم يتجاوز الخمسين من عمره . اشتهر بدقة ملاحظته وعمق تجاربه . وله عدة مؤلفات منها كتابى «جوزيف اندروز» و «توم ثمب» Tom Thumb الذى يهاجم فيه الحكومة الانجليزية بشدة وعنف . أنظر :
Plumb, England in the 18th. Century, 35, 100, 163; Trevelyan, Shortened Hist. of England, 385, 386.

آخر . كما كان عليه أن يسوق أية ماشية يراها شاردة إلى حظيرة القرية التى لا يزال بعضها موجودا إلى الآن . وكانت الحظيرة فى مدينـــة كمدينة كينجز لين King's Lynn لا تزال قائمـــة حتى خمسين عاما مضت . أما الموظف الرابع فكان دون اولئك الموظفين الثلاثة أهمية من الناحية الرسمية ، وكان يزاول مهمته فى موسم الحصاد . وهذا الموظف الاخير هـــو كبير الفلاحين الذى كان من شروط تعيينه فى وظيفته « أن يحمل عصاه رافعا إياها فوق رؤوس عمال الحصاد » . ذلك أنه يجوز للسيد أو لموظفيه ضرب رقيق

رسم رقم ٢



عصا مقدم الفلاحين

الأرض ، طالما أن العقوبة لم تصل الى حـد الأذى الجسمانى الخطير . ومن المفروض أن يكون لكل قرية حدادها ايضا . فان لم تراع القـــرية ذلك طواعية أرغمت عليه قسرا ، لأن وجود الحداد كان ضرورة ملحة للمجموع . كذلك كان يتحتم وجود نجار فى القرية . أما الترزى فان حاجة القرية اليه كانت أقل بكثير . وأما أصحاب الدكاكين والحوانيت فلم يكن لهم وجـود فى القرية على الاطلاق . فقـــد كان الطعام والشراب والكساء متوفرة أسبابه

داخل القرية . فمن زراعة تنمى ، الى كساء يصنع ، إلى شراب يعد حتى آخر كسرة من الطعام ، ونقطة من الشراب ، أو غرزة من الخياطة . وما كان يتعذر عمله فى القرية كانوا يجلبونه من المتاجر والأسواق القائمة فى أقرب مدينة منها .

ويمكن وصف الفلاح الذى عاش فى عصر تشوسر ، تماما كما وصف فرجيل (١) فلاحه الايطالى الخاص ، وهو يحمل محصوله إلى المدينة ، ويعود منها وبيده حجر مسن ، أو حفنة من الصنوبر . إذ قال : « وكثيرا ما يعمد

---

(١) هو بوبليوس فرجيليوس Publius Virgilius أو فرجيليوس مارو Virgilius Maro ، من أشهر شعراء اللاتينية . عاش فى عصر اغسطس . ولد فى سنة ٧٠ ق . م بالقرب من مدينة مانتوا Mantua بشمال ايطاليا حيث كان أبوه يملك قطعة أرض صغيرة يقوم بزراعتها . وتلقى التعليم المعتاد فى ذلك الوقت . فتعلم اللغة والفلسفة اليونانية ، وبدأ فى عصر مبكر فى كتابه القصائد القصيرة وسرعان ما فقد أراضيه وممتلكاته أثناء الحروب الأهلية ، ثم أعادها إليه الامبراطور أغسطس فيما بعد . وانضم إلى حاشية الامبراطور ، وكتب القصائد العديدة فى مدحه ، كما كتب مجموعة من القصائد عرفت باسم القصائد الريفية وتسمى باللاتينية Georgics . ومن أهم أعماله أيضا الملحمة الكبرى لغة اللاتينية « الانياذة » Aeneid ، التى كتبها بناء على طلب اغسطس نفسه . وتوفى فرجيل فى برنديزى سنة ١٩ ق . م عن ٥٢ سنة تقريبا . وقد تأثر به كثير من كتاب وأدباء وفلاسفة ومفكرى العصور الوسطى . انظر عن ذلك المراجع التالية:

Dict. of Classical Antiquities, 681—3; Burgh, Legacy of Ancient World, I, 303, 305—6, 313—4; Barrow, Romans, 84 sqq., 118 sqq.

لوحه رقم ٢

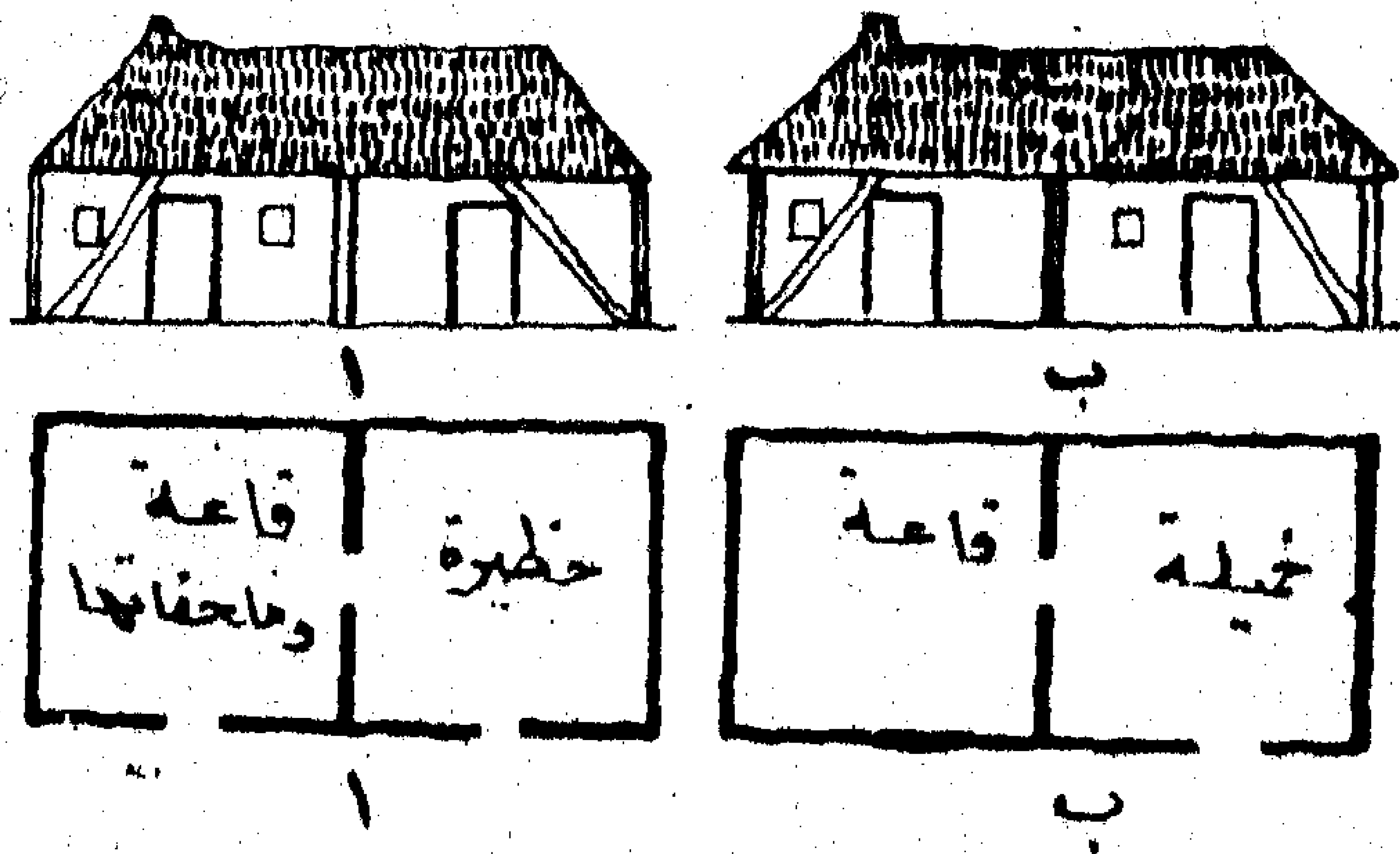


موكب كنسي في قرية

سائق الحمار البليد الى تحميل ظهره بجرار الزيت ، أو بالتفاح الرخيص ، وعند عودته من المدينة يحضر معه حجر شحذ أو كمية من الصنوبر المطلوب . »(١)

وإنا لنحتاج فى الواقع الى قدر من الجهد ليتسنى لنا تكوين فكرة عن طريقة الاكتفاء الذاتى ، وبالتالى عن العزلة التى كان يعيش فيها الريف فى القرون الوسطى . كان متوسط تعداد أفراد القرية لا يزيد عن ٤٠٠ تقريبا ، يبلغ عدد البالغين منهم ٢٥٠ على الأكثر وربما أقل من ذلك ، وعدد الأطفال ١٥٠ طفلا . وكان كل اولئك يقضون حياتهم عادة داخل القرية ، دون أن يشاهدوا من الخلق إلا القليل فيما جاوز حدود قريتهم . ففيما عدا المارة والزائرين المؤقتين ، كان اولئك الرجال وهاتيك النسوة يعيشون فى القرية من المهد الى اللحد ، حيث يرافقهم إليه عدد من البالغين بقدر ما يكفي لملء أربع من عربات لندن وكانوا

رسم رقم ٣



كوخ تاريخه حوالى سنة ١٣٠٠

---

(١) Georgics, I, 273. (كولتون) .

يعرفون كل واحد منهم باسمه ، كما كانوا يرون كل واحد منهم ويتحدثون إليه يوميا .

أما عن محكمة السيد الاقطاعي فقد كانت مهمتها مزدوجة : مدنية وجنائية . فقد كانت المحكمة تفصل في كافة الشئون المتعلقة بالملكية موضوع النزاع ، والخدمات التي لم يتم تأديتها ، والغرامات غير المسددة ، وهكذا . كما كانت تفصل في جرائم الهجوم ، والتعدى على الغير ، واغتصاب الأرض ، وبذاءة اللسان . مثال ذلك أن تنادى رجلا بقولك له « ياعبد » احتقارا منك بشأنه . وكذلك تلويث آبار القرية ، أو احداث حفر في الطريق العام لاستخراج الصلصال ، أو الحصول على الطمى المحتوى على الصلصال ، وكربون الجير الذى يستعمل في السماد . وبالاضافة الى ما تقدم ، فقد كانت المحكمة تنظر أيضا في محاولة الإساءة إلى الغير التي كانت ترتكب في ذلك الزمن ، ولا تزال ترتكب حتى الآن ، وهي أن يترك شخص ما سيارته في مكان غير ملائم بحيث يضايق الغير . وفيما يلى بعض الأمثلة الملموسة التي تؤيد ذلك .

لقد سجلت في كتابي « القرية في العصور الوسطى »(١) كيف أننا نجد مبكرا منذ سنة ١٣٦٤ الأمر الصادر الى « كافة المستأجرين في رينتون الشرقية East Raynton ورينتون الغربية West Raynton ، والذى يحرم عليهم مناداة أى رجل من أية اقطاعية بأنه « عبد السيد المتبوع » .

(1) Coulton, Medieval Village, 91 (كولتون) .

كما قضى الأمر بمعاقبة المخالف لذلك بغرامة قـــدرها ٢٠ شلنا » .
وفى سنة ١٣٦٥ صدر مرسوم بمدينة نيوتن بوليـــو Newton Beaulieu بتوقيـع غرامة قـدرها ٦ شلنـات و٨ بنسات على أى شخص ينـــادى آخر مع نعتـه بأنه ريفى Rusticum . وقد قدم فعلا للمحاكمة شخص يدعى جـــون اوف بامبـــورو John of Bamborough لمنـاداته آخر يسمى آدم اوف مارتون Adam of Marton بقـــوله « إنه مزور وكاذب فى يمينـه ، وانه ريفى غليظ الطباع ، بقصد الإضرار بسمعة آدم المذكور » ولـــكن الغـرامة التى وقعت فعـــلا كان مـقدارها ٣ شلنـات و ٤ بنسات فقط : ثم اكتفى أخيرا بتغريم جون شلنا واحدا من باب الرأفة . كذلك حدث فى سنة ١٣٧٨ أن هدد المستأجرون فى وولفستون Wolveston بتوقيـع غرامة قـدرها ٢٠ شلنا على كل شخص « ينـادى أى قن من أقنـان السيد الاقطـاعى بكلمة ريفى » . ذلك أن كلمة ريفى بالـلاتينية وهى « rusticus » كانت مرادفة لكلمة قن « Servus » أو فلاح « Villanus » .

وفى الصفحة التالية من الـكتاب (١) أشرت الى الشكايات التى تتعلق بالحفر التى نقرت فى الطريق العام . ولكن أهم تلك الحفر جميعا هى تلك التى ذكرتها السيدة ج . ر . جرين J. R. Green فى كتابها المسمى « حياة المدينة فى القرن الخامس عشر » (٢) : إذ كتبت تقول :

---

(١) Coulton, op. cit., 92 (كولتون) .

(٢) Green, Town Life in the Fifteenth Century, II, 31 (كولتون) .

وفى سنة ١٤٩٩ رحل تاجر قفازات من سوق ليتون Leighton حاملا بضاعته إلى ايلسبرى Aylesbury ليلحق بالسوق هناك قبيل عيد الميلاد . وحدث أن صاحب طاحونة فى ايلسبرى ويدعى ريتشارد بوز Richard Boose ، وجد أن طاحونته فى حاجة إلى ترميم ، فأرسل خادمين الى الطريق العام ليقوما له بالحفر فيه بحثا عن نوع من الصلصال معروف باسم « صلصال رامينج » دون أن يخشى نتيجة ما تسبب عن النقر في الطريق العام فى سبيل الحصول على ذلك الصلصال ، من إحداث حفرة بالغة الاتساع فى وسط الطريق بلغ طولها عشرة أقدام وعرضها ثمانية أقدام وعمقها ثمانية أقدام أيضا ، لم تلبث أن غمرتها فوراً مياه الامطار الشتوية . ولكن القفاز السيء الحظ ، وهو يغادر المدينة فى الغسق وجواده محمل بسلال مليئة بالقفازات ، سقط توا فى الحفرة حيث غرق هو وجواده : ولقد وجهت التهمة إلى الطحان لتسببه فى وفاة القفاز ، ولكن المحكمة حكمت ببراءته على أساس أنه لم يكن سيء النية ، وأنه لم يعمد الى الحفر الا لترميم طاحونته ، وأنه فى الواقع لم يكن يعرف أى مكان آخر يستطيع أن يحصل منه على نوع من الصلصال الذى كان فى حاجة اليه سوى الطريق العام .

أما فيما يتعلق بالمخاصمات التى كانت تلتهم معظم الوقت المخصص للعمل فى محاكم هذه القرية ، فقد كان مردها أحيانا إلى تعاطي الخمر أو إلى مباريات كرة القدم بين القرى وبعضها ، والتي كان يجرى لعبها بما اتصفت به القرون الوسطى من عنف تلازمه الفوضى والخروج على كل نظام : كذلك نتجت تلك المخاصمات من العادات القديمة الخاصة بالأخذ بالثأر بين الأسر : ولكن يبدو ، كما تدل ظواهر الامور ، أنها كانت ترجع فى أغلب الأحيان إلى

ألسنة النساء . ومن أجل ذلك أصدرت محكمة بلنجهام Billingham فى نورثمبرلاند Northumberland أو درهام Durham « أمرا باجماع الآراء الى كافة نساء المدينة بأن يحفظن ألسنتهن ، وأن يتعففن عن القذف بأية صورة كانت . » كذلك صدر الأمر فى هازلدين Hazeldean فى سنة ١٣٧٥ « إلى نساء المدينة قاطبة بأن يحفظن ألسنتهن ، والا يوجهن أى لوم أو سباب إلى أى رجل كان . » (١)

ولقد احتفظت محكمة القرية الإقطاعية بآثار كثيرة من الديموقراطية البدائية. فكان الحكم ، من حيث الشكل على الاقل ، يصدره المستأجرون أنفسهم بعد حلف اليمين وفقا للعادات المرعية فى الاقطاعية . وكانت الاقطاعيات تختلف عن بعضها البعض تبعا لاختلاف العادات فى كل منها . ويندر أن نجد اقطاعيتين تتفقان تماما فى العادات . أما الاختلافات التفصيلية فغالبا ما كانت ذات أهمية . ومع ذلك فانها جميعا شديدة الشبه من الناحية العائلية ، أى من حيث أنها تحمل طابع مجتمع يختلف اختلافا بينا عن مجتمعنا هذا . وعلى الرغم من الشكليات الديموقراطية ، فقد كانت الظروف كلها تميل بميزانها بقوة لصالح السيد الإقطاعى ، حتى ولو لم يكن كبير قضاة الاقطاعية هو رجله الثابت بقدر ما كان شأنه مع وكيله . لقد كان ذلك المجتمع مجتمعا بدائيا قبليا إذا ما قورن بمجتمع اليوم : وكان معنى ذلك أن كل شىء أصبح يعتمد فيه اعتمادا كبيرا على سيد الأسرة أو القبيلة ، أو على كبير الملاك ، أو فى أحوال كثيرة على موظفيه : وقد روى لنا بروميارد

---

(١) يمكن الاطلاع على هذه التفاصيل وما شابهها فى كتاب Coulton, Med. Village, 92 sqq. (كولتون) :

الدومينيكانى Bromyard ، (١) أن وكيل السيد اللورد كثيرا ما كان هـــو طاغية الحقول الصغير الذى كان بوسعه وضع يده على كل شىء ، وابتزاز أموال القرويين ، متسترا فى ذلك وراء سيد لين العريكة سهل القياد ، ابتغاء مرضاته عن طريق زيادة الايراد .

(١) درس بروميارد هذا بجامعة كامبريدج وقام بالتدريس فيها : وللمزيد من المعلومات عنه أنظر : Coulton, Med. Panorama, 249 sq., 638, sq.; McKisack, Fourteenth Century, 505.

بعض المراجع للفصل الثاني

Abdy, J. T., Feudalism: Its Rise, Progress and Consequences. London, 1890.

Allard, P., Les esclaves chrétiens. Paris, 1914.

Beaudoin, E., Etudes sur les origines du régime féodal: la recommandation et la justice seigneuriale. Annales de l'enseignement supérieur de Grenoble, 1889.

Bernett, H., Life on the English Manor. 1960.

Bernard, P., Etude sur les esclaves et les serfs d'église en France, du VIe au XIIIe siècle. Paris, 1919.

Berr, A., Die Kirche gegenüber Gewalttaten von Laien. Berlin, 1913.

Calmette, J., Le monde féodal. Paris, 1937.

Coulborn, R. (ed.), Feudalism in History. Princeton, 1956.

Coulton, G. G.,

1- The Medieval Village. Cambridge, 1925.

2 - Medieval Village, Manor and Monastery. New York, 1960.

Delisle, L., Etudes sur la condition de la classe agricole et sur l'état de l'agriculture en Normandie pendant le moyen âge. Paris, 1851.

Duby, G., L'economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval. 2 vols. 1962.

Faugeron, H. P., Les bénéfices et la vassalité au IXe siècle. Rennes, 1868

Lacroix, P., La Chevalerie et les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887

Mielke, R., Das deutsche Dorf. Leipzig, 1913.

Painter, S., Feudalism and Liberty. 1961.

Roth, P., Feudalität und Unterthamenverband. Weimar, 1863.

Sée, H., Les classes rurales et le régime domanial en France au moyen âge. Paris, 1901.

Seebohm, F., The English Village Community: An Essay on Economic History. London, 1890.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Thompson, J W., Feudal Germany. 2 vols. New York, 1962.

Waitz, G., Uber die Anfänge der Vassalität. Göttingen, 1856.

Wergeland, A. M., Slavery in Germanic Society During the Middle Ages. Chicago, 1916.

White, L., Medieval Technology and Social Change, 1961.

الفصل الثالث

الكنيسة والقرية

يمكن وصف أسلوب الحكم فى القرية خلال العصور الوسطى ، بأنه حقا عبارة عن حزب السادة كبار الملاك . ولو أنه كان يحدث أحيانا أن يظهر حزب لأولئك الملاك يميل بطبعه الى الخير ، تماما على غرار حزب كبار الملاك فى القرن الثامن عشر الذى كثيرا ما كان يتميز بحب الخير أيضا . فمن ناحية الحكم المدنى كانت القرية فى العصر الوسيط تدار شئونها قطعا بروح من الرفق الأبوى . وقد ازداد هذا الرفق أيضا من جانب الكنيسة ، مما كان له فى ذلك الوقت أهميته العظمى :

ويرجع الفضل الأكبر الى رجال الدين فى الحضارة التى أحرزتها تلك الشعوب. لقد كانت الكنيسة الرومانية ، فى واقع الأمر، الوارثة للامبراطورية الرومانية . وكان القساوسة منذ قرون مضت هم الذين يشتغلون بالتأليف أو قراءة الكتب دون سواهم تقريبا . وكانوا فى كافة المناطق الواقعة شمال الألب ، هم المحتكرون شرعا للتعليم ، ابتداء من المدارس الأولية حتى الجامعة : ولم تكن ثمة ، فى الواقع ، أية طريقة تربوية نظامية فى العصور الوسطى ، وإن كان هناك من يؤكد خلاف ذلك خطأ فى يومنا هذا . وقد وجد من الوجهة النظرية ، ما يجب أن نطلق عليه اسم المدرسة اللاهوتية فى كل مدينة تقوم فيها كاتدرائية : وكان هذا الامر عادة حقيقة ماثلة ، ولو أن عدد الطلبة قلما كان كبيرا . وكثيرا ما نجد أساقفة ، أو

مجالس كنسية ، أو أحد البابوات ، وهم يقررون أنه يتعين على كل قس أن يقوم بالتدريس مجانا فى نطاق أبرشيته . بيد أن الشواهد عديدة على أن هذه الرغبة لم تخرج عن كونها مجرد أمنية متدسة . وكثيرا ما رأينا فى أخريات القرون الوسطى ، كاتب الأبرشية وهو يعلم بعض الأطفـــال مقابل أجر زهيد . وحتى بعـــد ذلك التاريخ ، ألزم كثير من القســاوسة المنوط بهم أداء التراتيل ، والذى كان واجبهم الوحيد فى بداية الأمر أن يرتلوا قداسا واحدا كل صباح - ألزموا بفتح مدارس فى كنائسهم أيضا ، بحيث أن القرية قاست لفترة ما فى أثناء الاصلاح الدينى نتيجة لإلغاء تلك المدارس الصغيرة. ولقد حدث مرتين خلال القرن الخامس عشر أن قامت لندن بمحاولات للاكثار من المدارس ، ولكنها صادفت فى ذلك نجاحا ضئيلا نظرا لمناهضة المحتكرين من رجال الدين لهذا المشروع ، مما حدا بكبار العلماء من كافة المذاهب الى نبذ ذلك الزعم القائل بأن الرهبان كانوا هم معلمى عامة الشعب. وينبغى أن يقوم رجال الدين بتعليم أولاد خارجيين ، اللهم الا فى حالات التبشير . ومع ذلك قامت الراهبات أحيانا بتعليم عدد يسير من أغنى الفتيات لتدبير جهازهن المتواضع عند دخولهن فى سلك الرهبنة . ولكن هذا التعليم لم يلق تشجيعا فى أغلب الأحوال ، بل كان محرما أحيانا بناء على أوامر رؤسائهن من رجال الدين (١) . هذا ، ومن المستبعد أن يكون قد حصـــل عشر الأفراد الذين عاشوا فى القرون الوسطى على أى قسط من التعليم المدرسي.

(١) تناول المؤلف هذا الموضوع برمته فى الفصـــل العاشر من كتابه « دراسات فى العصور الوسطى » Medieval Studies ، وعنوان هـذا الفصل « المدارس الديرية فى العصور الوسطى » (كولتون) .

وقد احتكرت الكنيسة بطبيعة الحال التعليم الديني . غير أنه ، حتى في هذه الحالة ، كان المحتكرون لهذا التعليم، بوجه عام ، أقل نشاطا مما صوروا به : ولا شك أن رجال الدين الاتقياء قد بشروا بالانجيل بين أتباع أبرشياتهم ، لا بالأقوال فحسب ، بل بقدوتهم الحسنة أيضا . ويشهدعلى ذلك تشوسر في كتابه الخالد « كاهن الأبرشية المسكين » « Poor Parson » . بيد أنه لا يوجد أي أثر يشبه ، ولو من بعيد ، مدارس الأحد الدينية . وفي نهاية القرن الثالث عشر ، أمر رئيس أساقفة كانتربري - إثر نهضة دينية عظيمة - بالزام كل قس من قساوسة الابرشيات أن يعظ أربع مرات في السنة على الأقل ، وأن يعمل في هذه العظات على التوسع في تفسير العقيدة ، والوصايا العشر، وموعظة المسيح فوق الجبل (١) ، والخطايا السبع المميتة ، والفضائل الرئيسية السبع ، وأعمال الرحمة السبعة ، والاسرار السبعة المقدسة . ومع ذلك لم يكن الأمر الصادر من كبير الأساقفة بدعة جديدة ، إذ تدل السجلات الكنسية على مبلغ التهاون في إطاعته وتنفيذه : وهنا يجدر بالقراء أن يكونوا على حذر من تواتر التأكيد بأن أسباب العجز التي ألمعنا اليها كانت كلها مشفوعة بالصور والنقوش الكنسية . فكانت جدران الكنيسة هي انجيل الرجل الفقير . ولكن أعظم قساوسة القرون الوسطى أنفسهم يعترفون بعجز أية صورة عن أن تسد النقص في التعليم الجدي . والواقع أنه يجب علينا أن ننعم في النظر ، لمصلحتنا فحسب ، في القطع الباقية في كنائسنا حتى نتبين قلة عدد الصور المطابقة فعلا للأنجيل.

لقد سبق ان استعملنا مرتين كلمة « الاحتكار » من حيث أنها تعبر عن

---

(١) وردت هذه العظة في انجيل متى — الاصحاح ٥ — ٧ .

جانب ضروری واحد من الحقيقة ، وإن كانت هذه الحقيقة بعيدة عن الحقيقة الكاملة . كان ذلك الجانب ، لو شئت ، (١) هو الثغرة فى عالمية الكنيسة . وكان كل طفل يعمد فى هذه الكنيسة ، أما إذا أهمل العماد عن سوء نية ، فتلحق وصمة الهرطقة بوالديه . وكان الخروج على التعاليم الكنسية يعتبر هرطقة ، وكل مخالفة خطيرة يعاقب صاحبها إذا أصر على موقفه بتعليقه على عمود . (٢) ولقد امتدت سلطة رجل الدين حتى جاوزت بكثير ما تعارفنا على تسميته بأنه أمر روحى بحت ، أو حتى مجرد شئون ثقافية ، وفضلا عن احتكار رجل الدين للتعليم الدينى وغير الدينى . وفضلا عن السلطة الهائلة الاجتماعية والسياسية التى استمدها من شرعية الاعتراف ، فقد كان له حق إصدار الأحكام وتوقيع العقوبات فى كافة الشئون الأخلاقية الهامة كالربا وممارسة السحر والشعوذة وكل ما يمت إلى قوانين الزواج . فإذ حدث مثلا أن أحد أتباع الأبرشية لم يكتب وصيته — الأمر الذى لم يفعله واحد فى المائة — وجب عليه أن يفضى بوصيته شفاهة إلى القس وهو على فراش الموت . وكان ذلك الأمر يدخل ضمنا مع تلك الطقوس الكنسية الدائمة التى يترتب على إهمالها

---

(١) يعنى المؤلف هنا لو شاء الفرد انقاذ ما يمكن انقاذه واستكمال النقص فى التعاليم والعناية بالصور والتماثيل المشار اليها ، وأن هذه الناحية تعتبر الثغرة فى كونية الكنيسة .

(٢) أنظر الفصل التاسع عشر من كتاب المؤلف « دراسات فى العصور الوسطى » ، وعنوان الفصل المذكور « عقوبة الموت بسبب الهرطقة » وكذلك كتاب المؤلف « محاكم التفتيش » المنشور فى مجموعة **Benn's Sixpenny** (كولتون) .

حرمان الجثمان من أى حق فى دفنه فى المقبرة المدشنة ، مع حرمانه أيضا من صلوات الكنيسة عليه : وكان شخص رجل الدين موضع التقديس : ولم يكن للقس العادى الذى يستمع الى الاعتراف أن يحل شخصا يهاجم عن سوء قصد أى فرد حتى ولو كان هذا الفرد هو كاتب الأبرشية ، من خطيئته ، ومن باب أولى لو أنه هاجم قسا . وكانت أمتعة القس ومنقولاته تساهم الى حد بعيد فى القدسية الملازمة لشخصه : وكانت كل كنيسة محرابا يمكن أن يلجأ اليه أى شقى هربا من وجه العدالة لمدة أربعين يوما على الأقل . وأخيرا ، فقد شكلت الواجبات الكنسية التى سوف نعود اليها فيما بعد ،ملامح شديدة الوضوح فى حياة كل إنسان .

وثمة الآن اتفاق عام بين المؤرخين مؤداه أن الابرشية إنما نشأت بمعالمها الرئيسية المميزة لها . ذلك ان النظام الأبرشى (١) لم ينشأ من أعلى ،

---

(١) يوضح هنرى بيرين هذه الفكرة فى كتابه « مدن العصور الوسطى » . يقول ان النظام الكنسى الابرشى قام على انقاض المدن الرومانية القديمة عندما انهال الجرمان فى جوف الامبراطورية وقضوا عليها . ذلك أن الجرمان فى أسوأ غزواتهم ، لم يمسوا الكنيسة بأى سوء ، مما أدى الى استمرار نفوذها ، فأقامت ابرشياتها على أنقاض تلك المدن المنهارة . ويتحدث عن أحوال المدن الابرشية الجديدة ، فيقول انها كانت ـ بصفة عامة ـ أكثر فقرا وأقل عمرانا من المدن القديمة ، وان كان نفوذ الأساقفة قد تزايد بشكل ملموس بسبب الظروف التى المت بالعالم الغربى وقتذاك . وقد أسهم هذا فى بقاء المدن الرومانية المتدهورة فى شكل مدن أبرشية يرعى كنائسها أساقفة . وكان يشرف على هذه الابرشيات فى بداية الأمر السادة اللوردات ، ثم تحول الاشراف بمرور الزمن الى الاديرة . أنظر عن ذلك كتاب :
H. Pirenne, Med Cities, 42 sqq .

أى من البابا ، أو نتيجة للنظام الطبقى ، وإنما نشأ فى الغالب من أدنى الطبقات عن طريق التطور الطبيعى قبل ظهور المسيحية نفسها . ففى الأزمنة الوثنية ، كان للسيد اللورد الحق فى بناء معبد ، وفى اقتضاء واجبات دينية معينة ، وفى تعيين الكاهن أيضا . وقد عمل بهذا النظام ، وكان نقله الى العصور المسيحية أمرا طبيعيا . ولم يكن السادة اللوردات يتصرفون دائما بنزاهة فيما يصل الى أيديهم من الأموال التى ابتزوا قدرا كبيرا منها . وقد نال وليم الفاتح تقديرا خاصا من البابا جريجورى السابع (١) لحماسته فى الدفاع عن حقوق الكنيسة فى هذه الناحية . ويبدو أن العشور فى انجلترا كانت تذهب برمتها تقريبا ، ان لم يكن الى القس ، فعلى الأقل الى الكنيسة نفسها : ونقول « إن لم يكن الى القس » لأننا إذا فحصنا حالة أية كنيسة أبرشية خاصة ، ولا سيما حوالى نهاية العصور الوسطى ، لوجدنا القس لم تتغير حالته فى اغلب الأحيان . فكأنه لم يظفر بشىء ، بل نجد أنه خسر نسبة كبيرة من حصته فى العشور . ويحدونا هذا الى التمييز ، الذى حير الباحثين المحدثين كثيرا ، بين الكنائس الأبرشية والدخل الذى يحصل عليه قس الأبرشيات . فلماذا مثلا يكون القس المختص بأبرشية شلفورد الكبرى Great Shelford بمقاطعة كامبريدج مجرد قس عادى ، على حين أن القس المختص بشلفورد الصغرى Little Shelford يكون رئيس أبرشية ، ويحصل على دخل لخمسمائة نفس أكبر مما يحصل عليه جاره لألف وخمسمائة ؟ والجواب على ذلك باختصار هو أن شلفورد الكبرى قد حرمت مما يعرف باسم العشور الكبرى ،

---

(١) شغل البابا جريجورى السابع الكرسى البابوى فى الفترة من ١٠٧٣ الى ١٠٨٥ .

وبوجه خاص عشور الحبوب والمحاصيل المماثلة لها ، بينما لم تحرم شلفورد الصغرى من هذه المزية .

والواقع أن ما أدركته القرية من توفر أسباب الرخاء وتقدم الحضارة ، كان من أثره أن العشور وغيرها من الواجبات المفروض أداؤها للكنيسة ، بلغت فى كثير من الأبرشيات قدرا يفوق ما يحتاج إليه القس الأعزب كأجر للمعيشة ، حتى ولو استعملنا هذه العبارة فى أسخى معانيها . ويعتبر هذا من الأسباب التى أغرت السادة اللوردات باختلاس نصيب لهم من تلك العشور . أما حينما كانت الكنيسة قوية ، كما كان شأنها فى انجلترا أيام النورمان بفضل حصافة رجال الدين أنفسهم من جهة ، وحماية وليم الفاتح لها من جهة أخرى - كان من الميسور وضع حد للسرقات التي يقترفها المدنيون . وأما من يطرد من الأبرشية ، فلم تكن له عودة اليها . بل على العكس من ذلك ، كان المطرود ومعه زملاء عديدون يلجأون الى الاديرة أو الـ كاتدراليات أو غيرها من المؤسسات الدينية الكبرى . وكان ذلك الوقت بالذات هو انسب فترة للحياة الرهبانية . وكان الرهبان ، بصفة عامة ، هم أفضل رجال الدين ، وأكثرهم فى الحقيقة شعبية . ولذلك كان بعض اللوردات أثناء حياتهم ، وعند مماتهم ايضا ، عندما يدلون بوصاياهم وهم على فراش الموت ، يهبون الأديرة تلك الكنائس التى كانوا يمتلكونها ، لأن أسلافهم هم الذين أسسوها . ولم تكن هذه الهبة فى بادىء الأمر ، ذات مزية كبرى من الناحية المالية ، وانما كانت تعنى فقط أن القس أصبح يعين لا من قبل السيد الأصلى بل من قبل الدير ، وأن الرهبان بمساومتهم معه (أى القس) قد تمكنوا من الحصول على ما يروقهم من الايرادات : وكان البابوات والأساقفة ،

حوالى الوقت الذى بدأت فيه فترتنا هذه ؛ قد أخذوا يأذنون للرهبان فى حالات خاصة متميزة ، فى الاستيلاء على الكنائس على سبيل الاستعمال الشخصى « in proprios usus » ، أى لتملكها كما جرى التعبير بذلك . وكان الوضع القانونى فى مثل هذه الحالات كالآتى : كان الدير هو راعى الأبرشية ، أى المشرف عليها ، وله الحق فى كافة العشور وغيرها من الواجبات : ولكن الرهبان قلما كانوا يقومون بواجبات القساوسة فى الأبرشيات .

والواقع ان القرارات البابوية حرمت ذلك رسميا خلال الشطر الأكبر من العصر الوسيط . ومن ثم عين الرهبان رجلا يسمى خورى (١) Curate لأداء الواجبات الفعلية للأبرشية : وكان اسمه الأصلى باللاتينية فيكاريوس Vicarius ومعناه « وكيل أبرشية » . وقد تزايدت هذه الملكيات الموقوفة على الأديرة تدريجيا ، ويمكن أن نتتبع فى المستندات الى أى حد كانت الأديرة توافق على دفع مبالغ باهظة للحصول على ملكية ما إكراما لكل من أسقف الأبرشية والبابا . وهكذا نجد أنه قبل حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا ، تحول نحو ثلث الأرزاق إلى معاشات لقساوسة الأبرشيات . وكان الكاهن صاحب المعاش ، فى مثل هذه الحالات ، عبارة عن خورى دائم له من الدخل قدر ما يفلح فى الحصول عليه من الحصص . وحوالى تلك الأثناء ، تدخل البابوات والأساقفة فى شئون كهنة الأبرشيات ، وأصروا على الحصول ، كمطلب أدنى ، على

---

(١) الخورى هو مساعد أو نائب لراعى الأبرشية .

أجر لهم يتعيشون منه . وكانت النسبة القانونية التي تؤول للمتملك — أي الدير — هي ثلثي الدخل ، على أن يترك الباقي لمن يقوم بالعمل . ويشير البابا انوسنت الثالث (١) إلى حالات كان كاهن الأبرشية يحصل فيها على $\frac{1}{٣٢}$ فقط من جملة دخل الأبرشية . وفي هذه الظروف ، كان الشخص الفقير هو الذي يتحمل معظم الأعباء : وطبقا للنظرية الكنسية كان يخصص ربع دخل الأبرشية للفقراء . وبذلت في هذا السبيل بعض المحاولات تذكيرا للمتملكين بهذا المبدأ ، ولكن لم يكن بوسع أي جهاز ارغام كهنة الأبرشيات على وضع المبدأ المذكور موضع التنفيذ . وعلى الرغم من تدخل البرلمان وكفاحه لإجبار المتملكين على تنفيذ ذلك المبدأ إلى حد ما ، فقد قال بروميارد Bromyard — ذلك الراهب الدومينيكاني الذي كان معاصرا لتشوسر — إن المبدأ المذكور قد أهمل تماما .

ومع ذلك ظلت الكنيسة ، حتى في أسوأ ظروفها ، هي المركز الرئيسي للحياة في القرية . وحوالي ذلك الوقت ، كان قد تقرر نهائيا في أصول العقيدة الصحيحة ، أن عدم لياقة راعي الكنيسة لأداء فرائض العبادة وطقوسها لا يؤثر في مفعول الأسرار المقدسة التي يباشرها . وكان الاصرار على تأثير عدم هذه الصلاحية يعتبر هرطقة لا شك فيها : وكان مبنى كنيسة القرية ، ومستلزمات العبادة فيها (٢) وكافة الأشياء التي وجدت أو أقيمت من أجل الكنيسة ، يجري تقديسها في حفل مهيب عظيم . وكان رجال الدين كهيئة ، حتى في أضعف مستوى لهم ، أرقى خلقا وعلما من غيرهم ؛ كما كانت

(١) شغل انوسنت الثالث الكرسي البابوي في الفترة من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ .

(٢) كالآنية المقدسة ، وصينية المناولة ، والأرغن والأجراس .

أشخاصهم موضع احترام يفوق ما يلقاه عامـــة شعوب أبرشياتهم : وكانت الرعاية الروحية التى يحوطونهم بها ، ولو أنها أبعد ما تكون عن الكمال ، شأنها فى ذلك شأن تلك الرعاية المادية التى كان كبير الملاك يحوط بها أصاغرهم — كانت هذه الرعاية على أية حال حقيقة ماثلة .

وفضلا عن الخدمات الكنسية والأسرار المقدسة ، كان ثمة تلاوة العزائم لصرف الأرواح الشريرة وأعمال السحر . وكانت أجراس الــكنيسة تدق للحيلولة دون اقتراب العواصف التي كانت الساحرات تثيرها . وكان الكاهن أحيانا ينزل اللعنة رسميا برش الماء المقدس على آفات الديدان أو الجـــراد .

رسم رقم ٤



ساحرتان تعملان على إثارة عاصفة ثلجية

كما كان القرويون يشعرون ، وهم بين جدران الــكنيسة الأربعة ، بأنهم فى بيتهم . وكانت الصعوبة تكمن غالبا فى محاولة الحيلولة دون قيام الألفـــة

الزائدة عن الحد فيما بينهم . لذلك تعين على المجالس الكنسية تحريم الحفلات المسرحية والحفلات الراقصة ، بما فى ذلك تناول المشروبات الخفيفة كالجعة سواء فى داخل الكنيسة أو ملحقاتها . كذلك تعين على المجـــالس المذكورة تحريم إقامة الأسواق فى فناء الكنيسة . وهنا أيضا ، كان رجال الدين أنفسهم يقدمون المثل على ذلك الامتياز الذى كانوا يتمتعون به ، فى تكديس الحبوب أو صنع الجعة فى ممر الكنيسة (١) . وهاك على سبيل المثال التقرير الذى وضعه عن كنيسة العذراء بالقرب من تراقية ، الموظف الذى ندب للتفتيش على أرزاق نائب الأسقف والرهبان فى سنة ١٣٠١ ، وقد جاء فيه :

« يقول أهالى الأبرشية إن الكاهن يضع ماشيته بكافة أنواعها فى فنـــاء الكنيسة الذى يداس بالأقدام ويلوث بأشنع صورة ويستولى الكاهن المذكور لنفسه على الأشجار التى تقع فى فناء الكنيسة ، ويستعملها أيضا لمبانيه الخاصة ؛ كما يحضر شعيره لصنع جعته ، أو لتقطيره ، أو لاستعمال خـــلاصته كمادة غذائية ، وذلك داخل الكنيسة نفسها . وفضلا عما تقـــدم ، فهو يختزن فيها حبوبه وغيرها من مختلف الأشياء ، مما شجع الخدم على فتـــح الأبواب فى ذهابهم وإيابهم . فإذا ما هبت العاصفة ، نفذت الرياح إلى الداخل ، وراحت تعرى الكنيسة ، إذ تقذف حولها بالقراميد ، وتطيح بسقفها وما عليه من قش وجريد . » (٢) .

---

(١) ممر الكنيسة هو الممشى الممتد من مدخل الكنيسة حتى الكورس بين صفي الأعمدة على الجانبين .

(٢) Bp Stapeldon's Register, ed. Hingeston—Randolph, 337 (كولتون) .

وكانت الكنيسة والمقبرة الملحقة بها ، بلا شك ، أفضل الأمكنة زخرفة فى الأبرشية . فكانتا هداية للحي، ورحمة للمتوفى . وإذا كان المجتمع قد كافح فى سبيل التخلص من بربريته السابقة ، فاستطاع أن يسترد جانبا من حضارته القديمة ، وأن يشق طريقه نحو أهدافه التقدمية ، بل وأن يحقق فى بعض النواحى مستوى يفوق مستوى الأغريق والرومان القدماء — فانما يرجع الفضل الاكبر فى ذلك إلى الكنيسة . ولكن خدمات الكنيسة الروحية التى لا تنكر ، لا يصح تأكيدها ما لم نأخذ فى الحسبان الحقيقة المقابلة التى لا سبيل إلى إنكارها أيضا ، وهى أن الكنيسة ، فى غيرتها على تفردها دون سواها بأداء الخدمات الروحية ، لم تعان من أية منافسة فى هذه الناحية : فعلينا إذن أن نقبل رجال الدين على ما كانوا عليه وقتذاك ، أو أن نترك من فورنا هذا العالم . ولقد كان من الميسور قطعاً أن يكون رجال الدين فى وضعهم هذا أفضل مما كانوا عليه لو أنهم كانوا أقل تمسكا بسياسة الاحتكار . ولم يكن دانتى هو المفكر الوحيد فى القرون الوسطى ، الذى أحس بأن الكنيسة كانت لتقوى أكثر مما كانت عليه لو أن قسطنطين قلدها سلطة دنيوية أقل مما تمتعت به .(١)

---

(١) يعني المؤلف الهبة التي تعرف باسم « هبة قسطنطين » : وتتلخص فى أن بعض المتحمسين للبابوية ذكروا أن الامبراطور قسطنطين الكبير قد ابتلى بمرض عضال لم يشف منه إلا بصلوات البابا سيلفستر الأول : فكافأه الامبراطور على نعمته بإصدار قانون يبيح للبابا لبس التاج واستعمال الصولجان كالأباطرة تماما . كما منح الأساقفة وكبار رجال الدين فى روما نفس الامتيازات التى كان يتمتع بها شيوخ الإمبراطورية القديمة : ＝

لقد كانت الكنيسة موجودة فى كل مكان ، وممثلة فى خدامها العديدين . ويلى رجال الدين فى الطبقات العليا أو الدرجات المقدسة ، القساوسة فالشمامسة فمعاونوهم مع من يعلوهم من كبار الأحبار أو المطارنة أو الأساقفة : وهؤلاء جميعا محظور عليهم الزواج قانونا . ويلى هؤلاء طائفة كبيرة من الكتبة فى الطبقات الصغرى ، ولم تكن هذه الطائفة محرومة من الزواج . وكان أفرادها يعيشون من دخل وظائفهم الصغيرة كالترتيل فى الخدمات

= وحتى لا تتأثر سلطة البابا بوجود شخص الامبراطور فى روما ، فقد تركها قسطنطين للبابوات وشيد لنفسه عاصمة جديدة فى الشرق هى القسطنطينية . ثم عهد للبابوات بحكم روما وايطاليا كلها انظر عن ذلك:
LaMonte. The World of the Middle Ages, 177, 254. 740, 744; Cantor, The Medieval World, 125 sqq .

وقد تعرض لهذا الوضع الذى آلت اليه كنيسة العصور الوسطى كثير من الكتاب والمفكرين المتحررين من اهل الغرب من رجال الدنيا والدين على السواء، من امثال الامبراطور الالمانى فردريك الثانى والشاعر الفرنسى وليم رتبف والكاهن الانجليزى متى الباريزى . ويتحدث الاخير فى كتابه « تاريخ انجلترا » فى سخرية وتهكم عن الجهاز الكنسى البابوى الذى دب فيه الفساد ، إذ يقول ان البابوات ورجال الدين قد اقتفوا خطى الامبراطور قسطنطين بدلا من أن ينهجوا نهج القديس بطرس ، الأمر الذى تسبب فى احداث الكثير من القلق والاضطراب فى العالم المسيحى الغربى . أنظر :
Matthew Paris, English History, II, 391,400 sqq., 498; F. Heer, The Medieval World, 110 . راجع أيضا هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى - ص٤٣ ، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى -ص٧٩-٨٢٠ انظر ايضا الفصل التاسع من هذه الترجمة .

الدينية الصغرى ، أو العمل ككتبة أبرشيات ، أو مسك الدفاتر الحسابية . ومن بين هؤلاء الكتبة الصغار يتعين علينا البحث عن أغلبية الرجال الذين دونوا الحجج الإقطاعية التي شهد ثورولد روجرز Thorold Rogers لوكلاء أصحاب الاقطاعيات بصحتها . لقد جنى كثير من هؤلاء الرجال أرباحا طيبة عن طريق التجارة ، على الرغم من المنشورات الكنسية المتعددة الخاصة بتحريم هذا النوع من الكسب . فكان بعضهم يبيع المشروبات الروحية ، وأثرى البعض الآخر من ممارسة الربا الذى كان يعتبر خطيئة مميتة حتى بالنسبة للمدنيين . ولا نحسب أن باستطاعتنا حصر عدد رجال الدين بكافة درجاتهم بأقل من ١/٥٠ من جملة الأشخاص البالغين فى الشعب ، ويقدر البعض عددهم بأكثر من ذلك . فهم يشملون فعلا كافة الطبقات الحديثة التي تختص مباشرة بشئون الدين والآداب والتعليم . ويتفقون تقريبا مع رجالنا الدينيين الحديثين ومعلمي مدارسنا ، كما يتفقون مع الأغلبية العظمى من العلماء والمؤلفين والصحفيين . ومن ثم ، فان المرء ليراهم فى كل مكان وهم فى طريقهم الى العمل . ولقد كانوا موجودين فى كل مكان أيضا بوصفهم ملاكا للأراضي . ولنا عودة الى هذا الموضوع فى الفصل التالى ، لأننا لم نذكر بعد كل ما تحتمه الضرورة لفهم نفوذ الكنيسة فى مجتمع القرون الوسطى .

بعض المراجع للفصل الثالث

Cutts, E. L., Parish Priests and their People in the Middle Ages in England. London, 1891.

Dobiache-Rojdestvensky, O., La vie paroissiale en France au XIIIe siècle d'après les actes épiscopaux. Paris, 1911.

Gasquet, F. A., Parish Life in Mediaeval England. London, and New York, 1907.

Jessopp, A., Before the Great Pillage. London, 1901.

Lea, H. C., Studies in Church History. Philadelphia, 1883.

Lyle, E. K., The Office of an English Bishop in the First Half of the Fourteenth Century. Philadelphia, 1903.

Pöschl, A., Bischofsgut und Mensa episcopalis. 2 vols. Bonn, 1908-09.

Prévost, G. A., L'église et les campagnes au moyen âge. Paris, 1892.

Thompson, A. H.,

1- The Historical Growth of the English Parish Church. Cambridge, 1911

2- Parish History and Records. London, 1919.

الفصل الرابع

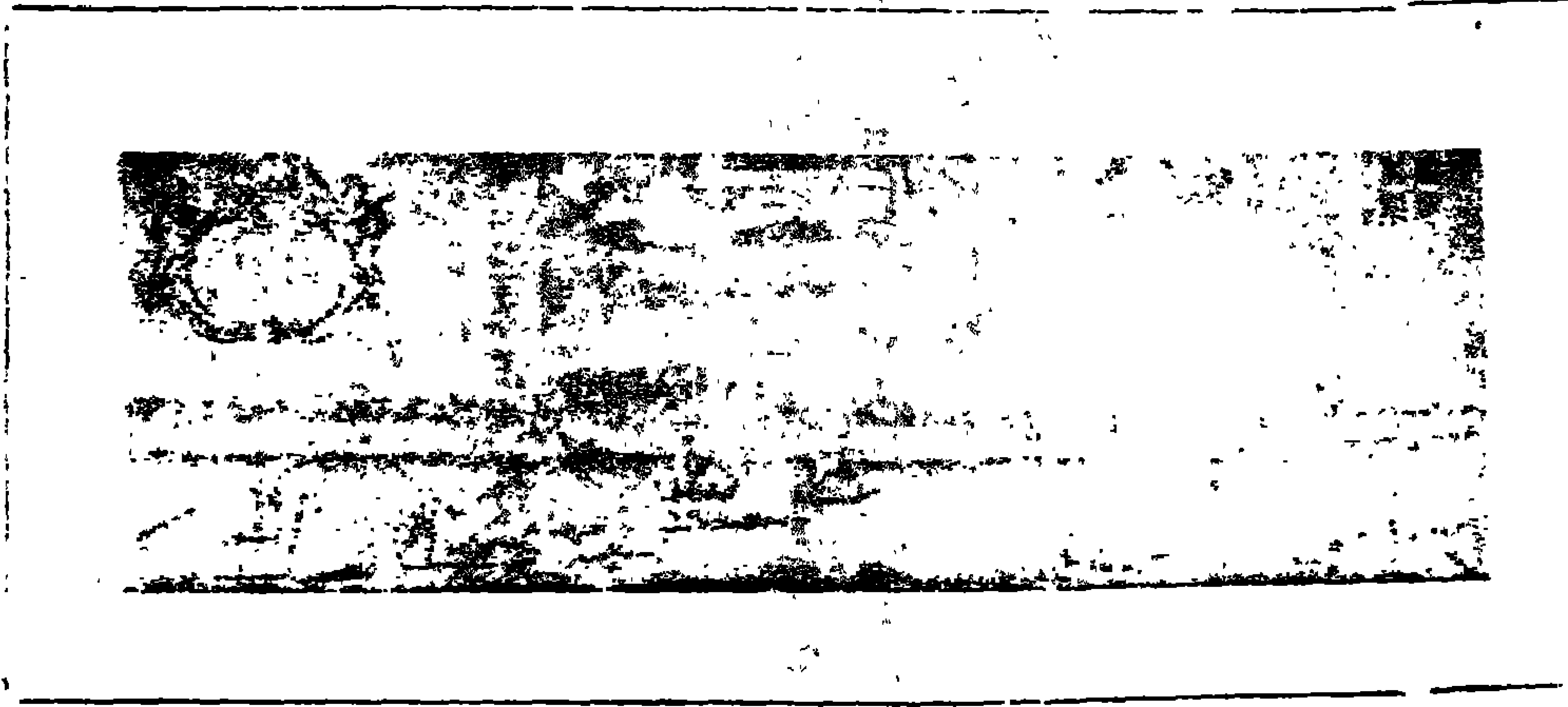
المدن والحقول

لا تكاد مدينة العصور الوسطى (١) تختلف عن القرية . ومن ثم فليس هناك أي داع لمعالجة كل منهما على حدة . بينما نحن نتناول موضوع النفوذ الكنسي البالغ الأهمية . لقد كان كل من المدني والقروي ، يعرف عن رجل الدين أنه

---

(١) يقول بيرين فى كتابه « مدن العصور الوسطى » انه مما يثير الاهتمام هو ما اذا كانت المدن قد وجدت أم لا فى قلب تلك الحضارة التي كانت زراعية فى جوهرها ، والتى تطور اليها الغرب الاوروبى خلال القرن التاسع. ويتوقف الجواب على ذلك بالمقصود بكلمة «مدينة ». فاذا كانت تعني موضعا أو مكانا يكرس أهله أنفسهم للنشاط التجاري ، بدلا من العيش على زراعة الأرض ، فإن الجواب يكون حينئذ بالنفي . وسيكون الجواب بالنفي أيضا اذا فهمنا ان لفظة « مدينة » تعني جماعة من الناس تتمتع بكيان قانوني ولها أنظمتها الخاصة بها . ثم اننا اذا تصورنا المدينة باعتبارها مركزا اداريا أو قلعة ، فمن الواضح ان العصر الكارولنجي قد عرف الكثير من المدن من هذا القبيل ، مثلما عرفت القرون التي أعقبت ذلك العصر . وبكلمة اخرى ، فقد كان يشترط فى المدن التي وجدت وقتذاك خاصيتان نعتبرهما فى الواقع من أهم مميزاتها ، ليس فى العصر الوسيط فقط وانما فى العصر الحديث أيضا . ونعني بهما سكان ينتمون الى الطبقة المتوسطة ، وتنظيم خاص بالكميونات أو القومونات انظر H. Pirenne, Med. Cities, 39 .

لوحة رقم ٣



حقول كامبريدج

نقلا عن إحدى نقوش لوجان Loggan سنة ١٦٨٨

من كبار ملاك الأرض : وقد قدرت ثروة الرهبان وحدهم تقديرا جديا ، فى بعض الأحيان ، بثلث ثروة الدولة . وليس بوسعنا أن نعبر عن هذه الثروة بالأرقام ، ولكن من المحقق أنها كانت ثروة هائلة ؛ وكان لهذا الوضع ، بطبيعة الحال ، أثره الكبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية : فقد كان الرهبان والأساقفة وغيرهم من رجال الدين يقتنون الأقنان اقتناءهم للأرض سواء بسواء وكما كان يفعل ملاك الأرض العلمانيين ، كانوا هم أيضا يتصرفون فى العبيد بالبيع والشراء ، أو يتبادلونهم ، أو يقتسمونهم فيما بينهم . وكانوا يقتسمون كذلك نسل من شاء حظه العاثر أن يصبح تابعا لأحد السادة اللوردات ، بينما غدت زوجته هى الأخرى أمة لسيد آخر . وليس لنا أن ننحى باللائمة على رجال الدين لقبولهم الاحوال الاقتصادية التى كانت قائمة فى زمنهم ، وبخاصة إذا عرفنا أن الفلسفة المسيحية الصحيحة وقتذاك كانت تبرر صراحة تلك الأحوال .

ولقد كان القديس توما الأكوينى ، وهو خير ممثل لتلك الفلسفة ، يشبه جميع إخوانه فى تبعيته الوثيقة لفلسفة أرسطو ، تلك التبعية التى تكاد أن تكون منه مكان العبودية ، فى معظم الشئون السياسية والاجتماعية . فهو يتفق مع أرسطو فى أن ما تحتاج اليه الدولة المثالية إنما هو جماعة من الفلاحين ذوى الأذرع القوية والفهم البليد ، على أن يكونوا منقسمين على أنفسهم بدافع من فقدان الثقة فيما بينهم . وفيما يختص بالعبودية والقنية ، نراه يدافع عنها ليس لأنهما جهاز اقتصادى سليم فحسب ، بل لأنهما يستحقان الدفاع عنهما معنويا كذلك . لقد كان ويكليف (١) Wyclif المهرطق ، فيما نعلم ، المعلم

---

(١) ولد يوحنا ويكليف فى يوركشير سنة ١٣٢٤ ، وتلقى تعليمه فى اكسفورد ، ثم أصبح أستاذا بها وهو من كبار العلماء والوعاظ المشتغلين .

الوحيد الذى رفض تبرير العبودية نظريا ولكنه لم يبد ، مع ذلك ، أية محاولة فعلية لمقاومتها . ومن ثم ، فاننا حينما نواجه الحقائق كما كانت عليها ، نجد أن ثروة الكنيسة الفاحشة لم يكن ينتظر منها أن تعوض ما منيت بها شعبيتها من تدهور حيال الأجير ويبدو أن مـلاك الأرض من الرهبان

= بعلم اللاهوت . ويمتاز بمتانة خلقه ، وعزيمته القوية ، وسيطرته المطلقة فى فن الجدل ضد معارضيه . وإليه يرجع الفضل في قيام الحركة اللولاردية الانجليزية ، ونشوب ثورة الفلاحين فى انجلترا سنة ١٣٨١ ، الأمر الذى أدى إلى غضب الملكية عليه وطرده من جامعة اكسفورد سنة ١٣٨٢ . فعاد إلى بلدته إلى ان توفى سنة ١٣٨٤ عن ٦٠ عاما . وكانت خطبه ومقالاته وعظاته تتميز بالسخط على الكنيسة وأوضاعها بسبب التدهور الذي وصلت اليه . ومن أهم الآراء التي نادى بها ، أن تكون العظات الدينية والكتب المقدسة بالانجليزية لا باللاتينية ، وان تكون العظات مستمدة من الكتب المقدسة نفسها فحسب . كما اشتد فى نقد الديرية ، مطالبا بعودة الرهبان الى حياة الفقر . وعارض فى كتابه « حقوق الملكية » النظرية العالمية التي قامت عليها كنيسة العصور الوسطى وفى كتابه « أصول السلطات المدنية » ، نراه يهاجم رجال الدين هجوما عنيفا . وتطور فى آرائه وتعاليمه بعد موقف الكنيسة العدائى منه ، فانكر شرعية الاعتراف ، كما انكر معجزة التحول المادي فى العشاء الربانى ، وكذلك وساطة رجل الدين بين الله والنـاس . وكانت هذه الآراء بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر متطرفة للغاية ، واعتبرتها البابوية والكنيسة الانجليزية هرطقة . وبعد موت ويكليف سنة ١٣٨٤ ، انتشرت حركته فى انجلترا ، ولاقى أتباعه اللولارديون الكثير من الاضطهاد من قبل السلطات الحاكمة وخاصة أيام كل من هنرى الخامس وهنرى السابع . ولكن هذه الحركة تلاشت فى القرن الخامس عشر بعد أن فقدت =

والأساقفة كانوا ، إلى حد ما ، أخف وطأة من كبار الملاك العلمانيين(١) .
ولكن لم يكن من بين ملاك الأرض كهنة أبرشيات ، عندما سقط آدم
وراحت حواء تذرع الأرض جيئة وإيابا .

رسم رقم ٥



الملك هنرى الاول يحلم

(من حوليه جون أوف وركستر)

= تعاليمها ، واقتصرت على جماعة من الأميين دون الطبقة المثقفة . أنظر فشر . أوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٩ ، راجع أيضا:

McKisack, Fourteenth Century, 510 — 22 ; Myers, England in the Middle Ages, 66 — 72.

(١) يرجع ذلك لسبب بسيط وهو أن الكنائس كانت اكثر ضبطا لدفاترها وسجلاتها من السادة العلمانيين ، مما سهل تدبير شئون العبيد . ومع ذلك فيجب =

لوحة رقم ٤ (أ)



منظر شارع فى القرن الخامس عشر

لوحة رقم ٤ (ب)



المساكن الخشبية فى باريس

والواقع أنه كان من الممكن أن يذهب جانب من عشور الأبرشية إلى فقراء الأبرشية نفسها، وأكثر منه بقليل الى المتسولين القابعين عند بوابة ذلك الدير النائي الذي كان يستولى على ثلثي ما كان يدفعه القرويون. وكانت أمثال هذه الصدقات غير ثابتة وضئيلة، حتى أنها لم تكن كافية لإرضاء العدالة بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى:

وفضلا عن ذلك، فقد كان نظام الواجبات الكنسية في حد ذاته سببا لإحداث قدر كبير من الاحتكاك. وفيما عدا العشور، كانت كل هذه الهبات في الأصل اختيارية، ثم تحولت بحكم العادة وحدها الى هبات إجبارية. كذلك كانت العشور تشكل ضريبة ثقيلة للغاية، لقد كانت عمليا، عبارة عن ضريبة دخل تسدد بواقع شلنين عن كل جنيه، وكانت تمتد الى الطبقات الدنيا حتى تصل الى خادم المنازل، طالما كانت هذه الضريبة جديرة بقيام المحصل لجبايتها. وكانت تحسب على جملة الإيراد، دون أي إذن مقابل ما كانوا يتكبدونه من النفقات المتصلة بالعمل. وأمامنا مثل طريف لذلك الصدام، وقع في أبرشية أكسيتر Exeter Dioces في سنة ١٢٨٧. ذلك أن كاهن الأبرشية طلب حصته العشرية من اللبن في شكل من الجبن المناسب ولكن بعض المزارعين امتنعوا عن إعطائه له إلا في شكله الخام وجاءوا به إلى الكنيسة، ولو لم يكن القس هناك ليتسلمه لكانوا — على حد شكوى الأسقف العلنية — قد صبوا اللبن على الأرض أمام الهيكل، منتهكين بذلك حرمة

= أن نعرف جيدا أنهم كانوا عبيدا سواء أكان أسيادهم من رجال الدنيا أو الدين، إذ كانوا يؤدون لهم نفس الواجبات والالتزامات. انظر كوبلاند وفينوجرادوف: الاقطاع والعصور الوسطى في غرب اوربا، ص ٢٨-٣٩.

الجلالة الإلهية والكنيسة المقدسة ويتضح من ثنايا اكداس سجلات القرون الوسطى كيف كان بعض الاشخاص يعودون ، مرارا وتكرارا ، الى مثل تلك المشاحنات المتعلقة بالعشور .

وأخيرا كان ثمة ما يعرف بالغرامة « heriot » المفروضة فى شكل بهائم حية أو مواش مذبوحة ، أو أموال تؤول الى السيد صاحب الأرض عند وفاة المستأجر . كما كان هناك ما يعرف بضريبة الوفاة « mortuary » التى كانت فيما يبدو أشنع الالتزامات قاطبة . ذلك أنه عندما يموت أحد الفلاحين — أى فى نفس اللحظة التى تكون فيها أسرته قد غدت فى أشد الحاجة والعوز — كان للسيد اللورد أن يستولى من عبيده على أجود ما تركه من حيوان باعتباره ملكا غير موروث . وفى حالات كثيرة كان الكاهن يستولى على ما يليه جودة ، على شريطة ألا يقل ما تملكه الأسرة فى الجملة عن ثلاث بهائم . ولذلك كان يحدث فى الحالات الكثيرة التى يكون فيها الدير هو صاحب الإقطاعية وراعى الأبرشية فى نفس الوقت ، أن الأسرة التى كانت تملك ثلاث أبقار فقط ، يتعين عليها أن تتنازل عن بقرتين منهما عند وفاة عاهلها . وفى المدن ، كان أجمل رداء يؤخذ على أنه ضريبة وفاة ، وكذلك القزان النحاسى والسرير الذى مات الرجل عليه .

ويبدو أن بعض المدن قد حافظت إلى حد ما ، على كيانها المدنى حتى فى أسوأ غزوات البرابرة . حقا إن الشواهد القليلة فى بريطانيا الدالة على استمرار بقاء أية مدينة فيها ، تكاد لا تذكر ولكن هذه الشواهد أكثر من ذلك

فى ايطاليا وأسبانيا وفرنسا وبخاصة فى الجنوب . (١) ويبدو أن بعض تلك الأقطار قد حافظ على جميع أسـواره ، بالرغم بما أصابها من تهدم وتخريب . وكان الكثير من تقاليد النظم البلدية القديمة لا يزال قائما فيما وراء تلك الأسوار ، مما يكشف بجلاء عن الفارق بين السكان الذين يعيشون داخلها وبين القرويين فى خارجها . وعلى الرغم من ذلك ، فانه يجب علينا أن ننظر الى الحياة فى مدينة القرون الوسطى ، على أنها غرس جديد ناهض

(١) لقد فقدت المدن الرومانية أهميتها ومكانتها نتيجـة للظروف التى أحاطت بالمجتمع الغربى فى فترة الانتقال من القديم الى الوسيط . وأصبحت هذه المدن مجرد مراكز دينية بعد أن انعدم نشاطها المرتبط بالتجارة والصناعة . ولم تعد الدولة الكارولنجية نفسها ، وهى التى قامت على أساس ريفى بحت ، تهتم بمصير تلك المدن . ومن الأمور الواضحة أن قصور الأباطرة الكارولنجيين لم تشيد داخل المدن ، ولكنها كانت ، بدون استثناء ، مقامة فى الريف ، أى فى قلب أطيان الأسرة الحاكمة . اذ أقيمت فى هريستال ، وفى جوبيل ، وفى ميرزن بوادى نهر الميوز ، وفى انجلهايم على نهر الراين ، وفى اتيجنى على السين ، وهكذا : وأما عن الشهرة التى تمتعت بها مدينة اكس لا شابل (آخن) فى عهد شارلمان ، فلا ترجع الى موقعها وانما الى حظها باعتبارها المقر المفضل للامبراطور . وقد راحت بعد حكم لويس التقى فى عالم النسيان ، ولم تصبح مدينة بالمعنى المفهوم الا بعد أربعة قرون من ذلك التاريخ . كذلك كانت قصور حكام الولايات مقامة عادة فى الريف مثل قصور الأباطرة تماما : ويقول بيرين إن هذا ينطبق بصفة خاصة على شمال اوروبا . أما فى ايطاليا وجنوب فرنسا حيث لم يكن نظام المجالس البلدية الرومانية قد زال تماما ، كان الوضع خلاف ذلك . إذ أقام الكونتات والأمراء فى المدن جريا على العادة المألوفة . أنظر Pirenne, Medieval Cities, 43-44, 44 n 3

أكثر منها امتداداً للحضارة الرومانية : فقد كانت ، في الواقع ، تعبر عن نمو جديد تمام الجدة في معظم المانيا واسكنديناڤيا والأراضي الواطئة وبريطانيا وشمالي فرنسا . وكانت المدينة في كافة هذه المناطق أقرب ما تكون دائما الى قرية نامية . وكانت ، عادة ، تستمد كل رخائها من موقعها الممتاز ، فهي تقع الى جانب جسر مثل كامبريدج ، أو جدول ماء مثل اكسفورد وبدفورد ، أو مصب نهر كبير كمدينة كينجزلين ، أو عند بوابة إحدى القلاع كقلعة رايزنج Castle Rising . وكان الفلاحون في مثل هذه الجهات السعيدة الحظ ينعمون بأكثر مما ينعم به القرويون المجاورون لهم. وبمرور الزمن ، استطاعوا أن يشتروا من سيدهم اللورد الامتيازات والحريات . فقد كان لهم ، بطبيعة الحال، سيد شأنهم في ذلك شأن القرويين في انجلترا . وقد يكون هذا السيد ملكا أو بارونا أو أحد النبلاء أو أسقفا أو رئيس دير ، ولكنه كان في ذات الوقت سيدهم صاحب الأرض . ومن المحقق أنه كان ، الى حد ما ، ولي امرهم . وعندئذ أصبح في مكنة القرويين أن تتوفر لديهم الوسائل اللازمة لشراء الامتيازات . وكان السيد العاقل يقبل من جانبه على بيعهم هذه الحريات ، طالما وجد أنه يستحسن أن يكون لديه في أراضيه مجموعة من الفلاحين الميسورين بدلا من حفنة من الفلاحين الجياع . أما إذا لم تكن لديه الحكمة الكافية ، فقد يضطر الى بيعهم حرياتهم أيضا بسبب ما يكون قد تراكم عليه من الديون ، وما تولاه من الذهول والدهشة ، وهو يجوب فاغراً فاه في استجداء أي مبلغ حاضر . وهكذا استطاع الفلاحون تدريجيا أن يشتروا قدا بعض الحريات والامتيازات . ولذلك كانت اتحادات البلديات عند نهاية العصر الوسيط وبعده بفترة ما اتحادات زراعية إلى حد كبير .

لقد كانت المدينة عبارة عن قرية نامية . وكتب ف . و ميتلاند

يقول F. W. Maitland : « فى القرن الثانى عشر ، عندما تغنى وليم فيتز ستيفن William Fitz Stephen بمفاتن لندن ، لم يذكر أنه فى مكان ما بالقرب منها تمتد حقول صالحة للزراعة ، وإنما قال إن حقول مدينة لندن خصيبة ».

وفى كامبريدج عندما كانت المدينة كلها فى سنة ١٢٧٩ تضم ٥٣٤ مسكنا فحسب ، كان ١٠٨ من مواطنيها يملكون أراضى زراعية . وكان لأحدهم ٨٥ فدانا ، ولآخر ٤٤ فدانا : هذا خلاف عشرة أفدنة لكل من واحد وعشرين مواطنا . وكان يوجد داخل المدينة نفسها ١٢ مخزنا لحفظ الحبوب. وكانت هذه الأوضاع . شأنها شأن غيرها من الأوضاع السائدة فى العصور الوسطى ، لا تزال باقية فى القارة الاوروبية أكثر من تواجدها فى انجلترا . فمدينة هايدلبرج Heidelberg ، مثلا ، كانت تتألف من شارعين كبيرين يسيران متوازيين بين منحدر التل والنهر ، وهما الشارع الرئيسى ، شارع بليك Plöck . وكان لا يزال يوجد فى وسط هذا الشارع الأخير حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريبا ، أو بعد ذلك التاريخ ، بيت فسيح ملحق بمزرعة مع كافة مشتملاتها من ممتلكات زراعية ومواشى . فضلا عن الخيل والثيران الموجودة فى الحظائر ، وكومة سماد هائلة الحجم فى وسط الفناء .

وكانت معظم البيوت فى مدن العصور الوسطى ، كما هو الحال فى القرى ، من الخشب ، اللهم إلا فى المقاطعات التى كان فيها الحجر الجيد متوفرا بكثرة بينما الخشب نادر الوجود : وبوسعنا أن نستدل على حالات من هذا القبيل حيث كان يطلق على أحد هذه البيوت مثلا اسم « البيت الحجرى » . ولذلك كانت الحاجة ، بصفة عامة ، أشد مساسا إلى النجار منها إلى البناء فى تشييد كافة المبانى ، ما عدا الكنائس والحصون .

وتدين كامبريدج بوجودها كبلدية معترف بها إلى مرسوم أصدره هنرى الأول فى مستهل القرن الثانى عشر . وقد نص الملك فى ذلك المرسوم باعتباره حاكما على كامبريدج وأكسفورد - على أن كامبريدج كأكسفورد ، مدينة ملكية ذات بلدية ، نمت وترعرعت فوق أراضى الملك الخاصة ؛ وأنه يمنح فلاحيه حق احتكار النقل النهرى فى المقاطعة : وقد جاء فى المرسوم المذكور أنه لا يجوز لأى إنسان فى كافة أنحاء المقاطعة ، فيما عدا رصيف كامبريدج الملكى ، أن يقوم بعمليات شحن السفن أو تفريغها . ولسنا نعرف ما كان يدفعه أصحاب الشأن مقابل هذا الاحتكار الخاص . وإنما نجد قرية واحدة ميسورة الحال تشترى حريتها من أسقف باريس نظير مبلغ يعادل فى وقتنا هذا من حيث قوته الشرائية نحو ١٢,٠٠٠ جنيه ، ولو أن هذه بذاتها حالة فريدة شاذة : وفيما يتعلق بكامبريدج ، يجب أن نلاحظ أن الملك باع للقرويين ما لم يكلفه شيئا . إذا ظفرت كامبريدج بهذا الاحتكار التجارى على حساب باقى المقاطعة : هذا من جهة ، وقد حدث من جهة أخرى أن ظفر المواطنون فى نفس الوقت تقريبا فى لايكستر Leicester بإحدى حرياتهم الرئيسية ، مما يجدر بنا أن نسميه فى أيامنا هذه « فرصة طارئة » : وكانت هذه الفرصة هى التى دفعتهم إلى شراء حق الفصل فى قضاياهم عن طريق المحاكمة فى حضور المحلفين ، بدلا من الفصل فيها بالطرق البربرية القديمة (١) : وهى نفس الفرصة التى دفعت سيدهم الايرل على أن يبيعهم هذا

---

(١) وهى أساليب تيوتونية قديمة تقضى بالفصل فيما إذا كان الشخص المتهم بريئا أو مجرما ، بتعريض كل من أطراف الخصوم لتجارب جثمانية قاسية ، بأن يضع كل منهم يده فى ماء شديد الغليان ، فمن كان من أطراف الخصوم أقدر على احتمال غليانه ، اعتبر احتماله هذا دليلا إلهيا على براءته ، وهكذا . ويبدو أن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخذت بهذه الوسائل =

الحق ، ويشير الأستاذ [illegible] إلى تقرير لإحدى اللجان الخاصة صدر سنة ١٢٥٢ ، جاء فيه ما يلي :

« قال المحلفون بعد أن أقسموا اليمين ، إنه في أيام الإيرل روبرت (حوالى سنة ١١٢٠) رفع نيقولا بن آكو Nicholas son of Acu وجوفروا ابن نيقولا Geoffrey son of Nicholas ، وهما ابنا عم ، دعوى القتال عن أرض يدعيها كل منهما لنفسه . واستمر القتال بينهما منذ مشرق الشمس إلى ما بعد الظهر وفيما هما يتقاتلان على هذا النحو ، جر أحدهما الآخر إلى حافة خندق صغير . وبينما هذا الأخير واقف على شفا الخندق معرضا للسقوط فيه . ناداه ابن عمه قائلا : « احترس من الخندق الذي وراءك وإلا وقعت فيه . » وفي [illegible] هذه اللحظة ، انطلق صياح وضجيج شديدان من جمهرة الناس الذين كانوا جالسين أو واقفين حول مكان الحادث . وبلغ ضجيجهم أسماع السيد الإيرل حتى نفذ إلى داخل قاعته ، فتساءل عن مصادر ذلك الضجيج . وأجابه بعضهم بأن ابني عم كانا يتقاتلان من أجل قطعة أرض ، فجر أحدهما الآخر إلى الخندق ، ثم حذره عندما

ـــ للتعرف على المذنب من البرىء في حالة عدم إمكان المحاكم المدنية البت في الدعوى ، أو إخفاق المتهم في إثبات براءته . فكان يسمح للمتهم بتناول جرعة من الماء المقدس ، ثم يقذف به في ماء شديد البرودة بعد مناشدة الاله برعايته إن كان بريئا ولفظه إن كان مذنبا . فاذا احتضنه الماء اعتبر بريئا ، وإذا طاف على سطحه اعتبر مذنبا . وغير هذه من الوسائل التي قصد بها تبرئة البرىء وتذنيب المذنب ، مثل وسيلة الماء المغلي والحديد المحمى بالنار .

أنظر : Whitelock, Beginnings of English Society, 142

وقف على حافته بحيث كان معرضا للسقوط فيه . وعنـد ذلك ، هب نواب المدينة لدى البرلمان ، بدافع من الشفقة ، لعقد اتفاق مع السيد الايرل تعهدوا فيه اعطاءه ثلاثة بنسات كل عام عن كل بيت ذى جملون فى الشارع العمومى ، على شريطة أن يخولهم حق الفصل فى قضاياهم أمام هيئة محلفين مكونة من أربعة وعشرين مواطنا : وقد منحهم الايرل هذا الحق فعلا » (١).

وبهذه الوسيلة تمكنت الطوائف المذكورة تدريجيا، من شراء الحق فى دفع قيمة الضرائب على طريقتها الخاصة ، مادامت تدفع سنويا مبلغا إجماليا للسيد اللورد ، وهو ما أطلق عليه لفظ " Firma Burgi " ، ومعناه « ريع المدينة » . ثم عادت فاشترت حق دفع ما يستجد من الالتزامات مباشرة بدلا من دفعها عن طريق « الشريف » Sheriff (٢) . كما اشترت حق عقد محكمتها الخاصة ، طالما أن أحدا لم ينصب على الملك فيما يختص بأى كسب طارىء أحرزه . ذلك أن أهم ما كان يشغل بال المحاكم فى القرون الوسطى ، هو توقيع غرامة على أحد المتقاضين أو على الطرف الآخر ، حتى جرت

---

(١) M. Bateson, Records of the Borough of Leicester, 41 . (كولتون) .

(٢) الشريف هو كبير ضباط التاج المختص فى كل مقاطعة أو محلة مركزية ، والمكلف بالإشراف على الأمن والعدالة وفقا لتوجيهات المحاكم . ومن مهامه أيضا تحرير الأوراق الرسمية ، والهيمنة على الانتخابات .

بذلك حكمة قانونية مستقرة مؤداها « أن العدالة وظيفة مدرة للأرباح »
.“ Magnum emolumentum est justitia ”

وهكذا كانت كل المدن الانجليزية قد حصلت على قدر كبير من الحكم الذاتى ، قبل أن تنتهي العصور الوسطى . وكانت المدن الأوفر عددا والأقوى سلطانا ، بصفة عامة ، هي المدن الداخــلة ضمن الأراضي الملكية . ويرجع ذلك لسببين أولها أن الملوك كانت لديهم مشروعات أضخم من مشروعات نبـــلائهم . ومن ثم كانوا أشد حاجة إلى المال ، لكنهم كانوا أبعد نظراً من النبلاء ، ولذا كانوا أكثر استعدادا لبيع الحريات مقابل مبـــالغ تدفع لهم . وكانت السلطة الملكية ، فى حد ذاتها ضماناً أقوى للمواطنين ، وحماية لهم أوثق من تجاوز « الشريف » لحدود سلطاته واعتدائه على حقوق الغير ، أو من تعسف أى بارون مجاور ، أو من مجرد حماية أى بارون أو أسقف . لذلك كانت المدن الملكية هي أوفر المدن حظا أما أقلها حظا فكانت تلك التى يتولاهــا أسقف أو رئيس دير . ذلك أن هؤلاء كانوا محافظين بحكم الضرورة . ونبدأ بقولنا بأن ممتلكاتهم لم تكن فى الواقع ملكا خاصا لهم ، وإنما كانوا هم حراسا عليها فحسب . ومن ثم كان محظورا عليهم بتاتا ، بحكم القانون ، التصرف فى ممتلكاتهم. ويضاف إلى هذا التحفظ القانونى ، التحفظ الطبيعى لرجل دين كبير ويلاحظ أن هذه الطوائف الكنسية ، وإن كانت فى معظم الأحيـــان تنـــوء تحت عبء الديون ، فقلما تدهورت بالحالة الباعثة على اليأس التى كان عليها البارون أو الملك . ولسوف ندرك لماذا كان موضوع أحد الفصول الأساسية فى تاريخ النظام البـــلدى فى القـــــرون الوسطى ، بوصفه حقيقة واقعة ، هو كفاح أهـالى المدن ضـــد

سادتهم الدينيين . وهؤلاء السادة هم : الأسقف في مدينة لين Lynn ، لأن ما يعرف الآن بأنه مدينة « كينجز لين » كان يعرف وقتذاك بأنه « مدينة الأسقف لين » . وكذلك رئيس الدير في كل من مدينة القديس البان St. Albans ، وبيورى سانت ادموند Bury St. Edmunds ، وبيرتون Burton .

بعض المراجع الفصل الرابع

Besant, W., Mediaeval London. 2 vols London, 1906

Enlart, C., Villes mortes du moyen âge. Paris, 1920

Freeman, E. A. & Hunt, W (eds.). Historic Towns 9 vols. London, 1887—93

Luchaire, A., Les communes françaises à l'époque des Capétiens directs, Ed. by L. Halphen Paris, 1911.

Mumford, L. The City in History, Its Origins, Its Transformations and Its Prospects. 2 vols. New York, 1961.
انظر ترجمته العربية :

ممفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومستقبلها » ـ اشراف ومراجعة وتقديم الدكتور ابراهيم نصحي ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٦٤.

Pirenne, H.

1 - Medieval Cities : Their Origins and the Revival of Trade. Princeton, 1925.

2 - Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948

Tout, T. F., Mediaeval Town-planning. Manchester, 1917.

Vincent, J. M., Municipal Problems in Mediaeval Switzerland. Baltimore, 1905.

الفصل الخامس

الفروسية (١)

كتب تاكيتوس (٢) Tacitus حوالى سنة ١١٠ م يصف الشعوب الجرمانية بأنها تقوم بكافة أعمالها العامة وهي تحت السلاح . فعندما ينعقد مجلس القبيلة

---

(١) فيما يتعلق بالجانب العسكرى البحت للفروسية فى القرون الوسطى ، أنظر الفصول الخامس عشر والثامن عشر والتاسع عشر من كتاب Coulton, Chaucer and his England (كولتون) .

(٢) ولد تاكيتوس سنة ٥٥ م وتوفى سنة ١٢٠ م ، وهو من أشهر مؤرخى الرومان . كان مولده فى انترامن Interamne بأمبرى Ombrie بوسط ايطاليا . وله مؤلفات عديدة ، إذ وضع تاريخا لحياة حميه اجريكولا الوالى الرومانى على بريطانيا من قبل الامبراطور فاسبسيان . وكذلك تاريخا يتضمن أحداث الفترة الواقعة بين عامى ٦٩ و ٩٦ م . وهو صاحب الحوليات التى تبدأ بوفاة أغسطس سنة ١٤ م وتنتهى بوفاة نيرون سنة ٦٨ م . وله أيضا كتاب أمدنا فيه ببيانات هامة عن الجرمان وأصول معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم تحت اسم « de origine, situ, moribus at populis Germaniae » - ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الرئيسية عن العناصر الجرمانية : ويمتاز تاكيتوس بأنه مؤرخ لاذع متشائم ، ولكنه ذو بصيرة ثاقبة وأصالة متناهية فى أسلوبه . راجع نظير حسان سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها ، ص١٦ ج٢ وص٢٨ و٣٣ ، Barrow, The Romans, 119,125, 128; Carcopino, Daily Life in Ancient Rome, 128, 141; Fowler & Charlesworth, Rome, 10, 12, 52, 150 . ويعتبر تاكيتوس ، فضلا عما تقدم ، من أول المؤرخين الذين ظهروا بعد المسيحية : ويؤخذ عنه دلدم فهد ه لله بين الجديد حين رأى سرعة انتشاره بين طبقة العبيد وانفصال معتنقيه عن العادات الرسمية للبلاد . أنظر هرنشو : علم التاريخ ، ص ٣٦ .

أى « محكمة الشعب » ، كان الأعضاء يعربون عن موافقتهم بقرقعة أسلحتهم، وعن عدم موافقتهم بدمدمة مكتومة . وعلى هذا الوجه كان التصويت النهائى يعتبر صادرا بالاجماع طالما أن الأقلية قد امتثلت تدريجيا لرأى الأغلبية (١) . لذلك كان العبد الذى يحمل السلاح لامكان له فى محكمة الشعب . وكذلك كان وضع الصبي الذى لم ينضج بعد لخوض غمار الحرب . فاذا بلغ السن التى تؤهله لذلك ، قلد الاسلحة التى كانت فى انتظاره فى حفل رسمى عام . ويقول تاكيتوس إنه من هذه السن فصاعدا « ينسلخ الصبى عن أسرته التى لم يعد ملكا لها ، بل ملكا للدولة . ويقابل هـذا الاحتفال بتقليد السلاح « arma sumere » عند الجرمان ، الاحتفـال ببلوغ سن الرشـد « toga virilis » عندنا . » وكان الشبان الطموحون يميلون أيضـا الى الالتحاق بمحارب عظيم ، يأكلون على مائدته ويشاركونه فى معاركه . وكانوا يعتبرون أنفسهم ، إذا فروا أحياء من ميدان حرب سقط فيه سيدهم، أنه قد لحق بهم الخزى والعار الى الأبد (٢)

وقد عزز هـذه الأفكار عن الفروسية التشبه بالعرب فى اسبانيا الذين

(١) أخذت المجامع الكنسية أيضا بهذه النظرية عن اجماع الآراء أو الاصوات . ويعتبر مجلس الفاتيكان المنعقد سنة ١٨٧٠ هو الأول من نوعه فى التاريخ ، الذى تقرر فيه رسميا الأخذ برأى الأغلبية فحسب . وفى مجمع نيقية كانت الأقليـة من الأساقفة تعاقب حتى تستسلم لرأى الأغلبية (كولتون) .

(٢) وللمزيد من التفاصيل عن هـذه الأفكار ، أنظر :
Stephenson, op. cit., 22, 107.

اعتنقوا نفس المثل الأعلى . وبقدر ما أمكن معرفته ، كان العرب متفوقين عليهم بلا شك ، وكانت حضارتهم أرقى من حضارة الشعراء المتجولين جنوبى فرنسا : وبدافع من زهو النسب والشجاعة ، وبدافع من موسيقى الحب (١) والحرب ، بل وبدافع من حسن الاحتفاء بالسيدات ـ بدافع من كل هذا وذاك يبدو أن هؤلاء المغاربة قد أعطوا المجتمع الاسبانى أو البروفنسالى أكثر مما أخذوا منها . كذلك احتضنت الكنيسة الفروسية بحكم مطالبتها ببسط حمايتها على كافة وجوه النشاط الانسانى (٢) . وعلى الرغم من أن حفلات

(١) يقول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو سيدنى بينتر ، ان كتاب القس اندراوس Andrew the Chaplain المسمى « الحب » « De amore » يعتبر المصدر الرئيسى الذى يمكن ان نستقى منه معلوماتنا عن الأفكار والآراء المتعلقة بهذه العاطفة باعتبارها مظهرا من مظاهر الفروسية فى العصور الوسطى ، فضلا عن صلتها الوثيقة بها وفى هذا الكتاب يعبر المؤلف فى صراحة ومع شىء من التحفظ عن آرائه فى الحب كعاطفة رقيقة سامية تقود إلى الخير ، وكعلاقة بين شخصين . أنظر عن ذلك كتاب:

Painter, French Chivalry, 119 sqq.

(٢) إن أقدم إشارة واضحة أمكن العثور عليها عن وجود فكرة ارتباط الفروسية بالدين ، والقائلة بأن الفارس كان ملزما بنوع خاص بإطاعة الكنيسة وخدمتها ــ تبدو فى التقارير المعاصرة لخطبة البابا اربان الثانى الشهيرة عام ١٠٩٥ والتى أثار بها فرسان اوروبا للاشتراك فى الحرب الصليبية الأولى . لقد أشارت كثير من تلك التقارير بصورة قاطعة إلى وجود هذه الفكرة المتعلقة بالفروسية . إذ وردت عبارة فى احدها تؤكد ذلك ، وهذه العبارة هى : « ان أولئك الذين كانوا حتى ذلك الحين لصوصا ، بوسعهم أن يصبحوا الآن =

الفروسية العلمانية البحتة استمرت طيلة القرون الوسطى ، فقد كان هناك أيضا طقوس شبه دينية تشمل صلوة ليلة العيد أمام الهيكل ، فضلا عن التطهر الخاص بالاغتسال بالماء المقدس فى الصباح . ومن ثم ابتدعنا ما نطلق عليه « فرسان الحمام » « Knights of the Bath » . وأكثر من ذلك ندرة هو إقامة قداس كنسى بحت باللغة اللاتينية يؤدى الأسقف مراسمه لمباركة الجنود الجدد ، وهو ما يعرف باللاتينية باسم « Benedictis Novi Militis »(١) .

ولقد ظلت الفروسية حتى النهاية نظاما متماسكا . فالمفروض فى الفارس أن يقلد رتبة الفروسية باختياره ، لا بحكم مولده . وكان الأقنان ، فيما سبق ، ينخرطون أحيانا فى سلك الفروسية بشرط إثبات جدارتهم الشخصية المناسبة . ولكن القوانين اللاحقة منعت قبولهم رسميا كفرسان . هذا ، وكان الأمراء بصلة الدم يطالبون بتقلد رتبة الفروسية بحكم مولدهم . وكان هذا أيضا هو الاستثناء النادر الذى بقى ، على الأقل، حتى نهاية العصور الوسطى . لقد كانت طبقة الفرسان ثمرة نظام اجتماعى قديم . كما كانت تتمتع

= فرسانا . » أنظر كتاب « الفروسية الفرنسية » لمؤلفه سيدنى بينتر :

S. Painter, French Chivalry : Chivalric Ideas and Practices in Mediaeval France, 67.

راجع أيضا ديفز (هـ ؛ و .) : اوربا فى العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود - ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(١) أشار فرواسار الى موضوع الاستحمام ، وممارسة الفروسية فى الميدان. (كولتون) :

بامتيازات عظيمة، وتوكل إليها مسئوليات خطيرة (١). فقد كان الفقراء ملزمين باحترام الفارس الذى كان بدوره ملزما بالدفاع عنهم ، بل وعن كل بائس مسكين : ومما يميز الأحوال الاجتماعية البدائية ، حتى فى أيام تشوسر ، أن لانجلاند (٢) Langland يعتبر نشاط الفارس فى مجال الصيد والقنص نشاطا مثاليا ، وذلك ضمن ما عدده من الخيرات التى تعود على المجتمع من مختلف أوجه النشاط . فهو من أجل ذلك ، قتل الوحوش الضارية التى فرت من الغابة لكي تفترس القـرية . على أن لدينا ، من ناحية أخـرى ، الدليل الواضح على إهمال الصيادين أحيانا نتيجة عدوهم فوق المحاصيل وهم ممتطين صهوات خيولهم ، وعلى متاعب المستأجرين من جراء حجز السادة الملاك جانبا من الأرض لتخصيصها للعب (٣) .

---

(١) نجد فى صفحة ٢٨١ وما بعدها من كتاب Coulton, Social Life in Britain ، فقرات لمؤلفين معاصرين لتلك الحقبة من الزمن، تشير إلى جانبي المثل الأعلى المشار إليـه ، مع المقارنة بين الجانبين العملى والنظرى . (كولتون) :

(٢) وليم لانجلاند شاعر انجليزى ولد فى مقاطعة شروب Shropshire حوالى سنة ١٣٣٠ وتوفى حوالى سنة ١٤٠٠ . وقد كتب فى المشاكل الاجتماعية ، وكشف عن عيوب المجتمع الانجليزى فى عصره فى قصيـدة رمزية طويلة بعنوان « رؤيا بطرس الفلاح » The Vision of Piers Plowman ، وهى قصيدة تنم عن روح الشاعر الانجلو سكسونية . ويميل لانجـلاند فى أسلوبه الى التصوف والقوة . أنظر Myers, England in the Late Middle Ages, 83 - 85; Trevelyan, Hist. of England, 128.

(٣) E.g. Bishop of Chichester's rabbits in Medieval Village, 78 (كولتون) :

ويرجع اضمحلال الفروسية فى انجلترا إلى ظهور طبقة سكان المدن ، وإلى حرب المائة عام وحرب الوردتين : وقد حدث فعلا فى القرن الثالث عشر ، أن صدرت قوانين ترغم ملاك الأرض على أن يقبلوا بمحض اختيارهم إما الالتحاق بطبقة الفرسان ، وإما دفع غرامة اعترافا منهم بالواجبات التي تهربوا من القيام بها ، والمال الذى تنصلوا من أدائه ، بسبب بقائهم دون لقب . وفى القرن الرابع عشر آل شرف الفروسية للبارزين من أهالى لندن مثل « والويرث » Walworth . وفى حرب المائة عام كانت الجيوش البريطانية منظمة على أسس من مبادىء الأعمال الحقيقية تفوق بكثير مبادىء منافسيهم ، ومن ثم كانوا يفوقونهم بمراحل من حيث القوة الحربية : ومن بين هؤلاء العصاميين نذكر « سير روبرت نولز » Sir Robert Knolles الذى كان يفاخر بأنه جدير بفدية ملكية(١) ، و « سير جون هوكوود » Sir John Hawkwood الذى تزوج من أميرة إيطالية دفعت له بائنة جسيمة . وقد استنفد كثير من البارونات وأتباعهم خلال القرن التالى جهدهم فى الحروب الأهلية ، حتى فقد النظام الاقطاعى صفته كقوة سياسية جدية ، ولم تكن العصور الوسطى قد انتهت بعد . وهذا ما يمكن أن يقال عن فرنسا ، ولو أن المكاسب هناك كانت تعود إلى الملوك دون أفراد الشعب . وكان النبلاء والفرسان فى ألمانيا وحدها دون الدول العظمى ، يشكلون قوة سياسية هائلة حتى القرن السادس عشر .

وليست هناك مؤلفات يمكن أن تمد القارىء غير المتخصص فى لمحة عابرة بالكثير مما يتعلق بنظام الفروسية فى العصور الوسطى مثل كتابات كل

---

(١) أى أنه كان شخصية لها خطرها واعتبارها .

من جوانفيـــل (١) Joinville فى مذكراتـه (٢) عن القـديس لويس (٣)، وفرواسار Froissart فى حوليته . ويكشف لنا جوانفيل عن تقوى بطله الطبيعية غير المصطنعة ، وبهاء طلعته ، وشجاعته فى القتال ، وثبـاته الملفت للانظار ، والذى لم يزايله عنـد ما كان أسيرا حتي أتلف مرض الدوسنطاريا صحته إلى حد كاد معـــه ألا يقوى على الوقوف على قدميه . وتراه يرفض

(١) ينحدر جوانفيل من إحدى الأسر العريقة بمقاطعة شامبانيا بفرنسا . ولد حوالى ١٢٢٤ ، وتوفى حوالى ١٣١٨ عن ٩٣ سنة : وهـو صاحب كتاب « تاريخ القديس لويس » الذى وضعه بالفرنسية الوسيطة ، ومجـد فيـه سيده الملك الفرنسي ، كما سجل أقواله وأفعاله تخليداً لذكراه . ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الرئيسية التي لاغني عنها فيما يتعلق بحملة لويس التاسع الصليبية على مصر (١٢٤٨ - ١٢٥٠) ، وكذلك نظام الفروسية فى المجتمع الغربي الوسيط : أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣ — ٧ والحواشي ، وكذلك كتابي : Joinville (ed. Wailly) 2, 4, p. 4, n. 1 ; Joinville (Johnes' tr.), 343-7.

(٢) هناك طبعات عديدة لكتاب جوانفيل أهمها بلا شك طبعة "N. de Wailly" المتضمنة النص الأصلى باللغة الفرنسية الوسيطة وترجمته بالفرنسية الحديثة :

Joinville, Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris, 1874.

وهناك أيضا ترجمات انجليزية عديدة لمذكرات جوانفيل نذكر منها :

1) Memoirs of Louis IX, King of France. Tr. into English by Johnes of Hafod. Cf. Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. London, 1848 (pp. 341-556).

2) Saint Louis, King of France. Tr. into English by James Hutton. London, 1868.

3) Joinville & Villehardouin, Chronicles of the Crusades. Trans. by M.R.B. Shaw. London, 1963 [Penguin Books].

وكذلك طبعات Evans ، و John Murray ، و Barker وغيرها.

(٣) تولى لويس التـاسع ملك فرنسا سنة ١٢٢٦ ، وكان عمره آنذاك اثني

نقل رجاله من السفن عند هياج البحر ، خشية أن يتخلى البحارة عن السفن ويتركوا ركابها تحت رحمة الأمواج . ولقد تحدث جوانفيل بصراحة عن

= عشر عاما . وحكم فى فترة قصوره التي امتدت من ١٢٢٦ إلى ١٢٣٦ تحت وصاية أمه الملكة بلانش صاحبة قشتالة . وقد تمكنت فى فترة وصايتها من إخماد الثورات التى قام بها كبار رجال الإقطاع لتحقيق أطماعهم فى البلاد. وواجه لويس بنفسه فى سنة ١٢٤٢ آخر ثورة إقطاعية كبيرة ، وأفلح فى الحاق الهزيمة بالثائرين ؛ بعد ذلك عمل على إخماد صوت الهراطقة المسيحيين بالمملكة ، كما وضع حدا لأطماع رجال الدين ؛ وهكذا كانت الظروف مهيأة له عندما قام بحملته الصليبية الأولى ضد مصر (١٢٤٨ — ١٢٥٠) التى انتهت بهزيمته على ضفاف النيل وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، ثم خروجه مدحورا إلى الشام حيث أمضى أربع سنوات (١٢٥٠ — ١٢٥٤) محاولا مواصلة العدوان دون جدوى . وفى ابريل ١٢٥٤ غادر لويس التاسع الأراضى المقدسة عائدا إلى بلاده ، ووصل عاصمة ملكه فى سبتمبر من نفس العام بعد غيابه عنها زهاء ست سنوات . وفى عام ١٢٧٠ قام بحملة صليبية ثالثة ضد تونس بشمال أفريقية ، ولكنه قضى نحبه فى نفس العام وهو على أبواب قرطاجنة دون أن يتأتى له تحقيق أطماعه فى العالم العربى . أنظر عن ذلك :

Joinville, Hist. de Saint Louis. Paris, 1874; Bordeaux, Vie, mort et survie de Saint Louis. Paris, 1949; Bray, The Good St. Louis and His Times. London, 1870; Knox, The Court of a Saint. London, 1909; Perry, St. Louis. London 1901; Bailly, St. Louis. Paris, 1949; Boulenger, La Vie de St. Louis. Paris, 1929; Walsh, St. Louis et son siècle, Tours, 1876 . أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل — القاهرة ١٩٦٠ ، ولويس التاسع فى الشرق الأوسط — القاهرة ١٩٥٩ .

تسرع الملك فى بعض المناسبات . ولكن ذلك يؤكد ما كان يتحلى به الملك من وعى بالعدالة فلقد اتخذ لنفسه مجلسا للقضاء تحت شجرة بلوط فى حديقته بفنسان Vincennes حيث كان يستمع عن طيب خاطر إلى شكاوى الأغنياء والفقراء ، حتى أنه وقع غرامة جسيمة على سير دى كوسى Sire de Coucy ، وهو من أعظم باروناته ، لشنقه ثلاثة صبية مشردين اتضح له أنهم من بيت كريم المحتد (١) ولم يخطر ببال الملك أن يستغل ما كان يعانيه هنرى الثالث (٢) من المتاعب الداخلية مثلما استغل هنرى متاعبه ،

---

(١) يجب أن نتناول أقوال كولتون عن التطور الدستورى المبكر فى فرنسا أيام لويس التاسع بشىء من الحيطة والحذر . فعلى الرغم من توخى لويس العدالة ،وعقده مجالس من باروناته وكبار رجاله لعرض الموضوعات الشائكة عليهم والاستنارة بآرائهم — فقد كان يهمل آراء مستشاريه إذا ما تعارضت مع رأيه الخاص . وآية ذلك موقفه من مجلس عكا الذى عقد فى الفترة من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠ للتشاور فى امر البقاء فى فلسطين لمواصلة العدوان أو العودة إلى فرنسا . وكان أغلبية أعضاء المجلس يرون ضرورة العودة ، مما لا يتفق مع الرأى الذى استقر عليه لويس وهو البقاء فى الشرق فضرب بآرائهم عرض الحائط ، وأعلن قراره بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، متحديا بذلك قرار الأغلبية . أنظر جوزيف نسيم يوسف " لويس التاسع فى الشرق الأوسط ،ص ٧٧-٨٧ . راجع أيضا مقالتى:

Joseph Nessim, The Crusade of Louis IX on Syria, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, XVII, 1963 (pp. 57 — 69), 58

(٢) تولى هنرى الثالث حكم انجلترا سنة ١٢١٦ وله من العمر تسع سنوات وقد استمرت فترة الوصاية عليه حتى سنة ١٢١٩،وامتد حكمه حتى سنة ١٢٧٢ . انظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ،ج ٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٦ .

D. M Stenton, English Society in the Early Middle Ages (1066—1307), 47 - 48.

حتى أنه عرض عليه شروطا للصلح لم يكن من المحتمل أن يعرضها أى فرنسي آخر . وبينما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، كان يتحدث إلى ولده قائلا له : « لقد كنت أوثر فعلا لو أن اسكتلنديا جاء من اسكتلندا إلى هذه المملكة ليقيم فيها حكما عادلا ، على أن تحكمها أنت وتسىء إليها . » (١)

أما فرواسار (٢) الذى يفوق جوانفيل فى قلمه ، والذى لم يكن لديه بطل عالمي يتخذه مادة لكتابته وهو يدون ملاحظاته كالقديس لويس بالنسبة لجوانفيل — نراه يعطينا صورة كثيفة الظلال على نقيض أضوائها الساطعة .

---

(١) انظر التفاصيل فى كتاب Joinville, op. cit., (ed de Wailly). 6--38, 114, 130.

(٢) تاريخ مولده غير معروف بالضبط ، ولم يذكر حنا فرواسار نفسه فى مؤلفاته التى تركها لنا شيئا عن ذلك . وقد تضاربت الآراء فى هذا الشأن . فمن قائل إنه ولد سنة ١٣٣٣ ؛ وهناك من يرى أنه ولد سنة ١٣٣٧ أو ١٣٣٨ . وكيفما كان الأمر ، فقد كان مولده من أسرة بورجوازية بمدينة فالنسيين ؛ ولا نعرف سوى القليل عن سني حياته الاولى : وكل ما وصلنا أنه تعلم تعليما طيبا . وفى سنة ١٣٦١ ترك مسقط رأسه الى انجلترا حيث أقام هناك فترة من الزمن بجوار الأميرة فيليبين Philippine. وفى سنة ١٣٦٦ أو ١٣٦٧ غادر الجزيرة الى بوردو حيث عاش فى بلاط الأمير الاسود . ولم يطل مقامه بها ، إذ تركها إلى انجلترا ثانية ، ومنها توجه الى ميلانو بايطاليا حيث تزوج من يولاند فيسكونتى Yolande Visconti : وقام خلال إقامته فى إيطاليا بزيارة مدن فيرارا وبولونيا وروما . وقفل بعد ذلك عائداً الى بلدته فالنسيين ليشتغل بالتجارة بعض الوقت ثم انصرف ليشبع هوايته فى الكتابة والتأليف ؛ ونشر حوالى سنة ١٣٧٠ أو ١٣٧١ القسم الأول من حوليته التى تضمنت تاريخ الحروب بين انجلترا وفرنسا . ويلاحظ من كتابته أنه كان =

وهو يتحدث بوضوح وبساطة عما أصاب حملة ادوارد الثالث (١) الاولى فى نورماندیا ، تلك المقاطعة التى لم تشهد حربا جدية منذ مائة عام قبل ذلك

حتى ذلك الحين منحازا الى جانب انجلترا . ولكنه تحول بعد ذلك الى صف الفرنسيين . ومن هنا يبدو الفارق واضحا في موقفه من الطرفين فى القسمين الاول والثانى من مؤلفه . وفى سنة ١٣٧٢ واصل كتابة حوليته لمدة عشر سنوات . وبعد رحلة طويلة قام بها فى مختلف أرجاء فرنسا ، عاد مرة اخرى الى بلدته ليواصل كتابة القسم الثالث من الحولية . هذا ، وتاريخ وفاته غير معروف تماما ، وإن كان يبدو أنه حدث بعد سنة ١٤٠٤ ، اذ يتضح من مؤلفه انه كان لا يزال على قيد الحياة فى ذلك التاريخ . وتنقسم حوليته الى أربعة أقسام ، يشمل كل منها فترة من فترات حرب المائة عام . وتوجد نسخ خطية عديدة منها ، وكذا ترجمة بالانجليزية كما نقلت الى جميع اللغات الاوروبية الحديثة . والى جانب هذه الحولية له عدد كبير من القصائد والمؤلفات أنظر عن ذلك Molinier, Sources de l'histoire de France, IV, 5-18.

(١) ولد ادوارد الثالث سنة ١٣١٢ . وحكم من ١٣٢٧ الى ١٣٧٧ ، وكان عمره ١٥ سنة عند ارتقائه العرش وتولى ادارة البلاد فى فترة قصوره التى امتدت من ١٣٢٧ الى ١٣٣٠ مجلس للوصاية . وفى عهده بدأت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتى أحرز فيها لانجلترا انتصارات على الفرنسيين كما تخللها سلسلة من المهادنات بين البلدين . وتوغلت اخر حملات ادوارد فى فرنسا سنة ١٣٥٩ / ١٣٦٠ حتى بلغت أسوار مدينة باريس . واختتمت المرحلة الأولى من الحرب بين البلدين بمعاهدة برتينى سنة ١٣٦٠ . وفيما يتعلق بتاريخ ادوارد الثالث وعهده . أنظر لانجر موسوعة تاريخ العالم . ج ٢ ، ص ٧٢٠-٧٢٩ . وكذلك Myers, England in the Late Middle Ages, 5-15

التاريخ (١) . يقول فرواسار :

« فعندما وصل ملك انجلترا إلى هـــوج سانت فاست Hogue Saint - Vaast غادر سفينته . وما أن مست قدمه الأرض حتى وقـع بشدة ونزف الدم من فمه . فحمله الفرسان الذين كانوا حوله وقالوا له : « بالله عليك يامولانا ، عد إلى سفينتك ، ولا تطأ الأرض اليوم . فمـــا ذلك إلا نذير سوء لنا . » فبادرهم الملك برده قائلا : «ولماذا ؟ إنما أرى فى ذلك بشيرا بالخير لى ، لان الأرض تريدنى أن أكون لها . » وأمام هــــذه الإجابة سرت فرحة عظيمة فى قلوب رجاله جميعا . ومن ثم ، راح الملك يفـــترش الرمال نهارا وليلا . وفى الوقت ذاته أخلى السفن مما كان عليها من خيل ومتاع ...

وهكذا عملوا وفقـا لـمـا أشار به الملك . أما الذين ركبوا البحر ، فقـد استولوا على كل ما عثروا عليه فى طريقهم من سفن . ومضوا قدما ، تارة بحرا وتارة برا ، حتى وصلوا الى ميناء مناسب ومدينة جميلة تسمى بارفلور (٢)

---

(١) ان جميع اشارات المؤلف فى حواشى الكتاب ، والخاصة بفرواسار ، مستمدة من مختارات . ج . س : ماكولى G. C. Macaulay عن ترجمـة اللورد برنر Barner فى سنة ١٥٢٣ . والكتاب زهيد الثمن وفى متناول اليد ، ويجب على كل من يعنيه معرفه القرون الوسطى على حقيقتها أن يطلع عليه فى طبعة (Macmillan & Co., 1895) (كولتون) .

(٢) بارفلور ميناء على بحر المانش عند طرف شبه جزيرة كوتنتان Cotentin بمقاطعة نورمانديا ؛ ومن هـــذه المقـاطعة تحرك وليم الفاتح لغزو انجلترا .

Barfleur : غير أنها كانت مدينة غلبت عليها الشهوات ، وقد استسلم أهلها خشية الموت . وبالرغم من ذلك كله نهبت المدينة ، وعثر فيها على الكثير من الذهب والفضة والجواهر الكريمة . كما عثر على ثروات بلغ من وفرتها أن دفعت الصبية والفلاحين الملحقين بالجيش إلى إهمال حراسة الأردية الثمينة المكلفة بالفراء النفيس . وقد أجبروا كافة رجال المدينة على مغادرتها والذهاب إلى السفن حتى لا يعانوا من وجودهم خلفهم ، وخشية أن يشقوا عليهم عصا الطاعة مرة أخرى . وبعد أن أخذت مدينة بارفلور ونهبت على هذا النحو دون إشعال النيران فيها ، انتشر الانجليز فى انحاء البلاد واقترفوا فيها من الفظائع ما حلا لهم،حيث لم تكن ثمة حيلة لمقاومتهم . وأخيرا وصلوا الى مدينة عظيمة غنية تسمى شيربورج (١) Cherbourg ووضعوا يدهم عليها ، ثم نهبوها وأحرقوا جانبا منها ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام الحصن لأنه كان شديد المناعة ومزودا بعدد كبير من رجال الحرب والقتال . ثم استأنفوا السير حتى بلغوا منتبورج (١) Montebourg واحتلوها ونهبوها ثم أحرقوها عن آخرها . وبنفس هذه الطريقة أحرقوا مدنا أخرى كثيرة فى تلك البلاد ، وغنموا من الثروات ما يدعو حصره الى العجب . ثم يمموا شطر مدينة عظيمة ، حصينة غاية الحصانة ، تسمى كارنتان (١) Carentan . هذا فضلا عن أنها معززة بقلعة(٢) قوية يقوم على حراستها جنود كثيرون . ثم غادر السادة اللوردات سفنهم وشنوا هجوما

---

(١) شيربورج ومنتبورج وكارنتان مدن فى شبه جزيرة كوتنتان بمقاطعة نورماندیا .

(٢) يلاحظ أن كلمات مثل castle الانجليزية و château الفرنسية =

وحشيا على تلك المدينة ، وقد استولى على سكانها الرعب خوفا على حياتهم وحياة زوجاتهم وأبنائهم . لذا تحملوا دخول الانجليز فى مدينتهم على الرغم من معارضة كل الجنود الذين كانوا فيها . ووضع الأهالى كافة بضائعهم تحت تصرف الانجليز وهواهم ، إعتقادا منهم أن فى ذلك خير مصلحة لهم . ولما رأى الجنود داخل المدينة ذلك ، ذهبوا إلى الحصن ، بينما دخل الانجليز المدينة وشنوا عليها هجوما عنيفا طيلة يومين متواليين ، حتى أن الجنود الذين كانوا بداخلها عندما رأوا أنفسهم فى عزلة عن أية نجـدة ، رفعـوا راية الاستسلام دون أن تمس حياتهم أو بضـائعهم بسوء . وهـكذا ذهبوا

= ر Burg الألمانية ، مستقاة من اللفظ الفرنسى القديم castel ومن اللاتينية castellum وهى تصغير castra ، أى قلعة أو حصن . وكان الغزاة الجرمان يطلقون هذه الأسماء اللاتينية على أى موقع حصين حتى لو كان مدينة مسورة . وظل استخدام هذه المصطلحات فى العصور التالية عندما اقام الحكام المحليون الجدد المعاقل والاستحكامات الجديدة . ويوجد منها فى المجتمع الغربى الوسيط نوعان متميزان : استحكامات بدائية عثر عليها فى انجلترا وفى القارة ، وهى تقاليد جاف للقلاع الرومانية القديمة ومساحة القلعة حوالى ٣٠ فدان ، وكانت مأوى لاقامة النبيل ، كما كان يحتمى بها سكان الجهات المجاورة هربا من اغارات الفيكنج والمجار على البلاد . والنوع الآخـر هو تلك القلاع التى طورتها فرنسا بما أدخلته عليها من تحسينات فى القرن العاشر . وكانت القلعة صغيرة نسبيا وتشغل مساحة تقل عن ستة أفدنة . وتنقسم من الداخـل الى قسمين : احدهما عبارة عن رابية اصطناعية محاطة بأوتاد ويتوسطها برج خشبي كبير ويطلق عليها اسم "motte" ، والقسم الآخر ساحة فسيحـة خفيضة تحيط بها الخنادق وسور من الأوتاد ويطلق عليه لفظ "bailey" . =

إلى حال سبيلهم . ولقد استمتع الانجليز بتلك المدينة الجميلة وبقلعتها . ولما تبين لهم عدم قدرتهم على الاستمرار فى حمايتها ، أشعلوا النيران فيها وأحرقوها ، وحملوا سكانها على ركوب سفنهم كما فعلوا مع أهالى بارفلور وشيربورج ومنتبورج ، ومدن أخرى تطل على البحر كانوا قد استولوا عليها ... ولا غرابة فى ذلك . ولو أن أهالى المدينة قد اعتراهم الخوف لأنه لم يسبق لهم رؤية رجال حرب من قبل ، ولم يكونوا يعرفون معنى الحرب أو القتال . وقد ولوا الأدبار فور سماعهم الانجليز يتحدثون ، تاركين بيوتهم بكل ما حوته من زاد ورياش ، ومخازنهم المليئة بالحبوب ، لأنهم لم يعرفوا كيف ينقذون كل هذه الأشياء ويحتفظون بها سالمة . وكان تحت إمرة ملك انجلترا وولى عهده فى حربهما هذه ثلاثة آلاف جندى وستة

= ويوجد داخل القلعة ثكنات العسكر ، واصطبلات الخيل ، ومخازن المؤن والحبوب ، ومخازن السلاح ، فضلا عن مسكن السيد الإقطاعى . وكان يقيم فى هذه القلاع جماعة من المحاربين المحترفين . وترجع أهمية هذه القلاع التى لا تزال آثار بعضها باقية إلى اليوم ، فى أنها تلقى الضوء على الفروسية والإقطاع . وقد صاحب تقدم النورمان فى الجزيرة البريطانية فى أواسط القرن الحادى عشر إقامة ما لا يقل عن خمسمائة قلعة من النوع السالف الذكر . هذا ، مع ملاحظة أنه وجدت اختلافات طفيفة فى النمط والأسلوب باختلاف المكان والزمان ، مع وجود تشابه عام فى مظهر تلك القلاع فى مختلف البلدان الاقطاعية فى أوروبا وقتذاك : وأما عن القلاع المستديرة الشكل والحصون التى توجد الأبراج فى جنباتها فهى تنسب إلى الفترة الواقعة بعد عام ١٢٠٠ . أنظر عن ذلك Stephenson, op. cit., 68-72.

آلاف من رماة السهام ، وعشرة آلاف من المشاة إلى جانب الفرسان المرافقين لقادتهم .

وهكذا ، كما سمعتم ، انطلق الملك ممتطيا جواده ، يعيث فى البـــلاد فسادا ، وقد أشعل فيها النيران دون أن يعصى له أمر أو ترد له كلمـــة . ثم غادر مدينة كوتانس (١) Coutances إلى مدينة أخرى عظيمة تسمى سانت لو (١) Saint — Lô ، وهى مدينة غنية بتجارة الجوخ وآهلة بالأثرياء . فقد كان يقيم فيها ١٦٠ أو ١٨٠ من رجال الحرف والتجـــارة . ولما ذهب الملك اليها ، اتخذ له مسكنا بعيدا عنها ، لأنه لم يرد قط أن يقيم فيهـا خشية حرقها . ولكنه بعث برجاله على الفور واستولى عليها ونهبها عن آخرها : ولقد كان من الصعب التفكير فيما نهب من الثروات الهائلة ولاسيما الملابس . ولا بد أن الأقمشة كانت تباع بأبخس الأسعار ، لو وجد من كان يقبل على شرائها .»

ونعود الآن إلى أحد الأمثلة العديدة التى ذكرها فرواسار حول ما أصابه الجنود الظافرون من الفديات التى كان يدفعهـــا لهم الأسرى : فهو يصف معركة الجوباروتا (٢) Aljubarrota فى البرتغال (سنة ١٣٨٥)، والتى ألحق

---

(١) كوتانس وسانت ـ لو مدينتان فى شبه جزيرة كوتنتان بمقاطعـــة نورمانديا .

(٢) الجوباروتا ميناء على الساحل الأطلنطى فى البرتغال (شبه الجزيرة الايبيرية) .

فيها الانجليز والبرتغاليون الهزيمة بخصومهم الأسبان والفرنسيين . فبعد أول صدام ظافر، شاهد الانجليز وحلفاؤهم إمدادات ضخمة تتجه نحوهم . ويستمر المؤرخ قائلا :

«فانهم فور إلحاقهم الهزيمة بجماعات المخربين والنهابين ، أخذوا أسراهم دون أن يلمحوا أثرا لأية قوات متجهة اليهم على مدى ابصارهم . غير أنهم مع ذلك، لم يطمئنوا إلى انتصارهم الأول . ولذلك أوفدوا ستة من الأشخاص البارزين إلى المدينة لاستطلاع الحالة فيها ، حتى يتبين لهم إن كانت هناك حاجة إلى المزيد من العمل . وأما الذين انطلقوا ممتطين صهوات جيادهم ، فقد شاهدوا قوات ملك قشتالة الكبرى ، وهى تزحف مسرعة نحوهم ، وتقترب من الجوباروتا فى جيش يربو عدده على عشرين الف فارس . ثم عادوا باقصى سرعة ، وقالوا جميعا بصوت مرتفع موجهين حديثهم إلى أفراد الشعب : «أيها السادة .. كونوا على حذر ، وانتبهوا جيدا ، فاننا حتى الآن لم نفعل شيئا .. انظروا ، فسوف يقبل ملك قشتاله مع جيشه العرمرم ، الذى يزيد عدده على عشرين الف مقاتل لم يتخلف واحد منهم عن الصف . » فلما سمعوا هذه الأنباء عقدوا اجتماعا عاجلا للتشاور فى الأمر ، وكانت الظروف تستدعى ذلك . ثم قرروا القيام بعمل من أعمال التقوى ، لأن الأوامر كانت قد صدرت الى كل رجل فى الجيش ، فى ظل عقوبة الإعدام ، بأن يذبح أسراه دون رحمة ، لا فرق بين نبيل أو سيد محترم أو غنى أو خلاف ذلك ومن ثم وجد الأسرى من اللوردات والفرسان والاتباع أنفسهم فى مأزق حرج ، لأنه لم تكن ثمة صلاة تشفع لهم فى النجاة من الموت . وهكذا ذبحوا بعضهم فى مكان ما ، والبعض فى مكان آخر . فقد انتشروا فى مختلف الانحاء مجردين من السلاح ظنا منهم أنهم قد أنقذوا ، ولكن خاب فألهم وحقيقة الأمر أن

ما وقع من هذه الأحداث إنما كان مأساة فظيعة . فقد أعمل كل رجل الذبح في أسيره . ومن لم يفعل ذلك تقدم آخرون للقيام عنه بهـذه المهمة . وقال البرتغاليون والانجليز الذين أشاروا بذلك : « خير لنا أن نجهز عليهم قبـل أن يجهزوا هم علينـا ، لأننا إذا لم نقتلهم في المعـركة فلسوف يهربون ويذبحوننا ، اذ لا سبيل الى الاطمئنان الى عدو . وهـكذا قتل بأبشع صورة اللورد اوف لينيـاك Lord of Lignac ، والسير بيتر اوف كوير Sir Peter of Quer ، واللورد اوف لسبريس Lord of L'Espres ، واللورد اوف برنك Lord of Bernecque ، واللـورد اوف بوردز Lord of Bordes ، والسير برتراند اوف بارجز Sir Betrand of Bareges ، واللورد اوف موريان Lord of Morianne ، والسير رعموند درزاك Sir Raymond d'Arzac ، والسـير جون اوف اسوليـجي Sir John of Assolegie ، والسير مانو أوف سارامين Sir Manaut of Saramen ، والسير بيتر اوف سالبير Sir Peter of Salebiere ، والسير ستيفن فالنسان Sir Stephen Valencin ، والسير ستيفن كوراس Sir Stephen Corasse ، والسير بيتر هافـفين Sir Peter Havefane ؛ فضلا عن ثلاثمائة من كبار أتباع السير بيرن Sir Bearn . ومن الفرنسيين قتل السير جون اوف راى Sir John of Rye ، والسير جوفرى ريشون Sir Geoffrey Richon ، والسير جوفرى بارتيني Sir Geoffrey Partenay ، وغيرهم . ألا فانظر وتأمل تلك المغامرة الكبرى البشعة التي وقعت في ذلك السبت حيث ذبحوا من الأسرى عددا كبيرا قدر بما لا يقل عن أربعمائة الف من الفرنجة » .

هذا ، ويستعرض فرواسار الكثير من مظاهر الأبهة والاحتفالات الرائعة . وأعظم هذه المظاهر والاحتفالات رونقا نلمسها فى وصفه سنة ١٣٨٩ بمناسبة الترحيب بايزابيل البافارية Isabel of Bavaria ملكة فرنسا الجديدة ، والتى قيل عنها فيما بعد أنها مثلت دور حواء للسيدة مريم العذراء التى ظهرت لجان دارك ، وأنها خربت فرنسا لأن جان دارك أنقذتها (١) .

يقول فرواسار (ص ٣٨٣) إنه وجد حشدا كبيرا من الناس فى الشوارع بحيث بدا أن العالم كله كان متجمعا هنالك . فقد أقيمت عند أول بوابة فى شارع القديس دنيس Saint Denis ، وهى المدخل إلى باريس ، سماء

(١) منحت الفروسية النساء مركزا أفضل مما كن يتمتعن به من قبل ؛ واليها يرجع الفضل فى خلق شخصيات نسائية بارزة فى المجتمع الغربى الوسيط ، مثل لورا بالنسبة لبترارك وبياتريس عند دانتى . وإذا أخذنا بياتريس نموذجا لبطلات الفروسية فى العصر الوسيط ، نجد انها كانت بالنسبة لدانتى مصدر وحيه وإلهامه . لقد أضفى عليها فى مؤلفاته ، وبخاصة فى الكوميديا الالهية ، بعض الصفات الرمزية والمعانى المجردة السامية . فهى ، فى نظره ، تمثل الحب الانسانى والفضيلة والاخلاص ، وهى أشبه بملاك هبط من السماء ليقود الناس إلى الخير . وبياتريس ماثلة فى مواضع عديدة فى الكوميديا ، وبصفة خاصة فى القصائد الأخيرة فى المطهر وفى الفردوس ، وهى التى ستقود دانتى فى الفردوس إلى أن يصلا معا الى الله . انظر عن ذلك

Dante, The Devine Comedy, II: Purgatory, trans. by D L. Sayers, Edinburgh, 1929, Canto XXX, 308 sqq.

انظر ايضا دانتى اليجيرى : الكوميديا الالهية - المطهر - ترجمة وتعليق الدكتور حسن عثمان - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٣٨٢ وما بعدها .

لوحة رقم ٥



بطلات الفروسية الرومانتيكية

نقش بالألوان المائية فى قلعة مانتا فى بيدمونت

صناعية رصعت كلها بالنجوم ، وفي داخلها بدا أطفال صغار تدثروا بالكساء حتى كانوا أشبه بالملائكة ، وأخذوا يترنمون بجميل الألحان . وكانت بينهم صورة لمريم العذراء حاملة طفلها الصغير ، وهو يلهو بطاحونة صغيرة من خشب الجوز . وكانت تلك السماء عالية ، وقد زركشت بزينة باذخة من شعارات فرنسا ، وبعلم يمثل الشمس المشرقة وهي ترسل إشعاعات ذهبية . وقد تم إعداد ذلك بتوجيه من الملك ، استعدادا لحفلة المبارزة الكبرى بين الفرسان . وقد سرت الملكة وغيرها من السيدات عند مرورهن تحت البوابة سرورا بالغا عند مشاهدة مظاهر الحفل . وكان ذلك شأن كل من مر تحتها . وبعد أن انصرفت الملكة والسيدات صادفتهن مرحلة ممهدة أمام نافورة في شارع القديس دنيس ، كانت ماسورتها مغطاة بقماش مطبوع باللون الأزرق اللازوردي الجميل ، ومكلف كله بالذهب برسوم مذهبة تمثل أوراق الزنبق . وقد ازدحمت الأعمدة بشعارات مختلف نبلاء فرنسا . وجرت من هذه النافورة أنهار من النبيذ المبهر ، ونبيذ بوردو . وحول النافورة تجمعت فتيات صغيرات ، وقد اتشحن بالملابس الفاخرة وزين رؤوسهن بأكاليل غالية من الزهور . وأخذن يترنمن بحلو الأغاني ، مما حرك لدى السامعين الشعور بسرور عظيم . وقد أمسكن بأيديهن أقداحا وكؤوسا من الذهب ، ودرن بها على الحاضرين وهن يقدمن لهم الشراب . وجلست الملكة هناك حيث أخذت تشاهدهن ، وقد غمرها السرور من ذلك الاحتفال . وهكذا فعلت جميع السيدات والآنسات اللائي شاهدن ذلك المنظر ... وكان شارع القديس دنيس بأكمله مفروشا بأقمشة مصنوعة من الحرير ووبر الإبل . وبلغت هذه الأقمشة من الكثرة بحيث بدا وكأنها لم تكلف شيئا . وقد حضرت الحفل أنا ، السير فرواسار ، مؤلف هذا التاريخ ، وشاهدت كل شيء فيه ، واعترتني الدهشة لوجود كل تلك الكميات من الاقمشة الحريرية ، وكنت أسائل نفسي من أين جيء بها . فلقد كانت تلك الأقمشة من الوفرة

بحيث توحى بأنها واردة من الاسكندرية أو دمشق . وقد زينت جميع المبانى على جانبي شارع القديس دنيس الكبير حتى جسر باريس بأقمشة مدينة أراس (١) Arras التي ترمز إلى مختلف العصور، مما كان يبهر الأنظار...

ثم مضوا قدما حتى بلغوا جسر باريس الذى كان مفروشا فبدت عليه مظاهر الأبهة : وكان الغطاء يتميز بلونيه الأخضر والقرمزى ، وقد رصع كله بالنجوم : كما كانت الشوارع مزدانة بالأعلام والأضواء حتى كنيسة مريم العذراء . وكان الوقت متأخرا عندما جاوزت الملكة والسيدات الجسر واقترين من الكنيسة ، لأنها ومن معها كن يتباطأن فى سيرهن ، ولم يركبن إلا مسافة قصيرة : وعندما دخلن الكنيسة ، شاهدن فى طريقهن مجموعة جديدة من الألعاب وأسباب اللهو والتسلية ، كان لها فى نفوسهن بهجة عظيمة . وكان من بين الموجودين رجل وفد من جنوه ، وقد ربط طرف حبل فى أعلى مبنى مطل على جسر القديس ميخائيل ، وكان هذا المبنى يعلو جميع المبانى الأخرى، بينما شد الطرف الآخر من الحبل بأعلى برج فى كنيسة السيدة العذراء . ولما مرت الملكة أمام كنيسة العذراء ، وكانت تقع فى الشارع الكبير المسمى باسمها ، ونظرا لأن الوقت كان متأخرا ، فقد خرج ذلك الرجل الجنوى وبيديه شمعتان موقدتان ، من مسرح صغير كان قد أعده فى أعلى البرج المذكور . ثم مشى على الحبل على طول الشارع الرئيسى وهو يغنى حتى أنه أدهش كل من شاهده يفعل ذلك . وظل حاملا فى يديه الشمعتين الموقدتين ليتسنى للمشاهدين رؤيته فوق باريس كلها ، وما جاوزها إلى مسافة ميلين.

---

(١) أراس هي إحدى مدن شمال فرنسا ء

لقد كان خفيفا فى ألعابه بما استحق عليه أجزل الثناء . » بيد أن ذلك كله لم يكد يبلغ نصف مشاهد المهرجان المذكور ، والتي وصفها فرواسار فى ذلك اليوم .

لقد استعرض فرواسار الكثير من المفارقات العجيبة الآخذة بالألباب فى مجتمع العصور الوسطى . وربما كان أعظمها براعة وإتقانا مشهد الأمير الأسود (١) بعد الانتصارين اللذين أحرزهما فى كل من بواتييه Poitiers وليموج Limoges . ففيما يتعلق بانتصاره فى بواتييه ، يقول فرواسار (ص ١٣٠) :

« وكان الوقت ليلا تقريبا عندما عاد الجميع من الصيد . ووردت الأنباء عن ذبح زهرة شباب فرنسا . وجاء فى هذه الأنباء أنه أخذ مع الملك وابنه اللورد فيليب ، سبعة عشرة من الايرلات ، فضلا عن البارونات والفرسان وأتباعهم . ويضاف إلى ذلك مقتل عدد من الطرفين بلغ خمسة أو ستة آلاف رجل . ولما عاد الجميع من الصيد ، كان لديهم من الأسرى ضعف ما كانوا

(١) الأمير الأسود (١٣٣٠-١٣٧٦) هو ابن ادوارد الثالث ملك انجلترا . ويعتبر هذا الأمير نموذج الفروسية الانجليزية فى أخريات العصور الوسطى . وقد انتصر فى أثناء المرحلة الأولى من حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، على حنا آخر ملوك الفروسية فى فرنسا عند بواتييه فى ٩ سبتمبر ١٣٥٦ . ففى هذه الموقعة وقع الملك حنا وابنه فيليب وأخوه فى الأسر مع مجموعة كبيرة من الارستقراطية الفرنسية . وقد توفى الأمير الأسود سنة ١٣٧٦ . أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٣ ، ص ٧٤٩ ، فشر : أوربا فى العصور الوسطى ج ٢ ، ص ٣٣٨ ؛ Myers, England in the Late Middle Ages (1307—1536), 12, 14, 15.

عليه عدأ . ثم تداولوا فيما بينهم للبحث في كيفية التصرف في هذا العبء الثقيل . وقد ساورهم الشك في إمكان الاحتفاظ بكل أولئك الأسرى ، حتى تراءى لهم أن يطلقوا عددا كبيرا منهم مقابل دفع الفدية ، والقائم في الحقول خبط عشواء . وهذا ما فعلوه . ورأى الأسرى أن الانجليز من أهالى مقاطعة جاسكونيا أصحاب مروءة وكرم . فقد دفع كثير من الأسرى فديتهم في ذلك اليوم وأفرج عنهم جميعا ، ولكن على شريطة أن يقسموا اليمين وأن يعدوا بالصدق على أن يعود من لم يدفع الفدية منهم ثانية في الفترة الواقعة بين ذلك اليوم وعيد الميلاد ، إلى مدينة بوردو Bordeaux ومعهم فدياتهم . وفي تلك الليلة لزموا الحقل فعلا حيث كانت المعركة ناشبة . وقد قام البعض بتجريدهم من السلاح ، ولم يفعل الكل ذلك . وحيا كل رجل أسيره تحية طيبة ... ولما رحل السير جيمس أودلى Sir James Audley إلى مسكنه ، أرسل إلى شقيقه السير بيتر أودلى Sir Peter Audley ، وإلى اللورد برثوليو أوف بيرجرش Lord Bartholomew of Burghersh ، واللورد ستيفن أوف كوزنجتون Lord Stephen of Cosington ، واللورد أوف ويللوبى Lord of Willoughby ، واللورد رالف فيررز Lord Ralph Ferrers ، الذين كانوا جميعا ينتمون اليه بصلة القربى . ثم استدعى أتباعه الأربعة حيث أدوا له في ذلك اليوم خدمات جليلة حقا . ووجه حديثه إلى اللوردات سالفى الذكر قائلا : « سادتى ... لقد طاب لسيدى الأمير ان يهبنى على سبيل الميراث ، إيرادا قدره خمسمائة مارك سنويا لم اقدم له في مقابلها سوى خدمة يدوية صغيرة . سادتى ... أنظروا هاهنا ، إلى هؤلاء الأتباع الأربعة الذين قاموا دواما على خدمتى بصدق وأمانة ، وبخاصة في يومنا هذا ... إن هذا الشرف الذى اتمتع به إنما وصلت

إليه بما لمسته فيهم من شهامة وشجاعة . وهذا ما سأكافئهم عليه ، وذلك بأن أهبهم وأتنازل لهم عن منحة الخمسمائة مارك السنوية التي وهبها لى سيدى الأمير ، لصالحهم ولصالح ورثتهم إلى الأبد ، وبنفس الطريقة التي أعطيت لى بها : وها أنا ذا أعلن بصراحة ووضوح أنني قد تنازلت عنها وأورثتها إياهم دون الرجوع فى قرارى ودون أى قيد أو شرط . » وأخذ السادة اللوردات وغيرهم من الحاضرين ، ينظرون إلى بعضهم البعض قائلين فيما بينهم : « إن هذه الهبة لا تصدر إلا عن نفس غاية فى النبل . » ثم ردوا جميعاً عليه بصوت واحد : « لتكن ياسيدنا مشيئة الله ... ولسوف نشهد بنبلك هذا حيثما ذهبنا ... »

وفى ليلة المعركة بالذات ، أقام الأمير فى قصره وليمة لملك فرنسا ولمعظم كبار اللوردات الذين كانوا فى الأسر ...

ولم يكف الأمير عن تقديم خدماته للملك بكل ما فى وسعه من تواضع ، متحاشيا الحضور فى مجلسه مهما كانت حاجة الملك إليه : فقد قال إنه ليس كفؤا لأن يجلس على مائدة ملك عظيم إلى هذا القدر : ثم قال للملك : « مولاى ... بالله عليك لا تفعل الشر ولا تغدق فى المجاملة . فان الله لم يأذن لى اليوم أن ألبي دعوتك . ذلك ، يا مولاى ، لأنه من المؤكد أن والدى الملك سوف يغمرك قدر استطاعته بمعانى الشرف والصداقة . ولسوف ينسجم ويتفاهم معك ، بحيث انكما ستصبحان بعد ذلك صديقين إلى الأبد. ثم انى ، يامولاى ، أظنك فى حاجة إلى المرح . وعلى الرغم من أن الحملة لم تكن كما كنت تود أنت أن تكون ، إلا أنك أحرزت اليوم شهرتك العظيمة فى الشجاعة والمروءة ، وقد تفوقت فيهما على جميع رجالك . مولاى ... إننى لم

أقل ذلك لاسخر منك . فان جميع من ينتمون الينا ، والذين شاهدوا أعمال كل فرد منكم ، متفقون معى فى الرأى . وانه لرأى سديد ، ذلك أن يقدموا لك الغنيمة ويتوجوا هامتك بأكاليل الغار . » وعندئذ أخذ الفرنسيون يتهامسون قائلين فيما بينهم : « كم كان حديث الأمير نبيلا . وإنه سوف يدلل على نبله ، إذا ما أمد الله فى حياته بما يتفق مع ما يتمتع به من وقار ، وأن يحافظ على ما آتاه الله من نعمة . »

وفى مدينة ليموج أصيب الأمير بالمرض الذى أودى فيما بعد بحياته ، متأثرا بتسليم المدينة غدرا إلى الفرنسيين : ولما استعادها ، يقول فرواسار: (ص ٢٠١)

« وعندئذ دخل المدينة الأمير دوق لانكستر Duke of Lancaster ، والإيرل أوف كامبريدج ، والإيرل أوف بمبروك Earl of Pembroke ، والسير جيشارد دانجل Sir Guichard d'Angle . كما دخلها الباقون جميعا مع فرقهم وكذلك جميع المشاة ، متخذين عدتهم ، مستعدين لاقتراف الشر والأذى ، ونهب المدينة وسلبها ، وقتل الأنفس ، رجالا ونساء وأطفالا ، لأن الأوامر كانت قد صدرت إليهم بذلك .

لقد كان مشهد الرجال والنساء والأطفال وهم جاثين على ركبهم فى حضرة الأمير يلتمسون منه الرحمة ، من المشاهد الباعثة على الشفقة . ولكن الأمير كان يتقد غضبا ويتميز غيظا ، حتى أنه لم يعر توسلاتهم أى اهتمام ، ولم تأخذه الشفقة نحوهم ، ولم يستمع اليهم ، بل قتلهم جميعا فى وقت واحد ، وكأن جريمة لم تقترف . ولم يظفر الشعب المسكين الذى لم تصدر عنه أية خيانة ، ببارقة من الرحمة به . ومع ذلك فقد اشتروا هذه الرحمة بأغلى مما حصل

عليها كبار الشخصيات الذين اقترفوا الآثام والمعاصى . ولم يكن ثمة قلب أشد من ذلك فى قسوته فى مدينة ليموج . ولو كان هـذا القلب ليتـذكر الله ولو قليلا لبـكى تحسرا على ما لاقاه أولئك القوم ، وما حل بهم من الخطب الجلل أمام أعينهم ، حيث قطعت فى ذلك اليوم رقاب أكثر من ثلاثة آلاف نفس من رجال ونساء وأطفال . رحمهـم الله ، لأننى أومن بأنهـم شهداء ... » .

ولنتحدث الآن عن الفرسـان الذين كانوا داخل المدينة أمثـال السير چون أوف فيلمـور Sir John of Villemur ، والسير هيـوج دى لاروش Sir Hugh de la Roche ، وروجر بوفورت Roger Beaufort ابن الإيرل أوف بوفورت ، وهم علية القوم فى المدينة . فما أن شاهدوا ماحل بأولئك القوم ومن معهم من أسباب العناء والمحن ، حتى قال كل منهم للآخر : « لسوف نموت جميعـا ما لم ندافع عن أنفسنا . إلا فلنضحى إذن بحياتنا غاليا كما يليق بالفرسان البواسل أن يفعلوا » . ثم قال السير چون فيلمور لروجر بوفورت : « إنه ليجـدر بك أن تـكون فارسا ياروجر » . فأجاب روجر قائلا : « سيدى :. أننى حتى الآن لست أهـلا لأن أكون فارسا . وشكرا لك،ياسيدى،على حسن نيتك » . ثم توقف الحديث بينهما لأنه لم يكن لديهما من الفراغ ما يسمح لهما بمواصلة الحديث . ومع ذلك ، فقد التقيا فى مكان مقابل لسور قديم . وهناك رفع الجميع أعلامهم ، وكان عددهم قد بلغ ثمانين شخصا : وحضر إلى هـذا المـكان دوق لانكستر ، والإيرل حاكم كامبريدج وصحبهما ، وترجلوا عن جيادهم . ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الصمـود طويلا أمام الانجليز ، إذ سرعان ما وقعـوا فى الأسر وذبحوا ومع ذلك فقد تقـاتل دوق لانكستر لفترة طويلة يدا ليـد مع السير

جون فيلمو ر الذى كان فارسا قويا جسورا ، بينما قاتل حاكم كامبريدج السير هيوج دى لاروش . وقام الايرل أوف بمبروك بمبارزة روجر بوفوريه ، ولم يكن آنئذ إلا أحد الاتباع ولقد قام هؤلاء الفرنسيون الثلاثة بحركات بارعة بالسلاح . أما رجالهم فكانوا مشغولين فى غير ذلك من الأمور : وجاء اليهم الأمير راكبا عربته ، وشاهدهم مسروراً ، وأرضى نفسه بالنظر اليهم . وقد طال القتال بينهم حتي أن الفرنسيين الثلاثة ، وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أمر بالإجماع ، رفعوا سيوفهم قائلين : « أيها السادة .. أننا رجالكم .. لقد هزمتمونا ، فلكم أن تفعلوا بنا حسبما يقضى به حق السلاح » وقال دوق لانكستر : « وهذا غاية ما نتمناه . . ومن ثم فاننا سنستقبلكم بوصفكم أسرى لنا » . وهكذا أخذ الفرنسيون الثلاثة المشار اليهم، حسبما ينبغي (١) .

(١) كانت الحرب هى الرياضة المفضلة عند الفرسان وغيرهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الغربي الوسيط ، ففيها يشبعون رغبتهم فى القتال التي ورثوها عن أجدادهم الجرمان . وكان يعلن عن القتال — عادة — جهاراً ، وذلك جريا على العرف السائد . وهناك تقاليد مرعية يجب اتباعها بدقة ، فضلا عن إجراءات وشروط معينة يتفق عليها مقدما بين الفريقين قبل النزال . فيتم تحديد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان فى معظم الأحيان ضاحيتين متخاصمتين ، ويكون الحكم أحد الفرسان . وينتظم المتبارون بملابس الحرب صفوفا وهم على ظهور خيولهم على طول جانبي ساحة المعركة . وعند إعطاء إشارة معينة يبدأ القتال ، وإذا انكسرت السهام والرماح ، يواصل المحاربون المعركة بسيوفهم وجها لوجه ، إلى ان ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه . ولا داعى للقول ان هذه الهواية كانت لعبة خطيرة تراق فيها الدماء وتزهق الأرواح . ومع ذلك كان ينال الغالب شرفا كبيراً ، فضلا عن الاسلاب والغنيمة . إذ كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه ، ما لم يستردهم الأخير مقابل مبلغ معلوم . أنظر Stephenson, op. cit., 72-74

وسلبت مدينة ليموج ونهبت عن آخرها ، ثم أحرقت حتى عم فيها الدمار ، وعندئذ رحل الانجليز بغنائمهم وأسراهم ، وانسحبوا الى مدينة كونياك Cognac حيث توجد سيدتى الأميرة . ثم منح الأمير كافة جنوده اجازة ليرحلوا ، مكتفيا بما فعله فى ذلك الموسم فقد شعر بتوعك فى صحته ، ثم اشتد عليه المرض ، وحزن عليه اخوته وشعبه حزنا شديدا . »

ولنستمع أخيرا إلى ما دبجه فرواسار على قبر فارس شريف وقائد عظيم ، هو سير جون شاندوز Sir John Chandos الذى أنقذ بجسارته وشجاعته مدينة جويين Guienne للتاج البريطانى . ففى سنة ١٣٦٩ نشب صدام مفاجىء عند جسر لوساك Lussac حيث كان على الانجليز - وقد زاد عددهم زيادة كبيرة - أن يبدأوا بمواجهة أسوأ الأمور . وسرعان ما وافتهم الامدادات ، ومن ثم أحرزوا نصرا ساحقا نظرا لتفوقهم فى العدد على خصومهم . وكان القائد الانجليزى هو أول من سقط فى هذا القتال (ص ١٩٧) . يقول فرواسار .

« كان سير جون شاندوز حقا فارسا شجاعا مغوارا يتقدمه علمه وتلتف حوله فرقته . وقد تدثر بذثرة الحربية التى بدا فيها عظيما مهيبا ، وهى تصطك بسلاحه وقد زينت بأفخر أنواع الحرير الناعم الأبيض ، وبشارتين من القرماء المصبوغ باللون الأحمر ، إحداهما من الأمام والأخرى من الخلف . وهكذا بدا وكأنه فارس كفء على أهبة أن يقوم بحركة بارعة بسلاحه ، أو كأنه واحد من كبار الرجال وأوائل المتقدمين ، وقد سار الى أعدائه حاملا سيفه بيده . وفى صباح ذلك اليوم تساقط الندى بغزارة حتى باتت الأرض رطبة إلى حد ما ، فانزلق وسقط عند اشتباكه مع أعدائه . وبينما هو يحاول النهوض

إذ لمع سيف فى يد أحد الأتباع ، ويدعى جاك أوف سان مارتان Jacques of St. Martin ، فهوى به عليه . ونفذت الاصابة فى جسمه أسفل عينيه فى موضع بين الأنف والجبهة . ولم يلحظ سير جون شاندوز الضربة وهى مصوبة فى هذا الاتجاه ، لأنه كان بعين واحدة ، إذ فقد عينه الاخرى قبل هذا الحادث بخمس سنوات وهو يطارد غزالا فى أراضى بوردو . ولم يكن لخوذته قناع حديدى لوقايته . وبلغ من شدة الضربة أن اخترقت مخه ، فتأثر لذلك تأثرا بالغا ، حتى أنه وقع على الأرض ودار حول نفسه مرتين من شدة الألم . لقد كان جرحه مميتا ، إذ انعقد لسانه إثر هذه الضربة حتى أنه لم ينبس ببنت شفة . ولما شاهد رجاله هذه المأساة فجعوا فيه فجيعة قاسية . ثم تقدم اليه عمه ادوارد كليفورد Edward Clifford وألقاه فوق جواده ، لأن الفرنسيين كانوا يريدون أخذه . ودافع عنه بشجاعة موزعا من الضربات ما يحول دون اقتراب أى شخص منه . وأما سير جون كلانفو Sir John Clanvowe ، وسير برترام أوف كاسيليس Sir Bertram of Casselis ، فقد بدا كل منهما وكأنه فقد عقله وطاش صوابه لدى رؤيتهما سيدهما ممددا على الأرض »

ويواصل فرواسار حديثه فيقول إنه يبدو ان انتهى القتال تماما :

« كان بارونات وفرسان بواتييه Poitou قد اعتراهم قلق شديد عندما شاهدوا سير جون شاندوز ، وهو المشرف على قصر الأمير ، ، ممددا على الأرض فاقد النطق ، وأحسوا بالأسى والفجيعة فيه . فكانوا يولولون بشدة ، وأخذوا يرثونه قائلين : « إيه ياسير جون شاندوز ... يامن كنت زهرة الفرسان جميعا .. إنه لمن سوء حظك أن هذا السيف قد صنع ليصيبك

بطعنته النجلاء ، ولياقى بك فى خطر الموت . » وبكى الذين كانوا حوله بكاء مرا . وسمعهم سير جون شاندوز ، وعرفهم جيدا ، ولكنه لم يكن قادرا على الكلام . لقد كانوا يشوحون بأيديهم ، ويشدون شعورهم ، وينوحون بصورة مؤثرة ، وكأنهم من أهل بيته فعلا . ثم قام خدامه بنزع سلاحه ، وستروا جسمه فى ترس ، ثم نقلوه في هدوء الى مورتيمر Mortimer حيث توجد قلعتهم التالية . وعاد البارونات والفرسان الآخرون إلى بواتييه وهم يقودون أسراهم . وقد علمت أن جاك مارتان نفسه ، وهـو الذى أصاب سير جون شاندوز على هذا الوجه ، لم يعبأ بجراحه ، ولم يلبث أن مات فى براتييه ، كما توفى أيضا ذلك الفارس النبيل سير جون شاندوز بعد الطعنة التي أصيب بها بيوم وليلة : وهكذا فاضت روحه . ليرحمه الله ،لأنه لم يظهر رجل منذ مائة عام مضت اجتمعت فيه كل الفضائل والسجايا بين الانجليز مثلما اجتمعت فيه ... لقد حزن لموته أصدقاؤه ، كما حزن عليه بعض أعدائه حزنا شديدا . وكان الانجليز يحبونه لأنه كان يتحلى بكل الصفات النبيلة . أما الفرنسيون فكانوا يكرهونه لأنهم كانوا يخشون بأسه ، بيد أنه ترامى إلى مسامعي أن النبلاء والشجعان من بين فرسان فرنسا قد تأثروا كثيرا لموته،معترفين أن موته خسارة كبيرة ، إذ قالوا : «كان خيرا لو أنه أخذ حيا ، لأنه لو كان قد أخذ وهو على قيد الحياة ، لاهتدى بما اتصف به من حكمة واسعة وعقل راجح ، إلى حل سديد يتحقق فى اثره السلام بين مملكتي انجلترا وفرنسا ، لا سيما وأن ملك انجلترا كان يحبه كثيرا ، حتى أنه كان يثق فيه

أكثر من أى شخص آخر فى الوجود . »(١)

---

(١) تكشف قصة جون شاندوز عن خاصية من أهم خصائص الفروسية فى العصور الوسطى ، ونعنى بها فكرة التبعية الوثيقة التى كانت تربط بين التابع والمتبوع . ونجد مثالا حيا لذلك فى الملحمة الشعرية الغنائية المعروفة باسم « انشودة رولان » ، وهى من أهم الأناشيد في الأدب الشعبي الوسيط . وقد خلد فيها الشعراء حملة شارلمان تجاه الأندلس سنة ٧٧٨ ، وان لم يكن لها من الأهمية التاريخية والنتائج الحاسمة ما يبدو من شهرتها الفائقة فى التاريخ . والانشودة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : خيانة جانيلون ، وموت رولان ، والعقاب . وقد جاء فيها ان مؤخرة جيش شارلمان كانت معرضة لهجمات العرب فى اسبانيا بسبب خيانة أحد رجال الامبراطور الالمانى ويدعى جانيلون . وكان فى هذه المؤخرة البطل رولان وصديقه اوليفييه . ورولان فى تلك الملحمة هو رمز الشجاعة والتبعية . فقد رفض طلب المساعدة من شارلمان بالنفخ فى نفيره حسب العادة المتبعة، وأخذ يحث من معه من الفرسان على مواصلة القتال ، وأعلن لصديقه اوليفييه انه ليس هناك سوى طريق واحد وهو القتال الى النهاية وحتى الموت فى سبيل سيدهم الامبراطور . وفعلا أخذ يحارب الى أن أصبح بمفرده ، وأخذته السيوف من كل جانب حتى سقط صريعا فى ساحة القتال . ويهمنا هنا أن هذه القصيدة ، التى تمثل روح العصر الوسيط فى نظمه وأفكاره ، تدور حول فكرة التبعية والرباط الوثيق بين السيد والمسود أو التابع والمتبوع ، فضلا عن انها تلقى ضوءا كافيا على الفروسية والاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط .
انظر عن ذلك : Stephenson, Med. Feudalism, 21 - 22 ; Cantor The Med. World, 235-237 - راجع ايضا جوزيف نسيم يوسف : « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ٦٢ / ١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ - ص ١٨٥ - ١٨٨ .

بعض المراجع للفصل الخامس

Ashdown, C. H., Armour and Weapons in the Middle Ages. London, 1925.

Ashton, J., Romances of Chivalry. New York, 1887.

Belloc, H., Warfare in England. London, 1912.

Borodine, M., La femme et l'amour au XIIe siècle. Paris, 1909.

Byles, A. T. B. (ed.), The Book of the Ordre of Chyvalry. Trans. by W. Caxton. London, 1926.

Cornish, F., Chivalry. New York, 1901.

Cripps-Day, F. H., The History of Tournament in England and in France. London, 1918.

Ffoulkes, C., Armour and Weapons. Oxford, 1909.

Gautier, L., Chivalry. Trans. by H. Frith. London, 1891.

Jusserand, J. J., Les sports et jeux d'exercise dans l'ancienne France. Paris, 1901.

Lacroix, P.,

1 - Vie militaire et religieuse au moyen âge et a l'époque de la renaissance. Paris, 1873.

2 - L'ancienne France : chevalerie et les croisades, féodalité, blason, ordres militaires. Paris, 1886.

Morley, E. (ed.), Hurd's Letters on Chivalry and Romance. London, 1911.

Oman, C. W. C.,

1 - A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. London, 1924.

2 - The Art of War in the Middle Ages (A. D. 378-1515). New York, 1960.

Painter, S., French Chivalry. New York, 1961.

Schultz, A , Das höfische Leben zur Zeit der Minnesinger. 2 vols. Leipzig, 1889.

Tenison, E., Chivalry and the Wounded. London, 1914.

Waeyf, B. C., La tradition chevaleresque des Arabes. Paris, 1919.

الفصل السادس

الرهبنة والديرية

ولننتقل الآن من القلعة إلى الدير ، فنقول إن الرهبنة نشأت ونمت بطريقة طبيعية ، كما نشأت أحيانا مستقلة فى جهات مختلفة . والواقع أن الرهبنة كانت ، إلى حد ما ، نظاما قائما فعلا سابقا لظهور المسيحية (١) . ذلك أن

---

(١) تكشف وثائق أوراق البردى التى عثر عليها فى مدينة ممفيس حيث يوجد معبد السيرابيوم نسبة الى الاله سيرابيس ، أن فكرة الرهبانية كانت سابقة للمسيحية . وترجع هذه الوثائق الى العصر البطلمى الاول . وهى تتعلق بأفراد وهبوا أنفسهم لخدمة الاله سيرابيس اذ دخلوا معبده وانقطعوا عن الحياة الخارجية . والرأى السائد أن هذا الانقطاع كان ذا صبغة دينية . إذ تصور اولئك الافراد أن الإله ناداهم لتأدية فروض عبادته وخدمته . وربما يكونون قد ذهبوا اليه من تلقاء أنفسهم تكفيرا عن خطاياهم : وقد يستمر هذا الانقطاع عن الحياة الدنيا مدى الحياة ، وقد ينتهى فى أى وقت متى رغب الفرد فى ذلك . ويرى ادريس بل أنه لا يمكن الربط بين هذه الحركة وبين الرهبانية المسيحية . بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن الحركة المشار اليها تعتبر مثالا سابقا للرهبانية فى العصر المسيحى وممهدة لها .
انظر عن ذلك: Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt, 21-2; Bevan, A Hist. of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, 41-3.
وتعتبر مقدمة كتاب اولمان فيلكن عن « وثائق العصر البطلمى » العمدة فى هذه الناحية ، وقد اعتمد عليها ورجع اليها المشتغلون فى هذا الميدان .
انظر : Wilcken, U., Urkunden der Ptolemäerzeit. Berlin, 1922

أبناء الكنيسة الشرقية قد بدأوا منذ آزمان واغلة فى القدم يغـادرون الاسكندرية وغيرها من المدن الكبرى إلى صحارى مصر وسورية . وقد اشتدت هذه الحركة عنـد ما اعترف قسطنطين بالمسيحية دينـا رسميا للدولة ، وجعـل كنيستها هى كنيسة الدولة . ويعبر عن ذلك رجال الدين المتحمسين مثل هارناك Harnack (١) بقولهم إنهم « هربوا من الدنيـا ، ومن ثم من كنيسة كانت قد ضمت العالم إلى صدرها » : على أن هذه الحركة لم تكن تعنى بحال من الأحوال أنها ضد الـكنيسة . وإنما كانت تعنى فقط أن الناسك قد وجد نفسه مستقلا لحد ما عن القس ، وأنه عكف على أن يعمـل لخلاص نفسه . وبمرور الأيام ، كون اولئك النساك جماعات لحقتها جماعات أكبر منها . ثم أصبحت الحاجة ماسة الى التشريع . فوضع أحد الزعماء قانونا رسميا تعهد الجميع باطاعته . ولكن أقدم قانون كان قانون باخوميوس (٢)

---

(١) من أهم مؤلفاته كتابه بالالمانية عن الرهبنة ، وهو A Harnack, Das Mönchtum: seine Ideale und seine Geschichte, Giessen, 1895.

وله ترجمـة بالانجليزية تحت اسم A. Harnack, Monasticism : its Ideals and History, and the Confessions of St Augustine, trans. by E. E. Kellett and F. H. Marseille, London, 1901.

(٢) ظهرت الرهبنة فى بداية عصرها بمصر عندما قام كثير من المتوحدين الذين عاشوا فى الصحـراء الشرقية بصفة خاصة وبالقرب من مناطق قنـا وسوهاج والصعيد بوجه عام . وكان من اوائل المتوحدين القديس بولس (انبا بولا) (ت حوالى ٢٧٠ م) ، والقديس انطونيـوس (ت ٣٥٦ م) . وانتقل نظام الرهبنة من مدة الحركة الانفرادية الى الحركة المعروفة بحركة الحياة أو الشركة الاجتماعية ، وهى التى تمت على يد عدد من آباء الكنيسة =

Rule of Pachomius ، وكان اعظـم هـذه النظم وأكثرها

= الأول وعلى رأسهم القـديس باخوميوس (٢٩٠ - ٣٤٨ م) الذى نظم حياة الرهبان فى شكل اجتماعى بحيث يعيش الجميع داخل حيطان دير واحد ، يأكلون معا ويصلون معا ويدرسون معا ويشتغلون لكسب الرزق . ومن مبادئهم أن يعيشوا فقراء متبتلين يخدمون الله ويطيعون رؤسائهم . وهـكذا أصبح الرهبان يخضعون لقوانين معينة ، بعد أن يتركوا الحياة الدنيا ويتخلصوا من مالهم وثرائهم ليعيشوا جماعات شعارهم الفقر والتبتـل والطهـارة . وقد انتشر نظام القديس باخوميوس بتأسيس العديد من الأديرة فى مصر ، ومنهـا انتقل الى الغرب حيث قامت ديرية القديس بازيل فى بلاد اليـونان . وللمزيد من التفاصيل ، انظر عزيز سوريال عطية : نشـأة الرهبنـة المسيحية فى مصر وقوانين القـديس باخوميوس ، ص ٣ - ٢٧ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، ص ٩٣ - ١٠٩ و ٢٧٧ - ٢٩٢ ، رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية ، ص ١ - ١٨٨ .

وجدير بالذكر انه يوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء أربعة مخطوطات باللغة العربية، لم تنشر بعد، تناولت سيرة أنبا باخوميوس، وهى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وبيانها :

١ - ميامر مقاريوس الطوباني وسيرتا انطونيوس وباخوميوس (رقم ٣٥٦) - عـدد اوراقه ٢٩٦ - تاريخه ١٢٨٦ م .

٢ - سيرة انبا باخـوميوس ومواضيع اخـرى (رقم ٤١١) - انظر ورقة ١ - ٩٤ - عدد اوراقه ٢٠٨ - تاريخه ١٢٨٧ م .

٣ - بستان الرهبان وسيرتا أنطونيوس وباخوميـوس (رقم ٥٢٦) - انظر ورقة ١٢٢ - ٤٠٢ - عدد اوراق المخطوط ٤٠٢ - تاريخه ١٢٧٧ م . =

شعبية هـو نظـام القديس بازيل (١) St. Basil الـذى تـوفى سنة ٣٧٩ :

وأما فى الغرب فقد كان أبعد هذه القوانين أثرا وأكثرها فاعلية

= ٤ - سيرة باخوميوس (رقم ٥٤١) - انظر ورقة ١ - ١٠٥ - عدد اوراق المخطوط ١٠٧ - تاريخه القرن الثالث عشر :

. . . .

(١) بدأت الحياة الديرية تأخذ شكلهـا النظـامى فى شرق اوروبا على يد القديس بازيل الذى عاش فى الدولة البيزنطية فى القرن الرابع الميـلادى : وقد اعتزم ترك الحياة الدنيوية تحت تأثير اخته ماكرينـا Macrina . وأدرك أنه لكى يفهم الرهبنة على حقيقتها ويتعـرف على أسرارها ، يجب عليه أن يعيش فى نفس الأماكن التي ظهرت وترعرعت فيها . ولهذا الغرض قام بزيارة مصر وفلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين : وعاد إلى بلاده ولديه خبرة واسعة اكتسبها من رحلاته . وكذلك فكرة واضحة عن كل من الحياة الديرية الانفرادية والحياة الاجتماعية للرهبـان . وقد آثر بازيل الحياة الديرية الاشتراكية ، ولكن بعد أن أدخل عدة اصلاحات على قوانين باخوميوس ، منها تقليل عدد الرهبان بكل دير كى يصبح من السهل على رئيسهم معرفتهم فردا فردا ، وتزويدهم بارشاداته وتوجيهاته . ومع أنه لم يشجع حياة التنسك ، الا انه لم يمنعها . وقام بتنظيم حياة رهبانه تنظيما دقيقا . فتم تحديد ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم . كما ذكر بالتفصيل الملابس التى كان على الرهبان ارتداؤها . وبالرغم من أن القديس بازيل لم يترك لنا قانونا بالمعنى المفهوم مثلما فعل غيره من مؤسسي الرهبنة ، الا أن التقاليد التى أرسى بازيل أسسها والكتابات التى تنسب اليه =

هو قانون القديس بندكت (١) St. Benedict الذى يحتمل أنه وضع سنة ٥٢٩؛ وكان المصلحون للديرية البندكتية هم أكثر الرهبان الغربيين شهرة وصيتا.

= كان لها أثرها الذى لا ينكر فى هذا الشأن. وجدير بالذكر أنه لا يوجد فى الكنيسة اليونانية جماعة باسم «جماعة القديس بازيل»، وأن كلمة بازيليان Basilian — أى اتباع بازيل من رهبان الدولة البيزنطية — هى من ابتداع طلاب العلم الغربيين. وقد انتشر نظامه الديرى بسرعة من بنطش حتى كبادوكيا فأرمينية فآسيا الصغرى كلها، حيث صادف نجاحا كبيرا. وكان من أثر ذلك زيادة عدد الأديرة فى تلك الجهات زيادة ملحوظة. أنظر: Baynes & Moss, Byzantium, 141-3.

هذا ويوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء مخطوط باللغة العربية يرجع إلى القرن الثالث عشر يحتوى على قوانين القديس بازيل ضمن مواضيع أخرى، وعنوانه: «مختصر من القوانين — قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل» (رقم ٥٩٨). أنظر ورقة ٤٦ب - ١٥٣ - عدد أوراق المخطوط ١٠٨ - تاريخه القرن الثالث عشر.

(١) بدأ القديس بندكت حياته راهبا متوحداً متقشفا متبتلا فى أحد الكهوف بمنطقة تقع فى وسط إيطاليا إسمها سوبياكا Subiaca. وأدرك ما كان يعانيه الرهبان المتوحدون من مصاعب نتيجة الحياة التى كانوا يحيونها. فقام بتأسيس ديره الأول فى مونت كاسينو حيث التف حوله عدد من الرهبان، فوضع لهم قانونه المعروف باسمه حوالى سنة ٥٢٩. ويقوم هذا القانون على أربع قواعد رئيسية هى التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء؛ وأساسه إنسانى وروحى فى آن واحد، على خلاف الفكرة القديمة التى كانت سائدة قبلئذ. إذ نظر القديس بندكت للراهب كمخلوق بشرى يجب أن توفر له أسباب الراحة الإنسانية والحاجات الضرورية. ومما يذكر أنه =

مثال ذلك جماعة دير كلونى (١) Cluniacs ، وجماعة الإخوان

= جعل حياة أتباعه في أديرته حياة اجتماعية . كما أدخل عليها نظام العمل اليدوى والذهنى فى النشاط اليومى للرهبان . واعتنى أيضا بالناحية العلمية، فأوجد فى كل دير نواة لمكتبة ومكانا لنسخ الكتب ، تشجيعا لمن يجدون فى نفوسهم ميلا للكتابة والتأليف : لهذا كانت الأديرة البندكتية منبعا للعلم فى المجتمع الغربى الوسيط ، بينما كان عامة الناس يغطون فى الجهل : ونتيجة لهذه المزايا التى تحلت بها الديرية البندكتية ، فقد تم انتشارها وحلت محل حياة التوحد والتقشف ولكنها كغيرها من الحركات العالمية لم تلبث أن تدهورت مع مرور الزمن نتيجة ازدياد الثروة الموقوفة على الأديرة التابعة لها ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى حركة إصلاح جديدة . وقد تم ذلك فى أوائل القرن العاشر الميلادى . أنظر : Coulton, Med. Panorama,263 sqq. أنظر أيضا نص قانون القديس بندكت فى كتاب Cantor, The Medieval World, 97 sqq.

(١) ظهرت جماعة دير كلونى فى أوائل القرن العاشر الميلادى ويقع دير كلونى الرئيسى بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون . وقد بدأت الحركة الكلونية ضيقة فى أول الأمر ، ثم أخذت تتسع تدريجيا إلى أن أصبحت فى القرن العاشر مثلا يحتذى به من أمثلة الاصلاح . وكان أساس نظام كلونى هو الاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية ، والاتصال المباشر بالبابوية ، والقضاء على استقلال الأديرة عن بعضها ، وأخيرا المناداة بإصلاح الكنيسة والبابوية من المفاسد والشرور التى تغلغلت فيهما . والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماما ، إذ اعتمدوا على المبادىء الباخومية فى مسألة الحياة الاجتماعية والاجتماعات الدورية . كما اعتنى رهبان كلونى بالعلوم والزراعة والأعمال الأدبية ، ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها =

السسترشيان Cistercians (١) ، أو على الأقل مثل جماعة الاخوان الكارثوذيان Carthusians (٢) ، الذين اتخذوا من القديس بندكت قدوة لهم . وخلال عدة أجيال شرعت قوانين لتنظيم العلاقات بين الرهبان فيما

= البالغة الأهمية ، فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا نفسها . ومن أشهر رؤساء الأديرة الكلونية القدامى القديس اودو St. Odo (٩٢٦ — ٩٤٢) والقديس أوديلو St. Odilo (٩٩٤—١٠٤٩) ؛ ولهما دور معروف فى تشجيع الحرب الغربية ضد العرب فى أسبانيا ، وفى تشجيع حركة الحج إلى الأراضى المقدسة أيضا . أنظر :

Coulton, Med. Village, 210; Baldwin, Med. Church, 34-6, 41-2.

(١) مؤسس جماعة السسترشيان راهب فرنسي يدعى روبرت . وقد أسس جماعته حوالى سنة ١٠٩٨ ، وغرضها هو العودة إلى التعاليم البندكتية الأولى ، مع إدخال نوع من التصوف فيها ، وتجنب الملبس الفاخر ، والتمسك بالبساطة فى كل شيء . وقد انقطع اتباع هذه الجماعة عن العالم إلى الجهات المقفرة ، واختصوا برعاية الأغنام وتعمير الصحارى . وانتشرت أديرتهم بسرعة فى الغرب ، وأخرجت لنا عددا من عباقرة ذلك العصر أمثال القديس برنارد مؤسس ديره المشهور فى كليرفو سنة ١١١٥ . ولذا يطلق على هذه الجماعة أيضا اسم « البرنارديين » باعتبار أن راعيهم الرئيسى كان القديس برنارد . أنظر : Baldwin, Med. Church, 42—4; Shorter Camb. Med Hist., I, 502—4.

(٢) أسس جماعة الكارثوذيان قديس ألمانى الأصل اسمه برونو St. Bruno سنة ١٠٨٤ . وكان اتباعها ينزعون إلى الانفراد كل داخل صومعته ، وإن كانوا يعيشون داخل حيطان دير واحد . وهدفهم السكون والتأمل فى ذات الله العلية . أنظر كتاب : Coulton, Med. Panorama, 266 .

يعرف بحركة الحياة الديرية المنظمة . وقد اتبع هؤلاء جميعا - فيما عدا اختلافات شكلية طفيفة — قاعدة للحياة يعتقد أن واضعها هو القديس أوغسطين ، ومن ثم جاءت التسمية المعروفة بالقوانين الأوغسطينية Augustinian Canons أو قوانين أوستين الكنسية Austin Canons ، نسبة إلى أوغسطين . وفي مقتبل القرن الثالث عشر ظهرت جماعات الاخوان الرهبان . فجاء الاخوان الفرنسيسكان (١) في شبه ثورة صريحة على بعض عادات وتقاليد البندكتان والدومينيكان (٢) ، وذلك بصفتهم نوعا من الجماعات الدينية الداعية إلى الإصلاح

وقد طالب اتباع جماعة الاخوان الكرمليين Carmelites والأوغسطينيين (٣) Austin Friars لأنفسهم بكيان أصيل مستقل ، إلا أنهم ، في الحقيقة ، ساروا في تكوينهم على غرار سابقيهم سالفي الذكر . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات ، فيما عدا القليل منها ، تقابلها جماعة من الأخوات الراهبات .(٤) ومع أن كثيرين ممن نذروا أنفسهم للرهبنة لم يكونوا رجال

---

(١) فيما يتعلق بالفرنسيسكان أنظر الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص ٦٤ — ح ٢ .

(٢) مؤسس الاخوان الدومينيكان هو القديس دومينيك St. Dominic ؛ وقد عرفوا أيضا باسم الاخوان المبشرين ، وهدفهم مكافحة تيار الهرطقة داخل الكنيسة الغربية وخارجها أنظر عن ذلك Baldwin, Med. Church,60-1

(٣) فيما يتعلق بالاخوان الكرمليين والاوغسطينيين ، انظر Coulton, Med. Panorama, 133, 198, 271, 280, 302; LaMonte, The World of the Middle Ages, 409—410; Painter, Hist. of the Middle Ages, 319.

(٤) فيما يتعلق بالراهبات في العصور الوسطى ، أنظر الفصل الثالث من كتاب ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق حسين — بيروت ١٩٥٧ ، ص ٩٩—١٣٨ ، وعنوان الفصل المذكور « السيدة ايغلينتاين راهبة تشوسر على حقيقتها » .

دين بمعنى الكلمة ، إلا أنهم كانوا جميعا يتمتعون بحصانات كنسية كاملة .
وهؤلاء المتعبدون هم الذين كونوا هــذه الجماعات الدينيــة المنظمة " Regular Clergy " ، على أن يرتبط كل منهم بالنظام " Regula " الذي ينتمي اليــه — وذلك تمييزا لهم عن رجــال الدين العلمانيين "Secular Clergy" الذين كانوا يعيشون عيشة دنيوية " in Saeculo " ، كالأساقفة وقساوسة الكنائس الكبرى ، وقساوسة وكتبة الأبرشيات ، ورجال الدين غير المرتبطين بأى نظام ، والذين قاموا بكافة الأعمال التي يقوم بها ما يعرف في أيامنا هذه باسم « الكاتب » ، ومنه النعت « كتابى » الكثير الاستعمال .

ويمكن اتخاذ القـانون البندكتي نموذجا لكافة الجمـاعات الديرية القديمة . فقد نذر أتباع هذه الجماعة أن يؤدوا مدى الحياة الفرائض الأساسية الثلاث وهي : الطاعة والفقر والعفــة : ولا يستطيع أحد ، حتى البابا نفسه ، أن يحلهم من هذه العناصر الثلاثة . ولكن الواقع أن البابا قد استطاع فعــلا أن يلغى النذر كله ، حتى أنه حول الراهب إلى غير راهب ، علما بأن الأمثــلة على ذلك نادرة للغــاية : ولكن لا يجوز لأى إعفاء بابوى أن يترتب عليه إعفاء الراهب الذي قصر في أى من العناصر الثـلاثة الأساسية مـن عقوبة الخطيئة المميتة : وترتكز هذه العناصر الثـلاثة على أربع قواعــد رئيسية . إذ كان القانون يقضى بتجرد الراهب من أية ملكيــة شخصية ، والامتناع التام عن تناول اللحوم إلا في حالة المرض ، والعمـل اليدوى المستمر ،

وملازمته التامة المشددة للدير . وكان يخصص حوالى أربع ساعات ونصف ساعة يوميا لترتيل المزامير وأداء الصلاة علنا ، فضلا عن التعبد الخاص الاختيارى .

وقد نمت هذه الخدمات الدينية تدريجيا ، وازدادت العناية بأمرها . ففى سنة ١٥٠٠ كان الراهب المتشدد يقضى نحو ست ساعات يوميا فى الكنيسة . كذلك أوصى القديس بندكت بالعكوف نحو ثلاث أو أربع ساعات يوميا على قراءة كتب العبادة . ولكنه أعفى من ذلك نهائيا الرهبان الأميين . فقانون بندكت إنما هو نموذج يجمع بين الحكمة العملية والروحية معا . وقد اعتبر هذا القانون أعظم وثيقة ظهرت فى القرون الوسطى على الاطلاق . وكان له أثر عظيم فى تطوير الحياة الديرية المنظمة التى كثيرا ما يميزها الكتاب المحدثون عن الرهبانية بشىء من الزهو العامى المبالغ فيه ، ولو أن كلا الجماعتين كانتا أحيانا تنضويان تحت مصطلح واحد فى العصور الوسطى بل إن هذه الدقة المتناهية المزهوة ذاتها تسمح لنا بتطبيق كلمتى « ديرى » و « دير » على جماعات الاخوان الرهبان وهم يتميزون عن جماعة القديس بندكت بتخفيف وطأة حظر تناول اللحوم ، وكذلك وطأة الاعتكاف داخل الدير . لقد اعتادوا فى الواقع أداء الخدمة الدينية بوصفهم قساوسة الابرشيات فى كنائسهم الخاصة المملوكة لهم .

أما جماعات الاخوان الرهبان فقد عارضوا عن سعة فهم ودقة وزن للأمور ، الجماعات الرهبانيه القديمة حول بعض النقاط الماسة . فقد كان

الراهب ثروة ، ولو أنه فى حقيقــة الأمر كان يحق له شخصيا التنازل عن كل ملكية خاصة . وكانت الهبات توقف على ديره ، وغالبا ما يصاحبهـا ثروة ضخمة . هذا من جهــة ، ومن جهة أخرى كان أى فرد من أتباع جماعـة الاخوان الرهبان من الوجهة النظرية يلتزم الحيــاة على التسول بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . فقد كان يعيش على الصدقة والإحسان ، ولو أن ذلك يعتبر فى الواقع دخلا ضئيلا جـــدا بمقارنته مع ذوى اليسار من الرهبان . ونعود إلى الراهب لنقول إنه كان حبيسا بمعنى الكلمة . وينطبق هــذا حتى على أولئك الرهبان الذين وجدت بينهم علاقات منظمة لحد ما . أما بالنسبة للاخوان الرهبان ، فقد كان الدير مجرد قاعدة للعمل . لقد كانوا يغـادرونه اثنين اثنين للسؤال وجمع الصدقات ، وللوعظ وسماع اعترافات النــاس فى الأبرشيات . وكان ذلك ينطوى بطبيعة الحـال على قدر غير قليـــل من المنافسة مع قس الأبرشية ، ممـا أفضى أحيانا إلى احتكاك شديد بينهما . وقلما استطاع الرهبان والراهبات أن يكونوا ديموقراطيين مخلصين لبعضهم بعضا فى مشاعرهم وأحاسيسهم الودية . لقد جمعت نسبة ضئيلة جدا منهم من أفقر الطبقات . أما الراهبات فقد كن فى الواقع يعانين الكثير من الحرج منــذ أقيم دير لهن ليكون بمثابة المقر الأخير للفتيات المنتميات إلى بيوتات كريمة ، ولـكن أهلهن عجزوا عن أن يقدموا لهن البائنة التى تتناسب مع طبقتهن ومن المحتمل جدا أن رئيسة دير تشوسر كانت من بيت أكرم محتدا من فارس تشوسر نفسه . وعلى النقيض من ذلك كان الاخوان الرهبــان ، إذ سرعان ما انغمسوا فى الاتجار بالقداديس بعد أن خمدت فورة حماسهم الأولى للحركة

الرهبانية . وتوسعوا فى هـذا المجال ، وزاد اختلاطهم بكافة الطبقات ، واعتمادهم على إعانة الشعب لهم . ولقد اتهموا أحيانا ، كما اتهم من جهة أخرى اللولارديون ،بالدعوة إلى مبادىء المساواة ؛ وبذلك ساهموا فى قيام ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ .

كانت الرهبنة ، كما يتضح لنا ، عبارة عن نمو طبيعى كامل للعالم المضطرب غير المستقر فى العصور المظلمة ، حيث بدا أنه من الصعوبة فى معظم الحالات اتباع تعاليم المسيح بايمان صادق ، وأن يعمل كل إنسان حقيقـة على خلاص نفسه دون أن يعود إلى شريعة الغـاب . وخلال العصور الوسطى الحقيقيـة التى كانت أكثر استقرارا من الفـترة المتقـدمة ، وإن استمرت حالة القلق فى ذات الوقت — كانت لاتزال هنالك أعمال يندر القيام بهـا بصورة مغايرة فى مثل ذلك المجتمع الذى كان يتعين على تلك العصور مواجهته . وحتى فى عهد الاصلاح الدينى،كان حارس الدير يتمتع بمعيشة أكرم مما ينعم بها الفرد العادى الذى يعيش خارج الدير . ولكن هذا المستوى لم يعد كافيـا لحمـاية ثروته والمحافظة على المزايا التى يتمتع بها بصورة ناجحة . ويرجع بعض ذلك، دون شك ، إلى أنه كان يساهم بنفسه فى رفـع مستوى المجتمع الخارجى . وكانت الأسباب الرئيسية للانحلال تكمن فى الفساد الذى لاسبيل إلى إنكاره. بل يمكن للقول بأنها تكمن فى التخلى المعترف به عن مثالية الرهبانية المبكرة. ويتضح ذلك لا من الاتهامات الموجهـة إلى الرهبان من أعدائهم ، ولا من الاعترافات الصريحة الصادرة عن أصدقائهم فحسب ، وإنما من سجلات الأديرة الرسمية كالدفاتر الحسابيـة وتقارير الأساقفـة الزائرين وتصرفات

البندكتان أو الأوغسطينيين أو أعضاء مجامع الرهبان الذين يعيشون على الصدقة والإحسان .

ولنتناول بالترتيب تلك الاعتبارات الأربعة التي أطلق عليها اسم الأعمدة الأربعة الرئيسية ، وهي :

(١) لقد انتهى تماما أمر تحريم الملكية الخاصة . فقبل عام ١٢٠٠ وبعده مباشرة ، أصدر البابوات مراسيم تقضي بأن الراهب الذي يثبت أنه حائز على ملكية خاصة عند وفاته ، يتعين دفنه في القمامة رمزا إلى حلول اللعنة عليه. ومع ذلك فقد كان القائمون على تصريف شئون الأديرة طيلة الأجيال الأخيرة من القرون الوسطى ، يتقاضون دون حق مصاريف لحسابهم الخاص تحت ستار من مختلف الحجج . ولم تلبث هذه الفوضى أن أصبحت أمرا واقعا معروفا ، إلى حد أنه كلما رفضها شحيح أو فقير من بين الرؤساء شكاه المعوزون فعلا إلى الزائر الرسمي للدير (المراقب) الذى لم يصارحهم قط بأنهم إنما كانوا يطالبون بشيء غير مشروع .

(٢) كذلك أصبح تحريم اللحوم شيئا لا وجود له . إذ اعتاد الرهبان تدريجيا الذهاب إلى المستشفى حيث كان تناول اللحم مباحا ، وكانوا يأكلونه فعلا هنالك . ولقد أبدى البابوات ومحبو النظام سخطهم بطبيعة الحال على هذا السفه ، ولكن دون جدوى . واتخذت القصة القانونية حقا — في حالات كثيرة — شكلا آخر . فقد بنيت حجرة في منتصف المسافة بين غرفة الطعام بالدير والمستشفى الملحق به ، حيث كان يتسنى للرهبان أكل اللحم في نفس الوقت الذى لم يكن يسمح به في غرفة الطعام . وكان

يطلق عادة على مثل هذه الحجرة اسم « حجرة الرحمة » . وفى سنة ١٢٢٦ حرم البابا جريجورى التاسع (١) صديق القديس فرنسيس تلك العادة بما كان يتصف به من الاهتمام الشديد باصلاح الرهبنة . وقد باء تحريمه لأكل اللحوم، كتحريم غيره من محبي النظام ، بالفشل . وفى سنة ١٢٣٧ ، عندما عكف بندكت الثانى عشر (٢) باهتمام يفوق ما أبداه جريجورى التاسع على أمر إصلاح الرهبنة ، وجد نفسه مضطرا الى اجراء تسوية مع الفساد الذى استشرى فيها . فقد سمح بنظام « حجرة الرحمة » بشرط ألا يستعمل الحجرة أكثر من نصف عدد الجماعة فى أى وقت معين . وهكذا غدا فى مكنة الرهبان الآن أن يأكلوا اللحوم شرعا فى أيام معينة على التعاقب . الا أنهم ما أن ظفروا ببغيتهم حتى طالبوا بالمزيد . ثم اننا نجد بعد ذلك بقليل جماعة القديس بندكت فى انجلترا يشكون من أن التحريم على التعاقب شديد الوطأة جدا على « الرهبان الحديثين » الذين لم يعد بوسعهم إنكار الذات الذى تميز به أسلافهم .

(٢) وكان الرهبان قد تخلوا تماما عن العمل منذ أمد بعيد . وقد روى عن القديس مور Maur الذى كان تلميذا للقديس بندكت ، أنه قال بأن الأديرة ما دامت فى هذا الزمن تعيش فى رفاهية ملحوظة ، فليس ثمة ما يدعو الرهبان إلى العمل كفلاحين . وفعلا لم يلبث هذا القول أن غدا وجهة النظر العامة .

(١) شغل جريجورى التاسع الكرسى البابوى من سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤١ .
(٢) شغل بندكت الثانى عشر الكرسى البابوى من سنة ١٣٣٤ إلى ١٣٤٢ .

وعلى الرغم من أن الداعين إلى إصلاح الرهبنة حاولوا إحياء النظام القـديم للعمل اليدوى ، فان هذا الإحياء لم يكد يعيش لأكثر من جيـل أو إثنين . ذلك أنه قبل سنة ١٣٠٠ ، أصبح أمراً استثنائيا للغاية أن يعمل الرهبان بأيديهم فى الحقول أو فى أى حرفة يدوية وحتى الخدمات التى كانوا يقدمونها للزراعة، كانت تصـدر عنهم فى الغالب بوصفهم ملاكا للأرض لا عاملين فيهـا . وفى أخـريات القـرون الوسطى لم يكـن هنـاك فارق يذكر بين الرهبـان باعتبـارهم مـلاكا للأرض وبين العلمانيين . وتروى الدفاتر الحسابية عن الرهبان أنهم لم يكلفـوا أنفسهم مشقـة حـلاقة ذقونهم ، أو غسل ملابسهم ، أو طبخ طعامهم ، أو تنظيف وترتيب منازلهم، أو حتى القيام بتشذيب مزروعات ديرهم . إذ قام بكل ذلك خدم من الذكور أو الإناث . وكان الخدم فى الأديرة الكبيرة عادة بمعدل ثلاثة لكل راهبين.

(٤) هذا ، وقد أهمل أمر العـكوف داخل الدير : ففى العصور الأولى من تاريخ الرهبنة كان تعدد الملكيات والمنازل والامتيـازات يضطر الموظفين ورجال السكرستية (١) ، والكلارجية (٢) ، وموزعو الصـدقات والصـيدلى وغيرهم ، إلى أن يصبحوا رجال عمل نشطين ، يسعون دائما خارج الدير . وبناء على ذلك رسموا لأنفسهم خطة أساسها أن يكونوا، على أية حال، رجال أعمال دنيويين : ولقد شكا فيليب دى هارفنت Philippe de Harvengt ، الذى كان رئيسا لأحد الأديرة ، فى سـنة ١٢٠٠ من أن الرهبان أصبحوا

---

(١) رجال السكرستية هم المكلفون بالمحافظة على الأوانى المقدسة والملابس الكنسية وما الى ذلك من تجهيز الشموع وخلافه .

(٢) الكلارجية هم الحفاظ على الصندرة الكنسية .

منتشرين فى جميع الطرقات والمتاجر والأسواق . ويؤخـذ من سجلات الزيارات الأخيرة أنه لم يتخذ أى اجراء للمطالبة بتطبيق نظام الاعتكاف المشدد داخل الدير . وان قصة البحار التى وضعها تشوسر «Shipman's Tale» والتى ورد فيها أن راهب دير القديس دنيس كان يغادر الدير كلما عن له أن يزور أصدقاءه فى باريس ، إنما هي صورة طبيعية كاملة لما كان يجرى عادة وسارت الأمور فى الواقع على هذا المنوال إلى حد بعيد ، بحيث طبقت القاعدة على هذه المسألة فحسب بوصفها عقوبة استثنائية للغاية . ولقد أصدر المجمع الكنسى الانجليزى العام سنة ١٤٤٤ قرارا يقضى بالحبس لثلاثة أسابيع داخل الدير لكل راهب ينادى أخاه بأنه كاذب « mentiris » ، ولمدة سنة كاملة لكل من يضرب زميلا له من الرهبان عمدا ، وسواء أكان ذلك بقبضة يده أم بسكين . ولنا أن نتصور فى أيامنا هذه ما يقابل هذا الوضع فى المرسوم الصادر فى الولايات المتحدة الذى يقضى بفرض فترات مماثلة للامتناع الفعلى عن تعاطى الويسكى . فضلا عن مجازاة المواطنين المتهمين بمثل ذلك التلاعب أو التهجم .

ويمكن تتبع نفس الانحراف عن المثل العليا السابقة فى كل ناحية كانت تمارس فيها الحياة الدينية . ولقد دلت دفاتر الحسابات على أن ايرادات الأديرة الضخمة لم يكد يصرف عشرها على الأغراض الخيرية وغالبا ما كان الرهبان يضنون على الفقراء ، فلا يعطونهم المال الذى قرر الواهبون تخصيصه لهم ، والذى لم يكن ملكا للأديرة التى كانت مجرد حارسة عليه . ومن الجلى أيضا أن الأديرة قد عزفت فى كثير من الحالات عن استخدام اللغة اللاتينية فى كتب الخدمة الدينية ، ومن أجل هذه النهضة العلمية التى أنتجت أفضل ثمارها بانشاء الجامعات منذ حوالى سنة ١١٧٥ و«

بلدها (١) . ولم تساهم الهيئات الدينية القديمة الا بالنزر اليسير في هذا المضمار ، وقلما كان يبرز راهب أو قس من اولئك الآلاف يتميز بعلمه كمدرس فى الجامعة : وعلى الرغم من أن بندكت الثانى عشر حاول رفع مستوى التعليم باصداره مرسوما يقضي بارسال نسبة معينة من الرهبان والقساوسة للدراسة فى الجامعات ، فان هذه النسبة لم تتحقق فعلا . لقد ساهم الاخوان الرهبان حقا مساهمة كبيرة فى الحياة الجامعية ، وانتجوا لنا أعظم الفلاسفة المدرسيين . ولكن نشاطهم فى هذه الناحية إنما بذل قبل عهد الاصلاح الدينى . ففى سنة ١٥٠٠ كانوا أساسا عبارة عن طاقة محافظة أو رجعيـــة . وكان ثمة دليـل دامغ على وجود شعور عام بأن الجماعات الرهبانية قد أخلت بما كان تحت يدها من الهبات العديدة والامتيازات الخاصة ، حتى أصبحت بمثابة دولة داخل الدولة (٢) . وقد جاء النقد الشديد أحيانا من أقدر الكتاب وأعظمهم استقامة ، أضف الى ذلك أنه عندما يكتب أحد المدافعين عن المسيحية بحماس ونشاط

---

(١) حول التحديد الزمني لبداية الجامعات ، وتطورها ، والبراءات والمراسيم التي صدرت لصالحها من قبل الهيئات الدينية والعلمانية ، أنظر

C. H. Haskins, The Rise of Universities, 6 sqq.; C. G. Crump & E. F. Jacob, The Legacy of the Middle Ages, 258 sqq.; N. Downs (ed.), Basic Documents in Medieval History, 132 sqq.

(٢) لقد أثبت المؤلف فى كتابه Coulton, Five Centuries of Religion (cc. 26-28) الاستنتاجات التي توصل اليها ١٢٠ من شهود العيان المعاصرين وقد اتضح أنها كانها تقريبا استنتاجات غير مقبولة ، بغض النظر عن المبالغة والاغراق فى استعمال اللغة فى العصور الوسطي . (كولتون) :

زائدين رداً على هجمات اللولارديين وغيرهم من الهراطقة ، فانه ما أن يصل إلى موضوع الرهبنة حتى يجد نفســه أمام أحـد أمرين : إما أن يعمـد قدر استطاعته إلى التخلص من هـذا الموضـــوع ، واما أن يتخذ فى كتابته لهجة تنم عن التشكك وقصارى القول إن الحقائق فى أوربا هذا قد تجمعت بفضل مؤرخ رومانى كاثوليكى قوى الايمان من فرنسا ، فى قوله المأثور : « إن ما كتب فى العصور الوسطى ، سواء أكان صادراً عن عاطفة صادقة أم لا ، ينقد أخلاق الرهبان بعبارات فجة وبدون تمييز . » (١)

إن مجموعة المستندات الأصلية المتعلقة بالرهبنـة ، والتى تتميز بأهميتها الفائقة وسهولة تناولها بالنسبة للقـــارىء العادى ، إنما تتألف من زيارات الاساقفة لأبرشية لنكولون Lincoln فى منتصف القرن الخامس عشر . وهى التى نشرها وترجمها الاستاذ ا. هاملتون تومبسون A. Hamilton Thompson فى ثلاثة مجلدات لجمعية لنكولن للمحفوظات Lincoln Record Society . ويعادل المستندات المذكورة من حيث الاهمية ، بالنسبة للطالب ، المجلدات الأربعة التى نشرت فى مجموعة جمعية كامدن Camden Society Series ، تحت اسم «زيارات لأسقفية نورويتش» Visitations of the Diocese of Norwich ، ومجمـــوعة Collectanea Anglo-Premonstratensia . ولم يعن أحـــد بترجمة هذه المجلدات ونشرها نشراً جيداً . وتتناول هـــذه المجلدات السبعة عمليا القرن السابق للاصلاح الدينى فى انجلترا . وهى تشرح بوضوح لماذا ، عندما اتهم أحد الأصدقاء لنجارد Lingard الرومانى الكاثوليكى صاحب

(١) G. Mollat, Les Papes d'Avignon, 1912, 234 (كولتون) .

الفكر الحسر بأنه تخلى بكل بساطة عن قضية الرهبان فى كتابه «تاريخ انجلترا» - لماذا كتب ذلك الخطاب المفتوح الذى لا يزال موجودا ضمن محفوظات معهد أوشاو Ushaw College ، ليدلل على أن أية محاولة جديدة لاصلاح الرهبنة كما كانت فى عهد هنرى الثامن ، لا بد أن تنتهى الى كارثة مع مرور الزمن . (١) ولئن كانت وسائل هنرى لاسبيل الى الدفاع عنها ، ومهما قامت ثقتنا فى التقارير التى وضعت فى مناسبة الزيارات السريعة للأديرة وقتذاك - تلك الوسائل والتقارير التى وضعها هنرى لخدمة أغراضه السياسية فحسب — فان الزيارات الجادة التى قام بها الأساقفة فى القرن الأخير من العصور الوسطى إنما تحدثت مرارا وتكرارا عن نفس القصة ، ولم يكن جميع الرهبان على شاكلة واحدة بطبيعة الحال .

---

(١) نشر المؤلف الموضوع كله فى كتابه :

Coulton, Five Centuries of Religion, II, 458.

إقرأ كلمات لينجارد فى صفحة ١٨٤ من الكتاب الذى تناول تاريخ حياته ، تأليف هيل Haile و بونى Bonney ، والتى وجهها الى زميل روماني كاثوليكى كان قد سأله لماذا قال إن جميع الرهبان قد خضعوا لسيادة هنري الثامن . وهذه الكلمات هى : «إذا اضطررت الى الكشف عن السبب ، فلربما وافق الزميل على سكوتى عنه فى سجل التاريخ . ولسوف أجيب مع الكاردينال بول Pole بأن الرهبان فى تلك الفترة كانوا رجالا [illegible] والسيرة . كما كانوا فى غاية الانحلال والانحراف [illegible] الأصلية ... لقد كانوا طبقة منحلة من الرجال الذين [illegible] لفترة زمنية مؤقتة .» (كولتون).

ولكن نظام الرهبنة فى مجموعه قد فقـد مكانته المميزة له بوصفه قـوة عالمية كبيرة فى المجتمع . فثمة خمسة من أكبر الأديرة التى لدينا عنها معـلومات وافية ، كانت كلها حتما فى حالة سيئة . وهذه الأديرة هى : دير القديس البان St Albans ،ودير نورويتش Norwich ، ودير بيتربورو Peterborough ، ودير رامزى Ramsey ، ودير ولسنجهام Walsingham . وهنـاك أيضا أديرة أخرى ، كدير وستمنستر Westminster ، كانت تسير هى الأخرى نحو الانهيار . وليس لهذه الشواهد أى عـلاقة بما سجل ضد كثير من البيوتات الصغرى . وربما كان دير القديس البان أسوأها حالا . ولدينا تفاصيل أوفى عن ديرى بيـتربورو ورامزى : ويرجع الفضل فى ذلك الى أساقفة لنـكولن . ووصلنا تاريخ ما كان يجرى من الأحداث داخـل دير بيتربورو خـلال ثلاثين عاما متوالية . وهذا التاريخ عبارة عن سجل عـل للتبذير والفوضى والإهمال ، حتى فيما يتعلق باقامة الخـدمات الدينيـة بالـكنيسة . (١) وفى آخـر تقرير وردت مغامرات رئيس الدير باقترافه جريمـة الزنا مع ثلاث نساء باعتبار ذلك أمرا عاديا مألوفا . وبالرغم من أن الأسقف الزائر قد برأه رسميا بذلك الإجراء الرخيص ، ألا وهـو حله من الخطيئة (٢) ، فانه عاقب فى ذات الوقت اثنتين من بين النسوة الثلاث ، وهذا أمر له مغزاه ودلالته . وكانت الخدمات الدينيـة فى دير رامزى على غرار ما كانت عليه فى دير بيتربورو من الإهمال المخزى المشين :

---

(١) لخص المؤلف ذلك بايجاز فى عـدد يناير من سنة ١٩٣٠ من مجلة « التاريخ » "History" . (كولتون)

(٢) أى بالتطهر منها .

وإذا نظرنا إلى مختلف الزيارات السبعين المسجلة فى الأديرة فى أبرشية لنكولن خلال القرن الخامس عشر (١) ، ألفينا الرهبان أو الراهبات فى خمسة وأربعين حالة ، يخالفون بندا أساسيا هاما من البنود الواردة فى الأنظمة الديرية ، وهو القائل بأن حسابات الدير يتعين رصدها كتابة ومراجعتها وفقا للأصول المعمول بها : وثمـة دليل فى بعض الحالات على أن هذا الإهمال كان متفشيا منذ سنين ، وأن الدير كان غارقا فى الديون ، بينما كانت الأديرة آخـذة فى الانهيار . ثم صدر قانون صارم يقضى بمنع الجلوس للشراب بعد آخر قداس فى اليوم . ومع ذلك سجلت فى ستة وعشرين ديرا هذه العادة التي تقضى بمنع تعـاطى المشروبات ، والتى كانت تشفع أحيانا بالشكوى من أن الرهبان قد فقدوا بسبب ذلك قدرتهم على القيام بالخدمة الليلية فكثيرا ما أهملت القداسات إضرارا بالأرواح الصالحة . وانخفضت الصدقات فى ثلاثة وعشرين ديرا ؛ فضلا عما كان يرافق ذلك من الاختلاسات الضخمة من الأموال المخصصة للأعمـال الخيرية . كذلك أصبحت الأنظمة القاضية بالاعتكاف داخل الدير والصيام عن الدسم ، كما مهملا . وكان بعض الرهبان لا يعرفون قراءة كتب الصلاة التي تتلى فى القداس باللغة اللاتينية .

لذلك عندما قام هـنرى الثامن بالتآمر ضد الأديرة ومهاجمتها تحقيقـا لمصالحه السياسية وحاجته إلى المـال ، لم يلق صعوبة حقيقية فى الغائها : وعرف الناس ما اعترف به فيما بعد الكاردينال بول Pole ، وهو أن الرهبان

---

(١) نشرها باللاتينيـة والانجليزية الاستاذ ا. هاملتون تومبسون انظر: Lincoln Record Society, 1914, 1918, 1929 (كولتون) .

قد انصرفوا عن روح أنظمتهم المبكرة . ولم يكن التمرد الكبير في الشمال أو الحج أمرا خالصا لصالح الرهبنة . ومع ذلك فقد كان الناس فى الشمال حيث تدهورت الحضارة والمدنية ، أكثر اعتمادا على إعانة الأديرة لهم مما هو جار فى الجنوب . وكان هذا الشمال هو الشطر الوحيد من انجلترا الذى عانى من الاضطرابات الخطيرة . لقد كان بوسع الملك أن يجند مواطني الجنوب لقمع العصاة . وعلى الرغم من أن عملية تحويل الكثير من أملاك الأديرة إلى رجال الحاشية وإلى حديثى النعمة دون غيرهم ، قد زادت بلاشك من حدة الأزمة الاقتصادية فى القرن السادس عشر ، فان الزمن قد برر مبدأ هنرى السياسى ، إن لم يكن في جميع وسائل تنفيذه . وكانت النتيجة مايلى : أولا ـ وجدت الملكة مارى نفسها مضطرة إلى قبول مبدأ التحلل من الخطيئة باعتباره أمرا واقعا . ثانيا ـ إن البلدان الأوروبية التى منعت يد الاصلاح من أن تمتد إلى أديرتها ، كانت كلها ، إن آجلا أو عاجلا ، تضغط على تلك الأديرة ، ولكنها كانت تسمح لها بالنهوض ثانية قدر استطاعتها عن طريق هبات جديدة توقف عليها كما حدث في انجلترا مثلا . (١) ثالثا ـ ربما يكون الفقراء قد منوا بخسارة وقتية بسبب التحايل . وكثيرا ما كانت خسائرهم فادحة إلى حد لا يقبله العقل ، تحديا للأدلة الواضحة المدعمة بالمستندات . غير أن الفقراء الانجليز كانوا بوجه عام أفضل

---

(١) وتؤيد هذه النهضة بلا شك قيمة النموذج المثالى للرهبنة لعدد معين من أفراد الشعب . ولكنها لا تزال بعيدة عن أن تنهض مبررا للزيادة العددية والرجحان الاقتصادى للرهبان فى القرن السادس عشر . (كولتون) .

حالا منذ حركة الاصلاح الدينى من زملائهم فى البلدان التى أبقت على أديرتها مثل فرنسا وايطاليا واسبانيا . ومن المشكوك فيه أنهم لم يكونوا أوفر حظا وهم فى أسوأ حالاتهم ، خلال ذلك الجيل المضطرب بالثورة الدينية والاجتماعية . ومن المحقق أن الفلاحين البريطانيين والصناع الفقراء كانوا أقل بؤسا من الطبقات المماثلة لهم فى فرنسا فى ظل النظام القديم .

بعض المراجع للفصل السادس

Antony, C. M., In St. Dominic's Country. New York, 1912.

Berlière, V.,

1 - L'ordre monastique des origines au XIIe siècle. Paris, 1921.

2 - Le recruitement dans les monastères bénédictines au XIIIe et au XIVe siècles. Brussels, 1924.

Budge, E. A., The Paradise or Garden of the Fathers. 2 vols. London, 1907.

Butler, E. C,

1 - " Basilian Monks, " in Encyc. Brit., 11th ed., 1910.

2 - Benedictine Monachism. London, 1924.

Chesterton, G. K., St. Francis of Assisi, New York, 1924.

Clarke, W. K. L., St. Basil The Great : A Study in Monasticism. Cambridge, 1913.

Cranage, D. H. S., The Home of the Monk : English Monastic Life and Buildings in the Middle Ages. Cambridge, 1926.

Cuthbert, Life of St. Francis of Assisi. London & New York, 1913.

Eckenstein, Lina, Women under Monasticism. Cambridge, 1896.

Formoy, B. E. K., The Dominican Order in England before the Reformation. London, 1925.

Gasquet, F. A.,

1 - English Monastic Life. London, 1905.

2 - Rule of St. Benedict. London, 1908.

Grützmacher, G. K., Pachomius und das älteste Klosterleben. Freiburg, 1896.

Hannah, I. C., Christian Monasticism. New York, 1925.

Hannay, J. O., The Spirit and Origin of Chritstian Monasticism. London, 1903.

Harnack, A.,

1 - Das Mönchtum : seine Ideale und seine Geschichte. Giessen, 1895;

2 - Monasticism : its Ideals and History, and the Confessions of St. Augustine. An English Trans. by E. E. Kellett and F. H. Marseille. London, 1901,

Jarrett, B., Life of Saint Dominic. London, 1924.

Kingnsley, C., The Hermits : Their Lives and Works. London, 1885.

Leathem, W. H., The Life of St. Francis of Assisi. New York, 1926.

Luck, E. J., The Life and Miracles of St. Benedict by St. Gregory the Great. London, 1880.

Luck, E. J., The Little Flowers of St. Benedict, gathered from the Dialogues of St. Gregory the Great. London, 1901.

Mackean, W. H., Christian Monasticism in Egypt to the Close of the Fourth Century. London & New York, 1920.

Montalembert, Comte de, The Monks of the West. Trans. into English with Introduction by F. A. Gasquet. 6 vols. London, 1896.

Morison, E. F., Basil and his Rule: a Study in Early Monasticism. London, 1912.

O'Connor, J. B., Monasticism and Civilization. New York, 1927.

Power, E. E., Medieval English Nunneries, c. 1275—1535. Cambridge, 1922.

Robinson, P., The Writings of St. Francis of Assisi. Philadelphia, 1906.

Sabatier, P., Life of St Francis of Assisi. English Trans. by L. S. Houghton. London, 1894.

Sabatier, P. & others, Franciscan Essays. Aberdeen, 1912.

Salvatorelli, L., The Life of St. Francis of Assisi. Trans. from the Italian by E. Sutton. New York & London, 1828.

Smith, L. M., The Early History of the Monastery of Cluny. Oxford, 1920

Thompson, A. H., English Monasteries. Cambridge, 1913.

Thompson, E. M., A History of the Somerset Carthusians. London, 1895.

Wheeler, E. R, Women of the Cell and Cloister. London, 1913.

Workman, H. B., The Evolution of the Monastic Ideal: from the Earliest Times down to the Coming of the Friars. London, 1913.

Zöckler, D. O., Askese und Mönchtum. Frankfurt, 1897.

الفصل السابع

التجارة و الاسفار

كانت النقابة من أهم العوامل فى حياة المدينة فى العصور الوسطى. وترجع بعض هذه الاتحادات ، بنوع ما ، إلى ماقبل التاريخ . وهى تمثل غريزة التضامن للمحافظة على الذات ، وهى نفس الغريزة التى نجدها حتى بين الحيوانات . بيد أنها تمثل أيضا ، إلى حد بعيد ، جهدا بناء واعيا . فلم يقتصر الأمر على أن يقول المواطنون : « انا سوف ننشىء نقابة » إذ كان للسيد اللورد أن يقول هو أيضا : « انكم سوف تنشئون نقابة » ويمكن تتبع هاتين القوتين بوضوح فى أهم هذه النقابات ، ألا وهى نقابة التجار : ففى كثير من المدن كانت نقابة التجار تتألف من جميع الرجال الاحرار . وحيثما وجدت نقابة فى أية مدينة من المدن ، كانت هذه النقابة تمثل القوة الاساسية للرجال الأحرار وقد نمت نقابات الحرف مع تقدم الحياة فى المدينة ، كما نما اتحاد حرفة الحياكة واتحاد السروجية ، وهكذا . وأخيرا كان اكثر الاتحادات عددا هى الاتحادات الدينية . ولقد كانت بعض هذه الاتحادات صغيرة جدا . إلا أنه كانت هناك أيضا اتحادات أخرى كبيرة ذات سلطان . وفيها كان الأعضاء يجتمعون ليوزعوا الكسب فى صورة من المنافع الروحية ، ولمساعدة مرضاهم وفقرائهم . وهكذا نشأت الجمعيات الخيرية الوسيطة ؛ وكان الغاؤها أثناء حركة الاصلاح الدينى ، بحجة أنها خرافة ، ظلما فادحا .

كان نظام النقابات نافعا فى وقته ، وأعتقد أن الذين عرضوا هذه النقابات كنموذج لايامنا ، لم يواجهوا الحقائق كاملة . وقد عزز اقتنــاعى طالب من كامبريدج ، انقطع عدة سنوات للدراسة والبحث عن دليل يهديه إلى حقيقة عمل تلك النقابات ، بأنه من الضلال البين الحرص فى موضوع نقابة العصور الوسطى منذ أن كانت نظرية حتى غـدت حقيقة ماثلة . وحتى من النــاحية النظرية ، كثيرا ما كانت النقابة متجردة من عنصر الرحمة حيــال التنظيمات الأخرى المنافسة لها ، أو حيال المجتمع بوجه عام . ففى دربى Derby ، مثلا ، تأكد أمام لجنة ملكية سنة ١٢٣٠ أن نقابة التجار قد طغت على غيرها من أهالى المدينة . فقــد روى أنه عندما كان الصــوف أو الجلد المدبوغ أو الخــام يورد للمدينة لبيعه ، فانه إذا وضع أحد أعضاء النقابة قدمه على الصنف وعرض سعرا له ، لا يجرؤ أحد من خارج أعضاء النقابة على شرائه . كما أن صاحبه لا يجرؤ على بيعه إلا لرجل من أعضاء النقــابة ، أو على بيعه له بأغلى من السعر الذى عرضه : ويضاف الى ما تقدم « أن الربح الناتج من البيع لا يعود لصالح المدينة ، وإنما لصالح اولئك الذين ينتمون الى النقابة سالفة الذكر فحسب . » وتقول مرة أخرى « إن مثل هذه الوسائل إنما كانت تسهم ، إلى حد كبير ، فى إلحاق الضرر والظلم والفقر بالشعب . »

وهناك الجــانب السيء الذى يتعــارض مع ما كانت تقوم به النقــابة أحيانا فى سبيل الخير من أجل مساعدة المدينة فى شراء شحنة من الغلال أو الفحم بالجملة ، وتوزيعها على الأهالى بأسعار معقولة ، على غرار نظام التمـوين فى انجلترا زمن الحــرب : وحسنا فعلت النقابات ولا شك

بمحافظتها على مستوى العمل ومكافحتها الغش . ومع ذلك فانهـا لم تحرز فى أى من هذه الاهداف ، نجاحا كاملا . وكان الناس يشكون أحيـانا منذ أيام الجـد الاكبر لتشوسر ، من أنه لا يمكن الحصـول على صنف أصلى فى الحـوانيت ، تماما كما يشكون فى أيامنـا هذه من أنه لا يمكنك الحصول على خادم أمين أو العثور على طفل استوفى تربيته بالعصا : وقد تناول برتولد أوف ريجنسبـورج (١) Berthold of Regensburg (حوالى سنة ١٢٥٠) هـذا الموضوع أكثر من مرة فى عظـاته الشهيرة . واسمحوا لى أن أسرد بعض العبارات التى وردت عن تلك الحيل التى يلجأ المتلاعبون اليها فى كل حرفة وتجارة . وقد قمت بترجمتهـا كاملة فى كتابى « الحياة فى العصـور الوسطى » (٢)

« إن الغشاشين الأوائل إنما هم انتم الذين تعملون فى مهنة الملابس والحرير ، أو فى الصوف أو الفرو أو الاحذية أو القفـازات أو الأحزمة . إن الناس لا غنى لهم عنكم بحال من الأحـوال . إنمـا هم حتما فى حاجة الى الملابس لذا وجب عليكم أن تخدموهم ، وأن تقوموا بعملكم بذمة وأمانة، لا أن تسرقوا نصف القمـاش ، أو تلجـأوا إلى ضرب آخر من ضروب الغش ، أو تخلطوا الشعر مع صوفكم ، أو تشدوه بحيث يبدو طويل الفتلة ، وبحيث يظن المرء أنه حصل على قماش جيد على حين أنكم مددتموه

---

(١) برتولد أوف ريجنسبورج مبشر فرنسيسكانى، توفى حوالى سنة ١٢٧٢ .
أنظر : Shorter Camb. Med. Hist, II, 676.

(٢) Coulton, Life in the Middle Ages, III, 57 (كولتون) .

حتى صارت فتلته أطول مما يجب ، و بذلك تكونون قد حولتم القماش الجيد الى قماش لا فائدة منه إنه فى وقتنا هذا ، لا يتسنى لأى أمرىء أن يجد قيمة جيدة بسبب تزييفكم : فان المطر إذا ماهطـــل على أطرافهـــا لن يلبث أن يجوس فى داخلها . ومثل هذا الغش ملحوظ حتى فى الأحذية ، وفى أصناف الفرو ، وفى أعمال الدباغة فثمة رجل يبيع جلدا قديما على أنه جديد . وكم بلغت أعمالكم التى يشوبها الغش : إن أحدا لا يعرف ذلك جيدا كما تعرفونه أنتم ، وكما يعرفه سيدكم الشيطان ... أما أعضـاء الفريق الثـانى فيبـدو أنهم يشتغلون فى الأدوات الحديدية ... وهؤلاء جميعاً يجب أن يتصفوا بالصدق بحيث يمكن الاعتماد عليهم فى عملهم ، سواء أكانوا يعملون باليـومية أم بالقطعة ، كما يفعل كثير من النجارين والبنائين . ويجب عليهم ، إذا عملوا باليومية،الا يستسلموا للبلادة والمماطلة ليضاعفوا عدد أيام عملهم . وإذا كنت أيها البناء تعمل بالقطعة فعليك ألا تتعجل بانهائها تخلصاً من العمل فى أسرع وقت ممكن ، وبحيث يصبح المنزل الذى تعمل فى بنائه آيلا للسقوط خـلال عام أو عامين ، وانما يجب عليك أن تقوم بعملك فيه بصدق وأمانة كما لو كان هذا المنزل ملكا لك وأنت أيها الحداد ، لقد ركبت للجواد حـــدوة لا تساوى شروى نقير ، ومن ثم فالجواد لا يكاد يقطع بها ميلا وإذابها قد انكسرت فعلا ؛ وربما يجرى الجواد وقد غدا أعرج مما يتسبب لرجل أن يدخل السجن أو يفقد حياته . انك لشيطـان ، وانك لكافر ،ولا بد لك من أن تزامـل أترابك الذين كفروا من الملائكة . وأنت أيها التاجر ، إنما عليك أن تثق بالله ليجعـل لك مورد رزق تحصل من ورائه على الكسب الحلال ، لأنه قد وعدك بذلك بفمه الالهى . ومع ذلك فانك تقسم الآن بصوت جهورى بأن بضاعتك آية فى الجودة ، وأنك بذلك قد أكرمت المشترى ، ولقد أقسمت حانثاً أكثر من عشر مرات أو من

ثلاثين مرة بأسماء جميع القديسين . كما أقسمت بالله وجميع قديسيه على بضاعة لا تكاد تساوى خمسة شلنات ... وإذا ما أردت أن تشترى شيئا من الشعب الساذج البسيط ، فانك تركز كل ذهنك فى الطريقة التي تمكنك من الحصول عليه دون مقابل ، وأنت تنسج فى مواجهته فيضا من الأكاذيب ، وأنت تطلب من شريكك أن يذهب أيضا إلى السوق ، ثم تبتعد عنه لفترة ما لتسأله كم سيدفع للرجل فى بضاعته . ثم تطلب اليه أن يحضر ليعرض ثمنا أقل ؛ وعند ذلك يفزع القروى الساذج ، ولكنه لا يلبث أن يسر إذ يراك عائدا اليه . وهكذا تكون قد حصلت منه على البضاعة بغير حق ، وأنت تقسم له طول الوقت بقولك : « صدقنى ، بحق جميع القديسين ، إن أحدا لن يعطيك قدر ما أعطيتك أنا مقابل هذه البضاعة ! » ولكن ربما كان هناك رجل آخر على استعداد لينقده أكثر من ذلك . ومن ثم ، إذا أردت أن تحرر نفسك من الخطيئة المميتة فى مجال التجارة ، فاعمل على ألا تستخدم القسم فى ذلك . وانما يجب عليك أن تقول : « إذا لم يكن فى نيتك أن تشترى البضاعة ، فلربما رغب فيها شخص آخر . » وهكذا يجب عليك أن تبيع بأمانة بعيدا عن الكذب والتدليس . كما يجب على المرء أن يحافظ على حسن سمعته فى التجارة . فثمة آلاف من الناس قد عانوا الكثير من أعمال التدليس والخداع والتجديف مما لا يجرؤ امرؤ على وصفه »

أضف إلى ذلك أن القوانين الموضوعة لضمان وحدة الشكل فى العمل وأدواته ، لم تكن صالحة للابتكار ؛ وإنها لحقيقة أخاذة أن نعلم أنه بالرغم من أن ماركو بولو Marco Polo قد وصف أوراق البنكنوت الصينية المطبوعة قبل سنة ١٣٠٠ ، فلم يبدأ الناس فى تقليدها بطريقة بدائية إلا بعد ذلك التاريخ بمائة وعشرين عاما على الأقل ، عندما طبعوا عليها صورا مصغرة

للقديسين : ومن المشكوك فيه إن كان الحرير الصناعى مثـلا قد استطاع ، بصورة ما ، أن يشق طريقه من خلال نظم النقابات الوسيطة ، فى مواجهة تجار الحرير الذين استتب لهم الأمر ، وكانت مصالحهم تتعارض مع هـذه النظم . وقد شكلت الاتحادات الدينية بحيث تترتب عليها مزايا روحية ثابتة، كالقداديس والصلوات لأجل الأحياء ، والصلاة على أرواح الأعضاء الذين فى المطهر أو أرواح أقاربهم وكانت معظم الاتحادات إلى حد ماذات طابع دينى فقد كان أعضاؤها أحيانا يحضرون الخدمات الدينيـة جماعات ، بينما كانوا يدفعون أحيانا أخرى مايعادل مرتب كاهن احدى الكنائس الصغيرة الخاصة . وكانوا جميعا مصممين على أن يكون هنـاك مستوى معين للسلوك . فقد كانت توقع على الفرد غرامة إذا حضر اجتماعا بدون حذاء أو جورب ، أو اذا كان سىء السلوك . وإذا تشاجر عضوان كان الاتحاد يهب لمصالحتهما. وحدث أن اثنين من أعضاء نقابة تجار لايكستر Leicester تقاتلا علنـا فى سوق بوسطن Boston ، فغرمهما زملاؤهما برميلا من الجعة يشربها أعضاء الاتحاد وكانت هذه العقوبة مثيرة للايحاء . بيد أن أهداف النقابات إذا لم تكن فى الواقع بعيدة النظر دائما ، وإذا لم تكن أنظمتها التأديبية فعالة دائما ، فانما يرجع ذلك أحيانا إلى أحوال المجتمع بوجه عام وقتذاك . مثال ذلك أنه يوجد لدينا دليل تافه ، خلاصته أنه حيثما شرعت غرامات قانونيـة حتمية لمختلف المخالفات التى ترتكب ضد نظم التجارة ، لم يهتم القضاة بمحاولة تنفيذ هذه العقوبات كاملة بأى شكل : وكانت الغرامات التى ينطق بهـا القضاء لايكاد يؤخذ ربعها من المخالفين . واليكم مثـلا ، تحليل السيد و هدسن W. Hudson لسجلات محكمة نورويتش الموسمية فى سنة ١٢٨٩ . فقد كانت الغرامات نفسها أخف وطـأة مما نص عليه القانون ، إذ كانت تتراوح بين

ثلاثة بنسات وأربعة شلنات : وكانت جملة الغرامات السنوية اثنين وسبعين جنيها وثمانية عشر شلنا وعشرة بنسات . وكان هـذا المبلغ هو الذى قررته المحكمة . وإذا مضى على موعد استحقاق الغرامة عـدة شهور ، لا يجـوز للمحصلين تحصيل مايزيد على سبعة عشر جنيها وبنسين .

كتب المستر هدسـن يقـول : « من الواضح أنه مهمـا كان نظـام منع المخالفات من أن تمر دون اكتشافها فعالا ، فلـم يكن قوى الأثر فى الضرب على أيدى المخالفين لمنعهم من العودة الى ارتكاب المخالفة . هذا ، وقد كانت العقوبة الموقعـة على الأشخاص الذين يقترفـون المخالفـات الخاصـة بالتسعيرة الرسمية للجعة ، أخصب مورد للبلـدية . أما تسعيرة الخبز فلم يرد ذكرها إلا قليلا ، وربما كانت تعالج بصـورة أخرى . وكان سعر الجعـة محـددا طبقا لسعر القمح . كما كانت كل ربة بيت تقريبا من بين الأسر القيادية تقوم بتحضير الجعة وبيعها لجيرانها . وكانت تبيعها دائما بأغلى من السعر المحدد لها . ومن الواضح أن السلطات كانت تتوقع اتخاذ هذا السبيل ، لأن تلك السيدات كن يقـدمن للمحاكمة بصورة منتظمة ، وتوقـع عليهن الغرامات فى كل عام لنفس المخالفة . وكن يدفعن الغرامات ، ثم يكررن نفس العملية فى المستقبل كما كان الحال فى الماضى . وكثيرا ما كانت تمارس مثـل هـذه الوسيلة فى مختلف أنواع التجارة والأعمـال الأخرى . فثمة تجـار الأسماك ، ودباغـو الجلود ، وتجـار الدواجن ، والطباخون ، وغيرهم . وكانت الغرامة توقـع عليهم مرة واحدة ، سنة بعد أخرى ، لمخالفتهم القوانين التى تتعلق بعملهم . وبالاختصار بدلا من أن يحصل التاجر — كما هو الحال الآن — على رخصة لمزاولة عمله بشروط معينة ينتظر منه أن ينفـذها ، كان يرتبط هو بشروط

ينتظر منه أن يخالفها ، ثم توقع عليه الغرامة لمخالفتها . وكان يتم الوصول إلى نفس النتيجة المالية بطريقة أخرى . (١)

لقد قامت الحملة الصليبية الأولى فى أخريات القرن الحادى عشر : وكان من نتائج الحملات الصليبية أن دفعت التجارة دفعة كبرى إلى الأمام(٢) ولقد كان لنشاط النورمان الدائب قيمته الكبرى ، وهم الذين تركوا القرصنة إلى مدنية نسبية ، إذ ألقوا بأنفسهم فى مغامرة الحج الدينى ، كما كانوا يلقون بأنفسهم حتى ذلك الوقت فى غمار الحروب . وفى تلك الأيام كان الحج والحرب صنوين لا يفترقان ... ولم يكن الحجاج دائما على جانب كبير من الصبر . كما أن الأراضى الواطئة لم تكن دائما ممهدة ، فيما عدا الممرات الجبلية لذلك كان السفر فى قافلة كبيرة مسلحة أمرا عاديا . وكما يقول جيبون « كان اللصوص الذين تستهويهم ملابس الحجاج يتعرضون للقتل بسلاح أحد المحاربين . ولكن انجلترا ، على الرغم من تقاليدها الملاحية الموروثة عن السكسون والدانيين والنورمان ، لم تعمد بوجه عام الى خوض المغامرات البحرية الكبيرة . ويصف تشوسر القبطان الذى ركب معه للحج الى كانتربرى بأنه رجل ذو خبرة واسعة « وأن ذقنه كانت تهتز تحت ضربات العواصف . » ويبدو أن أبعد الحدود التى وصل اليها فى رحلاته كانت حدود جوتلاند Jutland (٣) فى الشمال الشرقى ، ورأس فينيستر Cape Finisterre فى اسبانيا «

(١) Records of the City of Norwich, I,cxxxviii (كولتون) .

(٢) انظر عن ذلك Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 162 sqq.

(٣) جوتلاند هى شبه جزيرة فى بلاد الدانيمارك .

وقد كانت السفن صغيرة الحجم ، وكانت عادة مكشوفة أو نصف مكشوفة . ولم تعرف البوصلة طريقها إلى اوروبا حتى عام ١١٥٠ تقريبا . وكان استخدامها حتى ذلك الحين يتقدم ببطء شديد ، حتى أن البحارة قلما غامروا بالابحار بعيدا عن الأرض بما يجاوز مدى البصر : ولقد عرف كثير منهم أن الأرض كروية : وكان يعتقد أن نصف الكرة الجنوبي بحر كله فيما عدا جبلا واحدا في الوسط ، حيث كانت الجنة الأرضية في مواجهة اورشليم تماما في نصف الكرة التي نعيش فيها . ولكي نعرف إلى أي حد ظلت الأرض والبحر مجهولا أمرهما ، وأية أمور مفزعة كانت تصدق طبعا عن هذه الاصقاع الغامضة، يتعين علينا أن نتعمق في دراسة قصة رحلات سير جون موندفيل (١) Sir John Maundeville . فالبراكين هي أفواه جهنم المختلفة ، وخرائب بابل والأهرام تعج بالتنانين والثعابين والحشرات السامة وفي بعض الأرجاء مردة طول الواحد منها أربعون كيوبيت (٢) Cubit (٢) . ولم يشاهد سير جون هذه الأشياء بعينيه، إذ قال : « لأني لا أميل إلى الذهاب إلى تلك الجهات ، فلم يصل انسان إلى هذه الجزيرة إلا وافترس في الحال » . وكانت إحدى ملاحظاته التي كررها مرارا عندما يصف قبيلة جديدة هي « انها قبيلة ذات طبيعة شريرة مفترسة » ، و « انها تأكل لحم البشر » . لقد كان سير جون فنانا عظيما ، وقد استغل هذه التجربة الممتعة الحافلة بالمخاطر إلى أقصى حد : إن مجرد التلميح يكون

---

(١) قام بترجمة رحلات موندفيل الى الانجليزية حنا بورجوني أنظر لانجر: موسوعة تاريخ العالم ، جـ ٣ ، ص ٧٢٨ .

(٢) الكيوبيت عبارة عن طول الذراع من المرفق حتى طرف الوسطى .

كافيا فى بعض الأحيان ، كما هو الشأن فى الرحلة إلى الأراضى المقدسة : « ونحن فى طريقنا إلى أرض السيد نمر بمدينة تدعى قبرص وبقلعة نيزبورو Neaseborough وبمدينة الشر Evil Town وموقعها عند أقصى بلاد المجر تقريبا . » وبعد ذلك الوقت بفترة طويلة لم يحذر قبطان فى عهد اليزابيث إحدى السفن التي كان يتعين عليها أن تجتاز بحر البلطيق من ريجا Riga إلى ليبك Lübeck ركابه من خطر القراصنة فحسب ، بل من « وحوش الاعماق أيضا» (١) وتوجد الآن فى السجلات أسماء بعض الانجليز بوصفهم ملاحين مغامرين فى البحار المترامية . أما الأمة فى مجموعها ، فقد أبدت نشاطا عظيما داخل حدودها الضيقة . وكثيرا ما كانت القناة نفسها مجالا للمغامرة بتلك المراكب الصغيرة وفى تلك الظروف الدولية التي كانت سائدة وقتذاك : ولقد قرأنا عن محارب نبيل استغرق زورقه خمسة عشر يوما فى عبور القناة ، وقد أصيب هو نفسه بمرض عضال حتى غدا وكأنه شخص آخر . (٢) وحدث أن حنا ملك فرنسا أخذ يافوبيدور أحد عشر يوما بين بوردو وساندويتش Sandwich . وقد بلغ من بشاعة إحدى رحلات ادوارد الثالث عبر القناة أن عزا ذلك الى أعمال السحر الناجحة التي دبرت له من جانب فرنسا . أضف إلى ذلك أن كل بحار فى القناة تعود أن يقوم بدور القبطان زمن الحروب . وكثيرا ما كان يقوم بدور القرصان عندما لا يجد مجالا

---

(١) فيما يتعلق بالفقرة كلها ، أنظر Coulton, Life in the Middle Ages, III, 9 (كولتون) .

(٢) Macaulay's Froissart, 83. cf . 134, 359 (كولتون) .

التعامل بحرب علنية . وقد عبر تشوسر صراحة عن ذلك عندما وصف بحارة قائلا :

إذا ما انبرى المقاتل وفاز فى الحرب على خصمه
دعا الطاقم اليه مسرحا كلا منهم إلى مينائه

أى أنه ألقى بالطاقم المنافس من فوق ظهر السفينة . وفى هذه المغامرة وتلك الحرب اللتين وقعتا فى القناة ، وقفت انجلترا وقفة ثابتة . وعلى العموم كان الانجليز ، عادة ، يتحكمون فى البحار الضيقة . (١) أما فيما يتعلق بالمغامرات الواسعة فى العصور الوسطى ، فينبغى أن ننظر إلى الرحالة الإيطاليين والبحارة البرتغاليين .

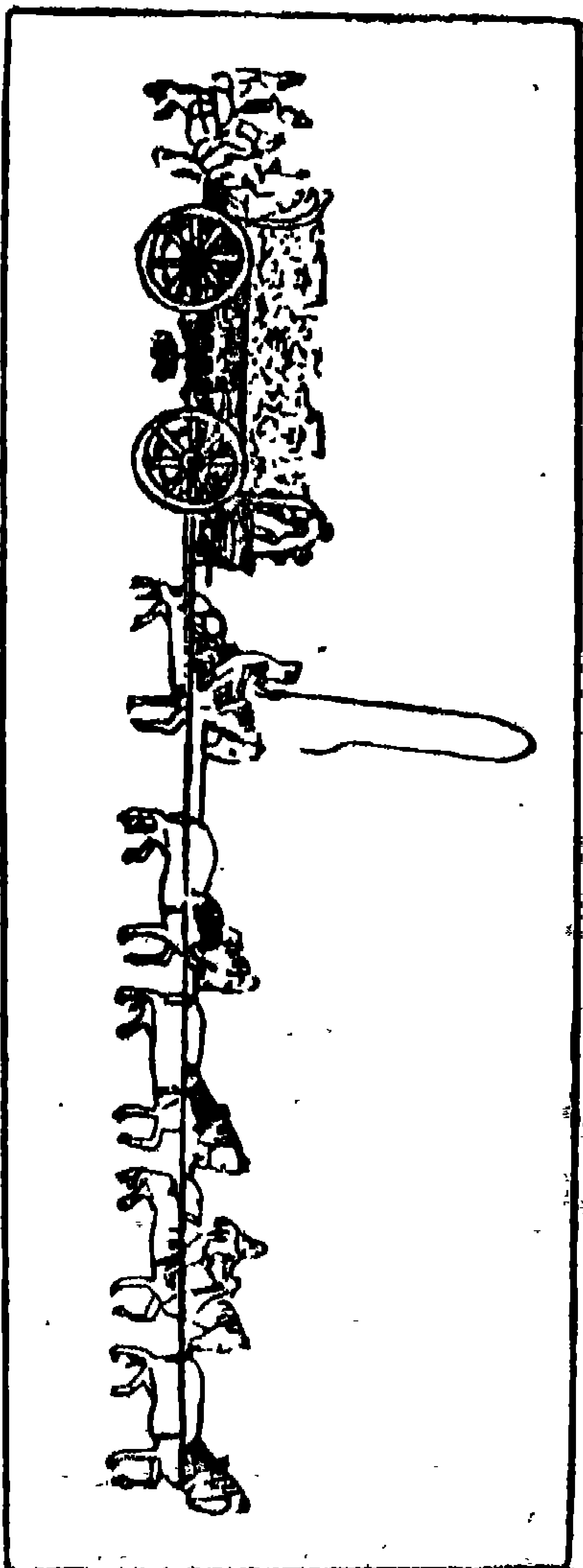
لقد أمدتنا جماعة الاخوان الفرنسيسكان بأقدم سجل لهذه الرحلات إلى الشرق الأقصى . (٢) ومن أشهرهم جون اوف بيانو كاربينى John of Piano Carpini ، ووليم أوف روبروك William of Rubruk ، وأودوريك أوف بردينون Odoric of Perdenone . وكان جون ، وهو رجل من أصل كريم ، قد بدأ رحلته التبشيرية سنة ١٢٤٥ ، وهى السنة التى تم فيها تأسيس الكنيسة الملحقة بدير وستمنستر . وكان جون فى أدق تعبير رجل دين وسياسة عنه مبشراً . وقد أرسله البابا (٣) إلى التتار آملا أن يتمكن ليس من

---

(١) المقصود بالبحار الضيقة مضايق انجلترا وايرلندا .

(٢) للمزيد من المعلومات والتفاصيل عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٢٣٦-٢٧٣ ، Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 233—59.

(٣) المقصود البابا انوسنت الرابع الذى جلس على الكرسى البابوى فى الفترة من سنة ١٢٤٣ الى سنة ١٢٥٤ .



رسم رقم ٦

عربة ارستقراطية في مستهل القرن الرابع عشر

ضمهم اليه حلفاء بدلا من أن يكونوا أعداء له في الحروب الكبرى التي استعر أوارها بين المسيحيين والمسلمين فحسب ، بل ومن حثهم أيضا على قبول السيادة الدينية لكنيسة روما . وفي سبيل هذه القضية المقدسة ، يروى جون صادقا أنه هو وزميل له فرنسيسكانى ، قد تحديا الجوع والعطش والحر والبرد والإرهاق البدنى والسخرية والأسر والتعرض للموت . والواقع انهما لم لم يتحديا كل تلك المتاعب فحسب ، بل عانيا أيضا كل المصاعب فيما عدا السجن والموت . ولم تكن الرحلات في العصور الوسطى أمرا هينا بحال من الأحوال ، بل كانت أمرا غير يسير بالنسبة لمبشر مبعوث إلى الشرق ؛ وحدث عندما كان جون في جنوب روسيا في بداية رحلته أن « خارت قواه حتى أشرف على الموت . » ولكنه واصل الرحلة متذرعا بقوة إيمانه وليس بحكمته . وامتطى الأخوان الراهبان جواديهما بثبات . وكانا يستبدلان كل يوم خمسة جياد ، كما عانيا من شدة الجوع حتى أشرفا على الموت ، طالما كان التتار يعيشون على أكل اللحوم . وكان هذان المبشران ملزمين بالصيام عن اللحم في الفترة من أربعاء الرماد حتى ليلة عيد الفصح . (١) وكانا يشقان طريقهما باذلين أقصى جهدهما خلال العواصف الثلجية التي تهب على مرتفعات آسيا الوسطى . وأخيرا وصلا إلى قصر امبراطور (٢) التتار في ٢٢ يوليو بعد رحلة استغرقت حوالى عام ونصف عام . وهناك أخذتهما الدهشة من جموع السفراء الذين جاءوا لتهنئة الامبراطور ومعهم ما يربو على خمسمائة

---

(١) أى من أربعاء أيوب حتى عيد القيامة .

(٢) يلاحظ أن كولتون يطلق على حاكم التتار لفظ « امبراطور » ، في حين أن المصادر والأصول العربية والأجنبية ، وكذلك المراجع الحديثة =

عربة محملة بالفضة والذهب والملابس الحريرية . » وأهداه أحــد الحكام الاقليميين سربا من الجمال المغطاة جميعها بأثمن الديباج والحرير المقصب ؛ ومرة أخرى عضهما الجوع بنابه فى بلاط الامبراطور وكثيرا ما استلقيا طوال الليل فوق الجليد ، وذلك خــلال عودتهما إلى وطنهما . ومع أنهما قد حصلا فى عودتهما على خطابات موجهة من الامبراطور إلى البابا ، إلا أنها لم تكن ذات قيمة سياسية (١ .

ولسوف ندهش عندما نتبين أن جون لم يتعلم شيئا من لغة التتار ، سواء قبل الرحلة أو فى أثنائها وقد قام بنفس هذه الرحلة وليم أوف روبروك ، وهو الآخر من الفرنسيسكان ، وذلك فى سنة ١٢٥٣ ، وهى السنة التى تمت فيها نوافذ مجمع رهبان دير وستمنستر . فقد ذهب بصفته مبعوثا من قبــل القديس لويس ملك فرنسا . وعانى وليم روبروك ما عاناه جون من قبــل ، فضلا عن بعض المضايقات . فهو يقر بأنه بدين جدا ، الأمر الذى كان يتعبه وهو على صهوة جــواده . وفيما يلى نص مادونه هاكلويت Hakluyt فى ترجمته القديمة لمذكرات روبروك التى تمتاز بدقتها :

= تطلق عليه لفظ « أيلخان التتار » أو « خاقان التتار » . وإذا كان هــذا اللفظ مسبوقا باسم الحاكم نفسه ،يقال مثــلا جنكيز خان أو كيوك خان، وهكذا . أنظر عن ذلك الفصل السادس من كتابى « لويس التاسع فى الشرق الأوسط » - ص ٢٣٥ وما بعدها .

(١) فيما يتعلق برحلة كاربينى وخط سيرها ونتائجها ، انظــر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ،ص ٢٤١ — ٢٤٢والحواشى. أنظر أيضا Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 238 sqq.

« من بين عشرين أو ثلاثين جوادا ، كنا نحصل دائما على أسوئها لأننا أجانب . فكان كل فرد يأخذ ما يقع عليه اختياره من أجود الخيل قبلنا . وكانوا دائما يمدونني بجواد قوى لأني كنت مفرط السمنة ثقيل الوزن . ولم أتجاسر على السؤال إن كان الجواد رهوانا يتبختر بلطف أم لا . كما لم أجرؤ على الشكوى بالرغم من أن الجواد كان في خطواته متعبا للغاية ، وإنما يتعين على كل انسان أن يقنع بنصيبه كيفما هبط عليه . وكنا عندئذ في أشد حالات الاضطراب . ذلك أن جيادنا كثيرا ما كانت تتعب قبل أن نصل إلى أية جهة مأهولة بالناس . واضطررنا أخيرا إلى ضرب جيادنا بالسياط ، ووضع ملابسنا على ظهور جياد أخرى . وكنا في بعض الأحيان نركب سويا على ظهر جواد واحد . وأما عن الجوع والعطش والبرد والعناء ، فلم تكن لهذه العوارض من نهاية . فكانوا لا يقدمون لنا زادا إلا في المساء . أما في الصباح ، فقد اعتادوا أن يقدموا لنا مشروبا خفيفا ، أو بعض البليلة المشبعة بسائل لا رتشافها بالملعقة . وفي المساء كانوا يقدمون لنا اللحم ، وبالذات كتفاً وصدر كبش من الضأن . كما كانوا يقدمون لكل شخص منا كمية محدودة من المرق لشربها ... وأحياناً كنا نجد أنفسنا مضطرين تحت ضغط الظروف إلى أكل اللحوم نصف مطبوخة أو نيئة تقريباً ، نظراً لعدم وجود الوقود لطبخها ، وبخاصة عند ما كنا نستاقي في الحقول، أو عند ما كان الليل يداهمنا قبل وصولنا إلى نهاية رحلتنا . ولم يكن من المناسب أن نجمع روث الجياد أو الثيران ، إذ كان يندر أن نحصل على شيء من الوقود خلاف ذلك ، فيما عدا القليل من الأشواك في بعض الأماكن حيثما وجدت . » (١)

---

(١) وللمزيد من المعلومات عن سفارة روبروك ومذكراته التي سجل فيها أخبار رحلته ومخاطراته في الشرق الأقصى ، انظر جوزيف نسيم يوسف: نفس المرجع ، ص ٢٥٤ – ٢٦٩ والحواشي ؛ Atiya, op. cit., 243 - 264

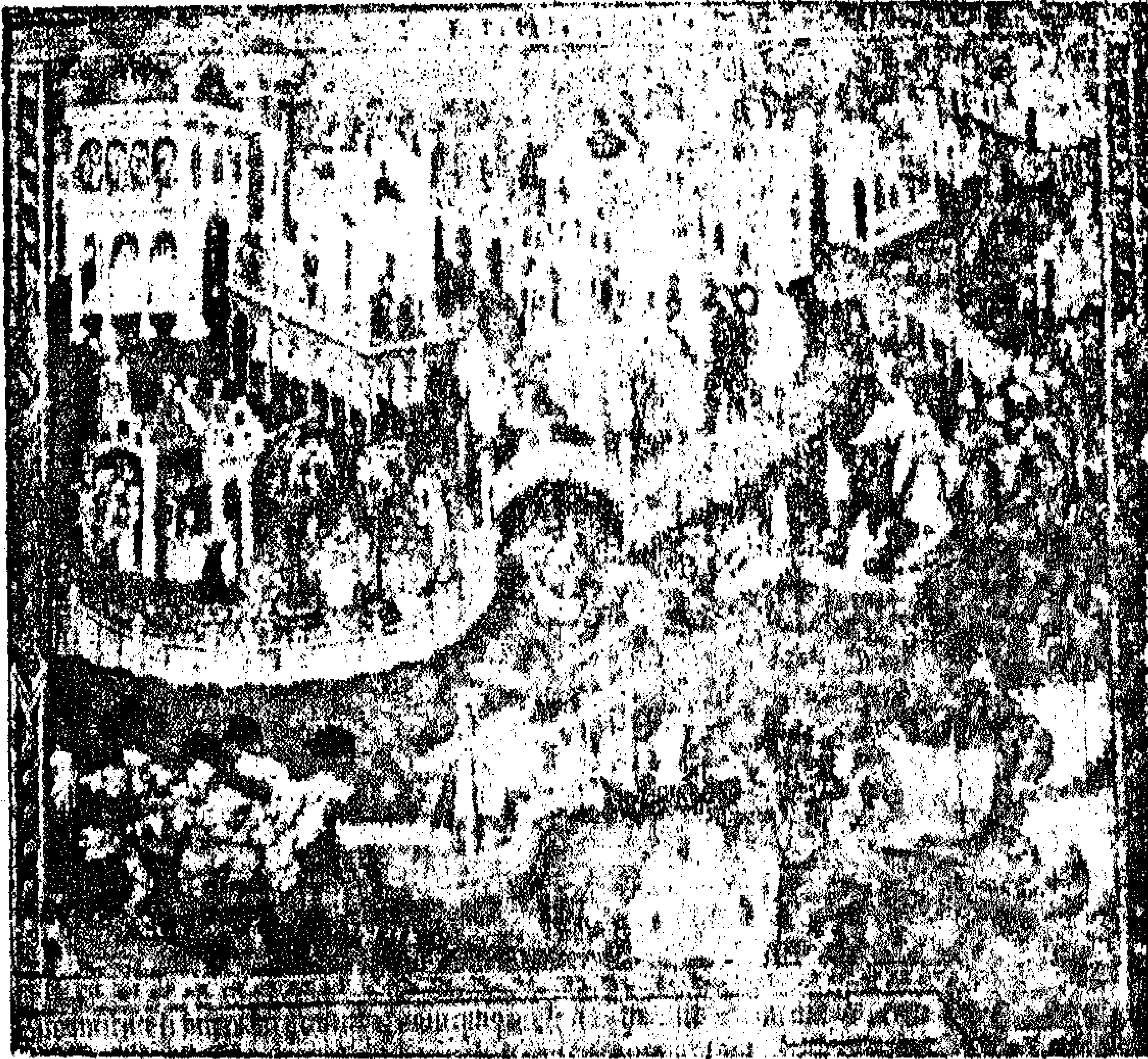
وبعد ذلك بجيلين ذهب أودوريك أوف بردينون إلى أبعد مما ذهب إليه زميله : فقد ركب سفينته وزار الموانى فى بحار الشرق متنقلا من ميناء إلى آخر حتى وصل إلى كانتون Canton ، ومن ثم يمم شطر آموى Amoy وفوشاو Fuchow وهانجشاو Hangchow ونانكنج Nanking وبكين Peking . وقد أمدنا بأوصاف حقيقية تثير الدهشة والغرابة ، عما شاهده من عجائب الصين . على أنه لم يسرد إلا القليل عن شئون التبشير بأدق معانيها . ولكن عند عودته إلى الوطن عبده الشعب كما لو كان قديسا ، وصدق أنه عمد عشرين ألفا من الوثنيين . ويحتمل أنه خدم فى إحدى الكنائس العديدة الكبرى فى الصين ، والتى أسسها حوالى سنة ١٢٩٢ جون أوف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو فرنسيسكانى أيضا .

ولقد درس جون أوف مونت كورفينو وزملاؤه من المبشرين لغة التتار بطبيعة الحال ، وربما لاحظوا كيف أن بعض التجار قد نجحوا حيث فشل المبشرون الأسبقون . ومن هؤلاء التجار تعلموا أساليبهم . وكان أشهر هؤلاء التجار هو ماركو بولو (١) البندقى وكان أبوه نيقولا وعمه مافيو قد شرعا سنة ١٢٦٠ فى الاتجار فى بلاد الصين ، ثم عادا إلى وطنهما . وفى سنة ١٢٧١ أعادا الكرة وقد اصطحبا معهما ماركو وهو بعد صبى فى نحو السادسة

---

(١) فيما يتعلق بتاريخ ماركو بولو ومغامراته وأسفاره فى القرن الثالث عشر ، أنظر : Eileen Power, Med. People, 34-70 . أنظر أيضا ترجمته العربية ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى – ترجمة محمد توفيق حسين – بيروت ١٩٥٧ ، ص ٤٩–٩٨ ، وكذلك جوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع ، ص ٢٧٠–٢٧١ والحواشى .

لوحه رقم ٦



آل بولو يبحرون من البندقية

عشرة من العمر . وأرسل البابا معهما آخرين من الرهبان الدومينيكان مبشرين ، ولكن هذين الرجلين قفلا راجعين من رحلتهما بعد أن ترامى اليهما أن حروبا قد اندلعت فى منطقة أرمينية . ومع ذلك لم ييأس التجار الثلاثة ، بل ساروا فى طريقهم عبر آسيا الوسطى ، وواجهوا البرد القارص فى أعلى هضبة فى العالم ، وبعد ثلاث سنوات ونصف وصلوا إلى بلاط الخان . وفى سنة ١٢٩٥ عاد ماركو إلى موطنه فى البندقية وقد أحاطه حظ أشبه ما يكون بالخيال ، بعد أربع وعشرين سنة من الترحال والاتجار . وقد روى أن أقاربه رفضوا التعرف عليه فى شخص هذا الغريب الذى انهكته لفحات الجو وغيرت ملامحه كثرة الأسفار . وعند ذلك شق عباءته المهلهلة ، فتدفق أمامهم فيض من الجواهر الكريمة مما أقنع أولئك القوم من أهالى البندقيـة بحقيقة شخصيته على الفور . ولا شك أن آل بولو قد شقوا طريقهم بفضل الأسفار والتجارة ، واحتفظوا لأنفسهم بمخابىء مليئة بالجواهر . إلا أن أبداننا ترتعش رعبا إذا تأملنا فى الأهوال التى تعرضوا لها ، ومنها المخاطرة بذبحهم فى أية لحظة إن أحدا لا يستطيع إدراك الأسس التى قامت عليها تجارة العصور الوسطى إلا إذا عرف هذه الحقيقة ، وهى أن تاجر (١) تلك الأيام كان بطبيعته تاجرا

---

(١) توجد وثيقة هامة كتبها احد تجار مدينة نابولى سنة ١٤٥٨ وعنوانها «التاجر» . وهى تعاصر سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وانتهاء حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . إذ تغيرت أوضـاع التجـار وتحسن مركزهم خلال اربعمائة عام (ق ١١-١٤) أكثر مما طرأ على أحوالهم من تغيير فى القرون التالية . إذ أن من أهم مظاهر التاريخ الغربى الوسيط قيام طبقة التجار واحتلالها مركزا جعلها تسيطر على اللوردات الاقطاعيين ، و تشكل=

مغامرا . وعندما يشكو الناس من أننا نحن شعوب القرن العشرين نعيش فى جيل مشوش قلق، يقولون « إن الرجل الفقير سيبذل قصارى جهده ليزيد من ثروته » . فإن صدق ذلك الآن ، فربما كان فى الماضى أكثر صدقاً .

إن الدولار الكلى القدرة لم تكون له قيمة قط أعلى مما كانت له ، مثلا ، أيام ماركو بولو . كما أنه لم يكن ثمة مزيد من الغش فى التجارة . ذلك أن ما ذكره برتولد أوف ريجنسبورج Berthold of Regensburg فى القرن الثالث عشر ، قد أيده تماما أثنان من معاصرى تشوسر هما جوار (١)

= المجتمع الغربى فى أخريات العصور الوسطى تشكيلا يختلف تماما عما كان مألوفا فى بداية تلك العصور . وفى القطعة المذكورة يتحدث الكاتب عن التاجر ومهنته وشرفه ، وصلة التجارة بالخير العام، والوسائل الشريفة التى يجب أن يتبعها التاجر فى عمله ، وأهمية روح التعاون فى مهنة التجارة ، وأخيرا ضرورة تمتع التاجر بحسن السمعة والسيرة والثقة الطيبة . بهذا يمكنه المحافظة على مركزه وشرف مهنته . أنظر الترجمة الإنجليزية للوثيقة المذكورة وتعليق نورتون داونز عليها N. Downs (ed.), Basic Documents in Medieval History, 184 — 186; cf. also R. S. Lopez and I. W. Raymond (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World, 416—418.

(١) ولد حنا جوار حوالى ١٣٣٠ وتوفى سنة ١٤٠٨ . وهو شاعر انجليزى واسع الثقافة والاطلاع ، وكان لا يزال يدرك أهمية اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة كوسيلة للتعبير . وكانت أول قصيدة هامة له هى Mirrour de l'Omme أو Speculum Meditantis وفيها يعدد العيوب =

Gower وبروميارد Bromyard . وفى الواقع يمكن القول بأن كل داعية إلى الأخلاق فى العصور الوسطى قد أيده أيضا . (١)

والمساوىء المتفشية فى مختلف طبقات المجتمع الانجليزى . لقد كان جوار خطيبا بارعا وداعية إلى التمسك بأهداب الفضيلة والأخلاق ، ولو أنه لم يكن عطوفا على الفقراء والمعوزين . وفى أفضل قصائده المكتوبة باللاتينية والمسماه Vox Clamantis ، أبدى فزعه من ثورة الفلاحين التى قامت فى انجلترا سنة ١٣٨١ ، ويبدو فى هذه القصيدة الحماس والإخلاص . هذا بينما نجد قصيدته المسماه Confessio Amantis التى ألفها بالانجليزية وفرغ منها حوالى سنة ١٣٩٠ مصطنعة متكلفة لا تتناسب بحال مع مقدرته الشعرية . أنظر :
Myers, England in the Later Middle Ages, 85.

(١) نقل كولتون باختصار ما قاله جوار فى دليل فى صفحة ١٢٥ من كتابه Chaucer and his England (كولتون).

بعض المراجع للفصل السابع

Atiya, A. S., Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Benedetto, L. F., (ed.), Marco Polo, Il Milione: Prima edizione integrale. Florence, 1928.

Cahun, L., Introduction a l'histoire de l' Asie, Turcs et Mongols, dès origines à 1405. Paris, 1896.

Cave, R. C. and Coulson, H. H., A Source Book for Medieval Economic History. Milwaukee, 1936.

Cheyney, E. P., European Background to American History. New York, 1904.

Cordier, H. (ed.), Sar Marco Polo, the Venetian. London, 1903.

Day, C., A History of Commerce. Part II. New York, 1907.

d'Ohsson, C., Histoire des Mongols, depuis Tchinguiz-khan Jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan. 4 vols. Amsterdam, 1852.

Dubeux, M. and Valmont, M., Tartarie, Béloutchistan, Butan et Népal. Paris, 1848.

Firebaugh, W. C., The Inns of the Middle Ages. Chicago, 1924.

Gross, C., The Gild Merchant: A Contribution to British Municipal History. 2 vols. Oxford, 1890.

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Tr. into French by F. Raynaud. 2 vols Leipzig, 1885-86.

Howorth, H., History of the Mongols from the 9th. to the 19th. century. 4 parts in 5 vols London, 1876—1927.

Komroff, M. (ed.), The Travels of Marco Polo. New York, 1926.

Lewis, A., Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500—1100. Princeton, 1951.

وقد نقل الى العربية تحت اسم لويس (أرشيبالد): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - ترجمة احمد محمد عيسى - القاهرة ١٩٦٠ .

Lopez, R. S. & Raymond, I. W., Medieval Trade in the Mediterranean World. New York, 1955.

Moule, A., Christians in China before the year 1550. London, 1930.

Newton, A. (ed.), Travel and Travellers of the Middle Ages. London, 1930.

Pelliot, P., Les Mongols et la Papauté. Three extracts from R. O. C. Paris, 1923-4.

Pirenne, H., Histoire économique de l'Occident médiéval. Bruges, 1951.

Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe. Tr. by I. E. Clegg. London, 1961.

Postman, M. M., The Cambridge Economic History of Europe. 1961.

Renard, G., Guilds in the Middle Ages. Tr by G. H. D. Cole London, 1919.

Seligman, E. R. A., Two Chapters on the Mediaeval Guilds of England. Baltimore, 1887.

Thompson, J., Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages. 1960.

Unwin, G., The Gilds and Companies of London. London, 1908.

الفصل الثامن

الفلسفة والفكر الحر

بعد هذه اللمحة الخاطفة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصور الوسطى، نعود قليلا إلى الوراء لنتتبع الفكر في نموه. لقد رأينا الكثير من الأفكار القديمة التي نبذها بطبيعة الحال المسيحيون الأول، كما استبعدت في فترة العصور المظلمة. ولنتعرف الآن كيف سارت الأمور في العصور الوسطى الحقيقية عندما استقر الغزاة البرابرة، وكانت الكنيسة تعمل تدريجيا على تحضرهم، ولو أن ذلك لم يتم دون شيء من التساهل الذي ترك أثره على المدنية المرتبطة بالتاريخ الوسيط في كامل شروطها، وإن كان في الواقع لا يمكن تتبعه في المجتمع الحديث.

لقد ساد الاعتقاد خلال أمد طويل، واعتمادا إلى حد ما على ميشيليه Michelet، وهو مؤرخ فرنسي عظيم ملهم ضالته فيما يتعلق بهذه المسألة عبارة بالغ فيها المؤرخ الكرونولوجي رالف جلابير Ralph Glaber، ساد الاعتقاد بأن البشرية كانت تتوقع نهاية العالم في سنة ١٠٠٠ ميلادية أو حواليها، وكان الناس وقتذاك يترقبون بشغف هذا الحدث. بيد أن ذلك الانتظار لم يكن في تقديره أكثر دقة مما شهد به القديس أوغسطين في حياته، ولذلك لما مضت السنون بعد سنة ١٠٠٠، لم يبق شيء سوى التوقع العام للعودة الثانية للمسيح(١)

---

(١) المقصود هنا عودة المسيح حسب اعتقاد المسيحية.

التى كان لها أثرها الفعال فى أذهان الناس عامة ، بحيث أن الحياة الدنيا كانت فى نظرهم أقل شأنا من الحياة الآخرة . وكانت هذه الفكرة ذات أثر منطقى فى أذهان المفكرين أصحاب الرأى الراجح ، بينما انطبعت بصورة مبهمة فى أذهان العامة ، وإن كانت آخذة فى التلاشى البطىء مع مرور الزمن . وبعد تلك السنة الحاسمة لم يعد ثمة غزوات بربرية ذات أهمية . كانت أوروبا قد استقرت تماما ، وأصبح التجديد ميسورا : فما أن بدأ العمل حتى أخذ يسير بخطوات ثابتة . وكانت هذه الحركة التقدمية فى سنة ١٠٠٠ ،وهى الحركة التى اندفعت بكل قوتها حوالى منتصف القرن التالى ، نهضة حقيقية لاشك فيها ، أشبه ما تكون بالنهضة المتأخرة التي نطلق عليها اسم « عصر النهضة » Renaissance . فقد هاجم الناس عن يقين المشكلات العظمى حول القدر والارادة الحرة وأصل الشر والتكفير عن الخطايا وحقيقة وجود المسيح فى القربان المقدس (الأفخارستية) ؛ وقد أبدى ابيلارد (١)

---

(١) ولد بطرس ابيلارد سنة ١٠٧٩ وتوفى سنة ١١٤٢ ؛ وهو من أشهر رجال زمانه فى علم الجدل ، كما أنه صاحب فلسفة الشك والتشكك فى كل شيء حتى فى طبيعة المسيح . عاش فى باريس ، وكان أستاذا فى جامعتها . ويعتبر بحق زعيم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر . فقد دعا إلى استخدام العقل وتطبيقه على كل ما يقع تحت يد الانسان ، قائلا إن الانسان يجب ألا يؤمن فى شيء قبل فهمه . وبنص قوله : « Nothing is to be believed unless it is understood » ونادى بتطبيق هذا المبدأ على الدين نفسه . ومن أهم آرائه أن الوساطة بين الخالق والمخلوق لا داعى لها ، وأن شعور الفرد بالندم على إثم اقترفه كفيل بأن يقربه إلى الله دون حاجة إلى الاعتراف على رجل دين . وهدفه من ذلك التقليل من سلطة الكنيسة حتى

Abailard ، كما أبدى جوهـــانزسكوتوس أريوجينا (١) Johannes Scotus Eriugena فى القرن التاسع ، استقلالا تاما عن التقـاليد المتعلقـة بدراسة كتابات آباء الكنيسة ؛ (٢) بل إنه باعد بينه وبين التقاليد القانونية مباعدة تامة (٣) كما باعد بينه وبين مذهب خلاص النفس عن طريق المسيح : قال

= ورجال الدين . فكان ان اضطهدته الكنيسة وحكمت عليه بالهرطقة سنة ١١٢٢ . ولكن ابيلارد واصل تعاليمه والتف حوله الاتباع من جـــديد، فاضطرت الكنيسة إلى العفو عنه . وأخذ خطر ابيلارد يشتد على الكنيسة بعد ذلك ، فحكم عليه البابا انوسنت الثانى بالهرطقة مرة أخرى . وانزوى بقية أيام حياته بدير كلونى الرئيسى بفرنسا عاكفا على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى ان وافته منيته سنة ١١٤٢ : ولا جدال أن فلسفة ابيلارد كان لها أثرها فى دفع عجلة التقدم إلى الأمام ، وتحرير الفكر الإنسانى من القيـود القديمة البالية ، مما هيأ الجو لظهور عصر النهضة فيما بعد : انظر يوسف كـــرم : الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط ، ص ٩٢ - ٩٤ ، عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٧٩ - ٨٤ ، Heer, Med. World, 79 sqq. Ker, The Dark Ages, 210.

(١) كانت غالة فى جيل أحفاد شارلمان وأحفاد أحفاده مركـــزا مشعا لمختلف أوجه النشاط الثقافى . وكان جوهانز سكوتوس اريوجينا من أبرز قادة الغرب فى الناحية العلمية وقتذاك . والى جانبه اشتهـر أشخاص مثل لوبوس اوف فريير ، وأجو بارد الليونى ، وسيدوليوس سكوتوس ، وهنكمار الرعى . انظر LeMonte, op. cit., 160

(٢) هم الكتاب المسيحيون فى القرون الخمسة الأولى .

(٣) المقصود بذلك التقاليد التى كانت تفضل الأخذ بأحكام القانون على الأخذ بأحكام الكنيسة .

ابيلارد : « إن دم المخلص لم يكن ثمنا للشيطان دفع له من أجل خلاص الإنسان باعتباره تكفيرا مقابل خطيئة آدم ، وإنما كان تضحية ربط الله نفسه بنا عن طريقها اكثر مما كان مرتبطا بنا من قبل عن طريق الحب . » ولدينا هنا سابقة لوصف دانتي الرائع للحب الذى يجلب الحب بدوره ، أى « الحب الذى لا يترك محبا دون أن يكون له من يبادله هذا الحب . »

ويرى القديس برنارد (١) St. Bernard ان اعتقاد ابيلارد باستخدام العقل فى علم اللاهوت أمر لا يمكن قبوله . لقد كان هذا الرجل « قانعا بألا

---

(١) ولد القديس برنارد اوف كليرفو سنة ١٠٩١ ، وهو أكبر ممثل للتفكير الدينى الوسيط ، ومن الشخصيات البارزة التي أخرجتها جماعة الاخوان السسترشيان . وكان من المتحمسين للنظام البندكتى بعد الاصلاحات التى أدخلت عليه . كما كان متصوفا منكـرا لذاته ، أسس ديره المعروف فى كليرفو وأصبح رئيسا له . وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق . فهو الذى حسم النزاع البابوى سنة ١١٣٠ ، وقضى على الانقسام الكنسي باعادة انوسنت الثانى الى روما . وكان البابا ايوجين الثالث من تلامذته ، وإليه يرجع تأسيس جماعة الفرسان الداوية . وهو الذى ساعد فى الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية . كذلك وجه عناية فائقة للدرس والكتابة والتأليف . وهو فى فلسفته وتفكيره يقوم بالدفاع عن تعاليم الكنيسة والقضاء على أى بادرة تنم عن الهرطقة أو الخروج على التعاليم المسيحية . وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع الفكرى بينه باعتباره ممثلا للفكرة الدينية القديمة وبين ابيلارد زعيم الفكر الحر فى القرن الثانى عشر . ولذلك يعتبر برنارد بحق اكبر معبر عن التفكير الدينى الوسيط . انظر: Heer, Med. World, 79—87 . راجع أيضا LaMonte, The World of the Middle Ages, 404—406, 564—565; Painter, Hist of the Middle Ages, 143, 147, 210, 212.

يرى شيئا حالكا من خلال منظاره ، وإنما يجب عليه أن يواجه الأمور صراحة . » وكان برنارد على يقين من أن أبيلارد مدان بلا منازع . ولكن عقارب الساعة لا يمكن أن تعود إلى الوراء . ومن ثم انتصر مذهب ابيلارد فى نهاية الأمر فى عهد مفعم بالنشاط والتعطش إلى العلم . وكان أى بحث أو نقاش موضع ترحيب طالما أنه يتمشى صراحة فى نطاق الحدود التى رسمها الكتاب المقدس وأقرتها المجامع الدينية الكبرى . ولقد رأينا كيف أن كنيسة العصور الوسطى حافظت بثبات على كل ما أوحى به الكتاب المقدس ، كما يجب أن تتمسك به أكبر الطوائف الدينية .

وكانت قرارات المجالس الدينية قلما تحترم . وقد بلغت الجرأة ببعض المفكرين أن يعارضوا صراحة كبار الآباء مثل القديس امبروز (١) St. Ambrose والقديس اوغسطين والقديس جيروم والقديس جريجورى

---

(١) القديس امبروز هو أسقف مدينة ميلان فى عهد الامبراطور الشاب فالنتيان الثانى (٣٧٤ - ٣٩٧) ، و من الأعمدة التي كان يرتكز عليها عرش هذا الامبراطور الغربى . ويقال انه وقف ضد رغبة الامبراطور عندما أمر ، تحت تأثير أمه الامبراطورة اوجستينا الأريوسية ، بالتنازل عن كنيستين فى ميلان لأتباع المذهب الأريوسى هناك . وكانت الهرطقة الاريوسية قد انتشرت فى شمال أوروبا ، لاسيما بين القبائل الجرمانيـــة المتبربرة . انظر :

Ker, The Dark Ages, 205 sqq.; Shorter Camb. Med. Hist., I, 68—70; Barrow, The Romans, 195. cf. also LaMonte, The World of the Middle Ages, 77, 84; Painter, Hist. of the Middle Ages, 15, 18.

الذين كانوا يتمتعون بمكانة اسمى من غيرهم . وكان الجدل والمناقشة يجدان فى نطاق هذه الحدود تشجيعا قويا يتيح لنا أن نطلق عليه مايعرف بأسم « نهضة العصور الوسطى » . وقد اتبع مذهب ابيلارد باستخدام للمنطق تلميذه بطرس اللمباردى (١) Peter Lombard ، وهو أسقف باريس الذى يعتبره الجميع أول قادة الفكر الفلسفي التقدمى فى القرون الوسطى . وقد تدرج مذهب ابيلارد الفلسفي أول ما تدرج فى كتابه « نعم ولا » « Sic et Non ». ففي هذا الكتاب الشهير ، المقدم له بديباجة مأثورة عن تفسير الكتاب المقدس ، أخذ ابيلارد عن الكتاب المقدس أو عن الآباء ما بدا له من الآيات التى يبدو التناقض فيها لترتيبها بدقة بقصد المقارنة . وبذلك قدم موضـوعات خصبة للمناقشة ، ومن هنا جاء العنوان المذكور للكتاب . وقـد عكف بطرس اللمباردى على إعداد هذا العمل فى كتابه « الجمل » « Liber Sentiae » ، وهو أوفى من سابقه ؛ وقد حاول فيه التوفيق المعقول بين هذه الآيات ، الأمر الذى تجنبه ابيلارد . وسرعان ما غدا كتاب الجمل هو الكتاب المنهجى لعلماء اللاهوت وشكا روجر بيكون من أن هذا الكتاب كان فى أيامه أغنى بالمرة عن دراسة الكتاب المقدس ، ومن أن الناس كانوا يبنون مناقشاتهم

---

(١) بطرس اللمباردى هو أحد تلامذة ابيلارد ، وصل إلى مركز أسقفية باريس ، وقام بنشر تعاليم استاذه ومبادئه التى ضمنها فى كتابه المعـروف بإسم « كتاب الجمل » الذى غدا مصدرا رئيسيا فى دراسة علم اللاهوت فى الفترة الباقية من تاريخ القرون الوسطى . انظـر عن ذلك : Shorter Camb. Med. Hist., I, 626, 629; Monroe, Hist. of Education, 323; cf. also LaMonte, The World of the Middle Ages, 564-565, 572.

على النصوص غير الكاملة المقتبسة من الكتب المقدسة ، بدلا من أن يعودوا أنفسهم على تفهم هذه النصوص كاملة .

وهذا يسوقنا الى الحديث عن الفلسفة المدرسية والفكر الحر الوسيط Scholasticism. وأوضح تعريف لهذه الكلمة إنما يتضح من اشتقاقها وتاريخها . فقد كانت تعنى تعليم الفلسفة واللاهوت فى دور العلم ، وكانت الجامعات تحتل المكانة الأولى فى فن الحوار والمناقشة فى العصر الوسيط . وكان العمل فى دور الفكر هذه التى أحرزت تقدما فى نهاية القرن الثانى عشر ، يتم طبقا للوسائل التى كانت تعتبر طبيعية لعصر كاد أن يكون محروما من الكتب ، وإن كان متعطشا اليها . وكان للمدرس وحده بطبيعة الحال كتابه المدرسى ، وكان يناقشه مع تلاميذه فى الفصل على طريقة سقراط ، أى بوسائل المنطق، أو على طريقة السؤال والجواب . وقد احتفظ التعليم فى العصر الوسيط حتى النهاية بآثار من طابعه المنطقى الأصلى ، كما يبدو فى أحسن صوره فى كتاب « الكامل فى اللاهوت » Summa Theologiae لمؤلفه القديس توما الأكوينى . ففى هذا الكتاب كان كل موضوع مقسما إلى أربعة أجزاء . إذ يسرد المؤلف أولا المناقشات الهامة التى تتعارض مع وجهة نظره المؤدية إلى النتائج الحقيقية ، ثم يتلو ذلك تلك التى تؤيد وجهة نظره ، ثم يصدر هو بنفسه حكمه النهائى عليها . وأخيرا يعمد إلى تفسير الاعتراضات الظاهرة التى سبق ذكرها واحدة بعد أخرى . وبعبارة أخرى نراه يمثل أربعة أدوار هى : دور المدعى ، والمدعى عليه ، والقاضى الابتدائى ، ثم قاضى الاستئناف . وكان لهذه الطريقة ذات الطابع المميز أثرها فى عدد من الموضوعات وهى : الكتاب المقدس ، وكتابات

الآباء، وفلسفة أرسطو التي كانت تتخللها بعض أفكار افلاطون وبخاصة عن طريق الافلاطونية الحديثة . ولقد ظل جانب كبير من تراث أرسطو باقيا ، حتى خلال العصور المظلمـة ، في تراجم بيوثيوس (١) Boethius : وفي نهاية القرن الثاني عشر كانت قد اكتملت فلسفة ارسطـو ، أولا عن طريق التراجم عن النصوص العربية والتعليقات عليها، ثم عن طريق النصوص اليونانية مباشرة. ويرجع الفضل في ذلك إلى عدد من طلاب العلم مثل توما الأكويني،

ولنا أن نتخذ مثلا طيبا لأسلوب الفلسفة المدرسية في مناقشة القديس توما عن كيفية معاملة المراطقة . ويجب أن نتذكر أنه لم يكن للاهوتي المؤمن في ذلك العصر حرية الخيار في بعض الأمور . فلم يكن مسموحا له أن يتشكك إطلاقا في أي أمر يبدو أن السلطة الكنسية قد أقرته . لذلك اعتمـد القديس توما ، بحكم الضرورة ، على المعلومات المعروفة في العصور الوسطى عن النعيم والجحيم ، وعلى الرأي القائل بأن الإنسان عندما يلفظ آخر أنفاسه يكون الأمر الوحيد في الغرب الذي يحسم ما بين أبدية تفوق فيها السعادة كل حد

---

(١) بيوثيوس هو أحد المفكرين الذين تابعوا المنهج الاوغسطيني ، حاول أن يرسي أسس الديانة المسيحية ويضع قواعدها ، كما فعل آباء الكنيسة الأول. كما عمل على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة ، تلك المحاولة التي تعد مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة التي كانت قد انتهت في أوائل القـرن السادس وبين فلسفة العصور الوسطى الواقعة بين القرن التاسع والقـرن الرابع عشر أو الخامس عشر . أنظر عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ، ص ٦٠ - ٥٩ . وكذلك Ker, op. cit., 103—117 .

وبين عذاب لا يدركه الوصف ، هو معرفة ما إذا كان قد توفى فى ظل إيمانه بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية أم لا . ويعتبر عـــدم الايمان ألعن الخطـــايا والآثام . ولو أن عدم إيمان الوثنيين أو اليهود يبعد عن الحقيقة أكثر من عدم ايمان الهراطقة ، إلا أن خطيئة المهرطق تكون أعظم من ذلك ، وهذا الأمر له أهميته من حيث مسألة الإلزام الديني . ذلك انه لا يجـــوز الزام اولئك الذين لم يدخلوا قط فى المسيحية على اعتناقهـــا قسرا . إلا أنه يجب ارغام الهراطقة والمرتدين على العودة إلى المسيحية ، ولو بالالتجـــاء إلى استخدام القوة معهم لأداء ما وعدوا به ضمنا . ومن حق المؤمن أن يرتبط بمعاملات مع الوثنيين واليهود ، ولكن لا يجوز له ذلك مع الهراطقـــة . ثم أنه لا يجوز السماح لأية فئة من غير المؤمنين بأن تتسلط على المسيحيين الكاثوليك . ومن ثم لا يجوز لأى يهودى أن يستخدم مسيحيا . ولكن ذلك كان مباحا لذوى العقائد الدينية من غير المؤمنين بقـــدر ما يظهرون من تأييد للعبادة المسيحية الحقة ، مثل بعض الطوائف اليهودية التي سبق أن رمزت إلى تحليل الكنيسة دون سواها من الطوائف . وليس من الجائز تعميد أطفال غير المؤمنين ضد رغبة ذويهم . وعلى الرغم من أن الهراطقة لا يستحقون أية رحمة ، إلا أنه يجب تحذيرهم مرة ومرتين . فاذا ظلوا بعد ذلك متشبثين بهرطقتهم ، وجب إذن استئصال شأفتهم تماما من هذه الدنيا ، لأننا إذا كنا نعدم مزيفى العملة وغيرهم من الأشرار ، فمن باب أولى قتل الهراطقة المتمسكين بأفكارهم . ومع ذلك فانه مهما تكررت عودة أى مهرطق إلى الهرطقة ، فلا يجوز اطلاقا حرمانه من الغفران السماوى إذا ندم على هرطقته وعاد إلى حظيرة الكنيسة . أما الغفران الدنيوى فلا يناله إلا مرة واحدة ، فاذا عاد بعد ذلك إلى الهرطقة حق عليه

الموت ومصادرة متاعه . وعندئذ لا تدفع له أية عقوبة أخرى لانقاذه ، وإلا وجب أن يكون كل ما يكنه المجتمع من خير كفيلا بأن يراعى تماما كل اعتبارات الرحمة بالنسبة لهذا الفرد .(١)

وقد تم استنتاج ذلك كله بواسطة المنطق المدقق السليم، من الآراء الأساسية المتفق عليها في المسيحية الأصيلة في القرون الوسطى : ولا يسعنا أن نتهرب مما توصل إليه الأكوينى من نتائج إلا إذا أنكرنا منطقه أو تجاهلناه . والواقع أن هذه الاستنتاجات انما تنطوى ضمنا تحت ذلك المنطق .

وعندما يتحقق هذا الترابط بين المنهج والموضوع ، فهو لا يحـدد معنى كلمة الفلسفة المدرسية فحسب ، التى نعنى بهـا تطبيق تلك الفلسفات المشار إليها على أصول الدين ، وإنما يفسر أيضا الخصائص الرئيسية التي تميزت بها فلسفة القرون الوسطى . وتتفق الفلسفة الوسيطة مع الفلسفة القديمة فى اعتماد كل منهما على المنطق ، ولكنها تختلف عنها من حيث أنها تعتمد أساسا على شكل معين من الفكر التقليدى كان معظمه شديد الخطـورة ، وكانت معارضته محرمة تحريما باتا . وكان هذا القيد أضيق مما يبدو لنا . فقد تمتعت مدارس القرون الوسطى بحرية أوسع من تلك التى تمتعت بها المدارس التابعة للبابوية

(١) كانت مثل هذه المناقشات حول الهرطقة وغيرها موضع جدل ونقاش واهتمام زائد من الكنيسة والمفكرين فى العصور الوسطى ، وفيها وضعت الكثير من البحوث والمؤلفات قديما وحديثا .

منذ مجلس ترنت (١) Council of Trent . وقد أصر الكاردينال نيومان Newman على ذلك مشددا وبصورة مبالغ فيها . ومع ذلك فقد ظل هذا القيد حقيقة ماثلة . وكان يباعد بين كل من الفلسفة المدرسية الوسيطة والفلسفة الحديثة ، بأشد مما يباعد بينها وبين الفلسفة القديمة . وقد اضطر أكثر اساتذة العصور الوسطى جرأة وأعرقهم أصالة إلى الخضوع للتقاليد إلى حد كان يمجه أتباع مذهب كل من أرسطو وافلاطون ، وبصورة بلغ عنفها نفس ما بلغته بالنسبة للفلاسفة غير اللاهوتيين في العصور الحديثة . ولم يكن وليم أوف اوكهام (٢) William of Okham أعظم فلاسفة العصور الوسطى

---

(١) عقد مجلس ترنت فيما بين عامى ١٥٤٥ و١٥٤٦ ، للنظر فى مشروعات الاصلاح الكنسى والوضع البابوى بصفة عامة بعد أن أخفقت المجالس السابقة فى اتخاذ اجراءات حاسمة في هذا الصدد . وقد أصدر المجلس المذكور عدة قوانين هدفها اصلاح الجهاز الكنسى البابوى . أنظر: Cragg, Church and Age of Reason, 21—2.

(٢) ولد وليم أوف اوكهام سنة ١٢٩٥ وتوفى سنة ١٣٤٩ . وهو من الاخوان الفرنسيسكان ، درس فى اكسفورد وعلم فى باريس . وقد اشتهر بتحرره من كل الفلسفات المدرسية المعروفة فى القرون الوسطى . كما أثار حركة قوية تتصل بنقد الفلسفة والفصل بينها وبين الدين ، والفصل بين السلطتين الدينية والمدنية . ولذلك يعتبر اوكهام بحق مؤسس الفكر الحديث. ومن مؤلفاته « شرح على الأحكام » الذى يتضمن مذهبه الفلسفى ، و «الشرح الذهبي » فى المنطق ، وكتاب « مائة قضيــة لاهوتية » ، وكتاب « المجموعة المنطقية » . أنظر يوسف كرم : الفلسفة الأوربية ، ص ٢٠٠-٢٠٨ ، عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٨٢-١٩٠ ، Myers, England in the Late Middle Ages, 73-5.

المتأخرة شجاعا ومجددا فحسب ، وإنما كان ثائرا حقيقيا على البابوية خلال سنى حياته (١٣٠٠-١٣٥٠) . ورغم إصراره المتكرر على الحرية ، فقد كان مترددا إذا قورن بمعاصره الطبيب مارسيليوس أوف بادوا (١) Marsilius of Padua . وظل الفكر ، ضمن الحدود المسموح بها ، نشطا قوى التأثير إلى أقصى درجة طيلة أجيال عديدة . ولقد صدم أحد القساوسة الاقليميين حين نما إليه أن نزاعا قام بين اخوانه الرهبان الفرنسيسكان فى اكسفورد حول «ما إذا كان الله موجودا أو غير موجود» . وعندما تناول القديس توما الأكوينى الأسئلة العشرة الأولى من كتابه «الكامل فى اللاهوت» ، أحس بهاتف يدعوه إلى المناقشة فيما إذا كان الله موجودا ، وهل هو كامل ، وهل هو الخير الاعظم ، وهل هو أبدى لا نهائى . وسعى للوصول إلى جواب عن كل اعتراض واجهه قبل أن يموت .

ومع ذلك لم يتسن للكثيرين الوصول إلى إجابة عن تلك المسائل والاعتراضات . وعلى الرغم من الاحتجاجات الرجعية ، فقد كانت المسيحية فى العصور الوسطى قوية جدا ، حتى أنها لم تتخل عن توجيه العقل الانسانى الى المناقشة فى نطاق الدائرة المسموح بها . وهكذا كان لأبيلارد الغلبة على

---

(١) مارسيليوس اوف بادوا طبيب ومحامى وفيلسوف من اتباع مدرسة ابن رشد . وكان من أشد المعارضين للبابوية بسبب الانحلال الذى دب فى كيانها ، شأنه فى ذلك شأن كثير من مواطنيه الأيطاليين ، حتى لقد وصفه البابا كلمنت السادس بأنه «أكبر هراطقة ذلك العصر» . وفيما يتعلق بأفكاره والآراء التى نادى بها لاصلاح الكنيسة ، أنظر: Hay, Italian Renaissance, 16—7,50, 53; Heer, Med. World, 284.

القديس برنارد وعلى مدرسة القديس فيكتور التصوفية (١) . وقد أثار هذا التدريب العقلى الكثير من المنازعات بين العقل الباحث والحدود المقررة رسميا . وفى ذلك كان القديس برنارد على حق تماما . وسواء أكان ابيلارد قد تكهن بهذه النتيجة أم لا ، وإذا جاز لنا أن نصدق أقواله الخاصة ، فهو لم يتعجل أى خطر حقيقى على العقيدة . وقد ولدت هـذه النهضة التى شملت العلم والبحث قدرا كبيرا من الهرطقة . ولم يكن من السهل أن تتفق آراء ارسطو وفلسفته مع المسيحية فى كثير من النواحى : وكان أقل من ذلك رغبة فى التفاهم اولئك الذين قاموا بترجمة تآليفه والتعليق عليها ، وأخصهم ابن رشد(٢) الذى كان أكثرهم شعبية فى باريس : ومن ثم حرم مجلس سينز Council of Sens دراسة أعمال ارسطو فى الجامعة ، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الطبيعية . وكرر المندوب البابوى هـذا التحريم سنة ١٢١٥ : وفى سنة ١٢٣١ جدد البابا التحريم مرة اخرى « إلى أن يتم فحص هـذه الآراء

---

(١) تنتمى هذه المدرسة الى دير القديس فيكتور الاوغسطينى بباريس ، ومنها تخرج أكبر ممثلى التصوف العقلى فى العصر الوسيط ، وفى مقدمتهم هوج دى سان فيكتور (١٠٩٦—١١٤١) وتلميذه ريشار دى سان فيكتور المتوفى سنة ١١٧٣ . أنظر يوسف كرم : الفلسفة الاوربية ،ص١٠٠—١٠٢.

(٢) ابن رشد هو الطبيب والفيلسوف العربى الشهير ، ولد فى قرطبة سنة ١١٢٦ وتوفى فى مراكش سنة ١١٩٨ . وهو المعقب على ارسطو وفلسفته . وكان مذهبه الفلسفى يميل الى المادية ووحدة الوجود ، أى المذهب القائل بأن الله هو الكون والكون هو الله أنظر Rosenthal, Political Thought in Med. Islam, 175-209,291-9 . وفيما يتعلق بالرشدية اللاتينية ، أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ،ص ١٦١—١٦٢.

وتطهيرها » ، وشكل لجنة خاصة لهذا الغرض ولكن هذه المحـــاولة بالذات كشفت عن قصـــور فى فهـم أرســـطو حســـبما قال الأب ماندونيه Father Mandonnet وجدد القرار فى سنة ١٢٦٣ . ولـكن عملية التطهير الرسمى لمؤلفات ارسطو لم تتم قط ، لأنه لم يكن فى الواقع من السهل القيام بها ، نظرا لأن مؤلفاته تمتاز بعمقها ووضوح تعبيرها بحيث لا يحتمـــل أن تكون منقولة عن قصاصات منتزعة من مؤلفات أخرى أو مقتبســـة منها . والواقع أن فلسفة أرسطو كانت طيلة هذه الفترة قـد غزت مدارس باريس بقدر كبير أو قليل ، على الرغم من أحكام القانون . وبعـــد ذلك أصبحت هذه الفلسفة ضمن مناهج التعليم (١) . وفى سنة ١٢٥٥ كانت جميع مؤلفات ارسطو فى حكم المقررة فى الجامعة ، وذلك بالنسبة لمناهجها التى تمنح عنها الدرجات الجامعية ، طالما كانت فلسفته ميسورة وفى متناول الفهم .

لذلك لم يكن مستغربا أن تكشف تلك السنوات عن تيار تحتى شديد يدعو إلى الفـــكر الحر بمعناه الحديث . ولقـــد أدين اموری دی بین (٢) Amaury de Béne ، ويحتمل أنه أحرق حوالى سنة ١٢٠٧ بسبب آرائه

(١) H. Rashdall. Universities of Europe, Ist. ed., I,68 sqq. (كولتون) .

(٢) درس اموری دی بین فى شارتر بفرنسا ، وكان بها وقتذاك مدرسة لها شهرتها العلمية والفلسفية ، وكان مدرسا للفلسفة ، وقـــد أدانته الكنيسة واتهمته بالمرطقة للآراء التى نادى بها ، وقامت بحرق جسده فى سنة ١٢١٠ ، بعد أربع سنوات من موته ، انظر : Heer, Med. World, 213-4.

الداعية الى وحدة الوجود . وتم كذلك حرق كتابات داود دى دينانت(١) David de Dinant . وفى نفس الوقت أدين جمع من الطلبة باعدامهم بواسطة الخازوق ، أو بإيداعهم السجن المؤبد . وقد أدين فى سنة ١٢٧٧ اثنان أو ثلاثة من خيرة المدرسين الباريسيين الممتازين . ويحتمل أنه حكم عليهم بالسجن مدى الحياة . وأحد أولئك المدرسين هو سيجر دى برابانت Siger de Brabant الذى وضعه دانتى جنبا الى جنب مع توما الاكوينى فى النعيم . ولو أنه هو نفسه الذى كان يدرس بدون شك تعاليم ابن رشد وفلسفته . وفى ذلك الوقت كانت محاكم التفتيش فى أوجها . وقد رفضت السلطات دفع سيجر القانونى ، القائل إن أى اقتراح أو موضوع قد يكون صحيحا فى الفلسفة وان كان غير صحيح فى اللاهوت . وظل هذا الدفع هو الملاذ الأخير للمفكر الحر . ويمكن أن نذكر مثلا مثيرا للغاية عن جامعة اكسفورد فى سنة ١٣٨٢ ، اذ كافح مدرس جامعي لاثبات رأى ويكليف فى سر التحول المادى فى العشاء الربانى . ولما اجتمع المدرسون أخيرا ، قال لهم « إنه لا توجد وثنية مثل سر القربان المقدس » Quod non est idolatria nisi in Sacramento Altaris. وعندئذ اكتفى كبير القضاة بأن قال له : « انك الآن تتكلم كفيلسوف » : ويعنى هذا ، بعبارة أخرى ، أن آراءه تعتبر هرطقة من وجهة النظر

---

(١) وكذلك أدانت الكنيسة آراء وأفكار داود دى دينانت متهمة إياه بالهرطقة . وقد قامت نظرياته على أساس تحكيم العقل والمنطق على كل شىء، حتى على الدين نفسه . إذ قال ان الله هو المادة والمادة هى الله ، وانه لا توجد حقيقة بدون المادة . وكل ما نعرفه عنه أنه تمت مقابلة بينه وبين البابا انوسنت الثالث فى روما ؛ أنظر : Heer, op. cit., 214-5

اللاهوتية ، ولكننا سنحيلها إلى مناقشة فلسفية (١) . وعلى الرغم من ذلك ، بل وعلى الرغم من إدانة المفكرين المنشقين الخارجين على تعاليم المسيحية السليمة فى مختلف الجامعات بصفة دورية ، يمكن أن نلمس أن التيارات التحتية كانت لا تزال فى اندفاعها . ومع ذلك لا يوجد مفكر فى العصر الوسيط يستطيع أن يتجاوز الحدود المتفق عليها ما لم يسعفه ظرف ملائم لحمايته .

لقد فكر المقدس يواكيم الفيورى (٢) Joachim of Fiore فعلا فى نظرية غير مدروسة بشأن الإصلاح الدينى : ومع كل ما يبدو على هذه النظرية من اضطراب ، فقد كان من الميسور أن تفعل الكثير للقضاء على سلطة رجال الدين والأسرار المقدسة . ولكن ما أن تضاعف عدد مريديه ،وقام مدرس باريسى باستخلاص النتائج المنطقية علنا ، حتى أثار

---

(١) Fasciculi Zizaniorum, R.S., 307 (كولتون) .

(٢) يواكيم هو أحد رجال الدين من بلدة فلوريا بجنوب إيطاليا، ويلاحظ أن البيئة التي نشأ فيها حيث وجدت ثقافات عديدة متنوعة الأصول والمصادر قد خلقت فى الجنوب الإيطالى عقلية متحررة عن باقى أجزاء أيطاليا ، تتميز بأنها أقل خضوعا لسلطان الكنيسة . وكان لهذه أثره فى الأفكار التى نادى بها يواكيم ، والتى كانت تبدو فيها نغمة التشاؤم بسبب الحال السيئة التى وصلت اليها الكنيسة والمسيحية الغربية وقتذاك . أنظر : **Heer, op. cit., 233-5.**

ذلك البابا فأدانه . (١) وثمة أستاذ آخر من جامعة باريس يدعى نيقولا دى او لتريكوريا Nicholas de Ultricuria ، بادر إلى إماطة اللثام عن شكوك بركلى Berkeley وهيوم Hume الفلسفية . وقامت المحكمة البابوية بمراجعة سريعة لاثنين وثلاثين رأيا له ، وقضت بإدانتها رسميا أمام البلاط البابوى سنة ١٣٤٦ . وعندئذ تراجع نيقولا عن آرائه وكوفىء بمنصب عميد جامعة متز Metz لمدة سنتين : وكان هذا الحكم هو الوحيد الذى حظى مصادفة بسجل دونت فيه الدروس التي كان يلقيها . وثمة أمامنا مثل شديد الوضوح مما يصادفنا فى كل مكان من إشارات أشد إبهاما وغموضا . وهكذا دفن الفكر الحر تحت الثرى ، ولم يتسن له أن يشكل لنفسه مدرسة حيثما قامت محكمة تفتيش قوية . ومع ذلك فلم يكن من الميسور استئصال الفكر الحر بصفة نهائية . وبمرور الزمن وانتشار العلم وظهور طبقة سكان المدن ، انطلق الفكر الحر مرة أخرى من عقاله بخطوات واسعة . وكانت فلورنسا — وهى إحدى المدن التي تمتعت بحضارة زاهرة — هى الأخرى أقل ايمانا بالمسيحية الأصيلة . ولقد حشد دانتى ضمن دائرة كاملة من جحيمه رجالا ماتوا وهم لا يؤمنون بخلود النفس : وفى الجيل التالى شكا بترارك (٢)

---

(١) لقد سرد المؤلف القصة بايجاز فى كتابه : Coulton, Five Centuries of Religion, II, c. vii (كولتون) .

(٢) هو فرنسيسكو بترارك ، ولد فى أرزو Arezzo قرب بادوا فى ايطاليا سنة ١٣٠٤ وتوفى سنة ١٣٧٤ ، وهو متضلع فى الأدب والتساريخ والآثار والمخطوطات القديمة ، كما كان من المهتمين بإحياء التراث الرومانى القديم . فنراه يكتب رسائل باللاتينية الى شخصيات العالم القديم مثل شيشرون =

من أن « أصحاب المدرسة الفلسفية الحديثة فى البندقية قد سخروا Petrarch من المسيحيين المتزمتين وغيرهم قائلين إنهم مجانين من الطراز القديم ، وإنهم يخشون عقاب الناس لهم أكثر من خوفهم من انتقام الله . ومن ثم كانت لديهم الجرأة على مهاجمة ليس فلسفة أفلاطون عن الخليقة فحسب ، بل أيضا موسى وسفر التكوين والايمان الكاثوليكى وتعاليم المسيح المقدسة . فما أن زايلهم هذا الخوف حتى لجأوا فى مجالسهم السرية إلى السخرية من المسيح والى عبادة ارسطو الذى لا يفهمونه . » (١) ولقد روى سكشتى Sacchetti الذى عاصر تشوسر الشىء الكثير عن عدم الايمان الذى ساد فلورنسا فى أيامه : فقد خصص عظته رقم ٤٣ لهذا الموضوع : وأصبحت جامعة بادوا بؤرة لمذهب ابن رشد . ومن ثم انتشر هذا المذهب فى ايطاليا . وفى أوائل القرن السادس عشر نوقش موضوع الخلود أمام المحكمة البابوية ، وكان البابا آنئذ هو ليو العاشر ، وكانت النهضة قد أطلقت فيضانا من التشاؤم .

وكانت الهرطقة لا تزال محرمة . ولكن هذا التحريم ، شأنه شأن غيره من القرارات المماثلة ، كان ينتهك علنا وبصورة مطردة ، ولم يعد ممكنا

= وفرجيل وغيرهما . وكان يرى أن أفضل ما انتجه هو ما كتبه باللاتينية ، وأن ما دونه باللغة الايطالية لا أهمية له ، ولو أن العكس هو الصحيح . ويدرك القارىء لأشعار بترارك انه كان من المهتمين بتمجيد شخصه ، كما أنها كانت تمثل مرحلة من مراحل التطور التى مر بها الأدب فى المجتمع الغربى الوسيط . إذ حاول بترارك كسر قيود العصر الوسيط . وكان مولعا بجمال الطبيعة ، وهو الأمر الذى حرمته المسيحية وفلسفتها التى كانت تدعو الى العالم الآخر . أنظر : Hay, Italian Renaissance, 75-88, 90-8; Mommsen, Med. and Renaissance Studies, 73-261.

(١) نقلا عن كتاب : E. Renan, Averroës, 335 (كولتون) :

آنئذ قيام عصيان منظم ضد السلطات الكنسية ، وكان الخارجون على تعـاليم الكنيسة يقبض عليهم أحيانا ويعاقبون. وحتى الأقوياء من بينهم كان يلحقهم هم أيضا نفس المصير . ومع ذلك وجد تحد متزايد بين من هم أكثر قوة ، لما كانوا يتميزون به من حصافة تكفى لحملهم على عـدم معارضة الوضع القائم إلا بصـورة مستترة ، وبما لهم من ثروة أو مـكانة مما يجعلهم ذوى شأن . يضاف إلى ما تقدم ، أن الفكر الحر الذى ظهر آنئذ ، مثله مثل غيره من الأمور المحرمة ، لم يكن فى الغالب من العناصر الطيبة ، ويرجع تدهـور الفلسفة المسلم به فى أخريات العصور الوسطى - على الرغم من الأسماء اللامعة المنتشرة هنا وهنـاك مثل نيقـولا اوف كيوز Nicholas of Cues وجبرائيـل بييل Gabriel Biel - يرجع ذلك إلى حد بعيد إلى الحاجة إلى حرية حقيقية . لقد قتلت آراء ويكليف وتعاليمه الأصالة الأولى لجامعة أكسفورد ، وأصبح فى حكم المستحيل بالنسبة لأى مدرس أن يضع الحد الوسط بين الشك الخالى من المسئولية وبين التمسك اللين بالأفكار القديمة البالية . وكانت هذه هي العقبات التى وقفت فى وجه التقدم فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية .

بعض المراجع للفصل الثامن

Alphandéry, P., Les idées morales chez les hétérodoxes latins au début du XIIIe siècle. Paris, 1903.

Artz, F. B., The Mind of the Middle Ages, A. D. 200-1500. New York, 1954.

Baeumker, C.,

1 - Die europäische Philosophie des Mittelalters. Berlin & Leipzig, 1909.

2 - Die christliche Philosophie des Mittelalters. Leipzig, 1913.

Baeumker, C. & Hertling, G. v. (eds.), Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters. Münster, 1891 ff.

Boethius, Consolatio Philosophiae. 1947.

Brampton, C. K. (ed.), The De imperatorum et pontificum potestate of William of Ockham. Oxford, 1927.

Brentano, F., Aristoteles und seine Weltanschauung. Leipzig, 1911.

Bruyne, E. de, Saint Thomas d'Aquin, le milieu, l'homme, la vision du monde. Paris, 1928.

Bury, J. B., A History of Freedom of Thought. New York, 1913.

Bussell, F. W., Religious Thought and Heresy in the Middle Ages. London, 1918.

Coker, F. W., Readings in Political Philosophy. New York, 1914.

Cooper, L., Concordance of Boethius. 1918.

Corbière, C., Le christianisme et la fin de la philosophie antique : essai sur la polémique du néoplatonisme avec le christianisme. Paris, 1921.

Coulton, G. G.,

1 - The Death Penalty for Heresy from 1184 to 1921. London, 1924.

2 - The Inquisition. London, 1929.

Deussen, P., Die Philosophie des Mittelalters. Leipzig, 1919.

Dilthey, W. & others (eds.), Weltanschauung: Philosophie und Religion in Darstellungen. Berlin, 1911.

Douais, C., L'inquisition : ses origines, sa procédure. Paris, 1906.

Drane, A. T., Christian Schools and Scholars. New York, 1909.

Duval, F., Les terreurs de l'an mille, Paris, 1908.

Eales, S. J., St. Bernard, Abbot of Clairvaux. London, 1890.

Eicken, H. v., Geschichte und System der mittelalterlichen Weltanschauung. Stuttgart, 1887.

Emerton, E., The «Defensor pacis» of Marsiglio of Padua, a Critical Study. Cambridge, 1920.

Endres, J. A., Geschichte der mittelalterlichen Philosophie im Abendlande. Kempten, 1908.

Eucken, R., The Problem of Human Life as Viewed by the Greet Thinkers. English trans. by W. S. Hough and W. R. Boyce-Gibson. London, 1909.

Fournier, P., Etudes sur Joachim de Flore et ses doctrines. Paris, 1909.

Gauthier, L., La théorie d'ibn Roshd (Averroes) sur les rapports de la religion et la philosophie. Paris, 1909.

Gewirth, A., Marsilius of Padua, the Defender of Peace. 2 vols. 1951—6.

Ghellinck, J. de,

1 — Le traité de Pierre Lombard sur les sept ordres ecclesiastiques. Louvain, 1910.

2 — Le mouvement théologique du XIIe siècle Paris, 1914.

Gibson, E., History of Christian Philosophy in the Middle Ages. New York, 1955.

Gilson, E.,

1 - Etudes de philosophie médiévale. Strassburg, 1921.
2 - La philosophie au moyen âge. 2 vols. Paris, 1922.
3 - Le Thomisme; introduction au système de Saint Thomas d'Aquin. Paris, 1923.
4 - La philosophie de St. Bonaventura. Paris, 1924.
5 - Saint Thomas d'Aquin. Paris, 1925.

Grabmann, M.,

1 - Die Philosophia Pauperum und ihr Verfasser Albert von Orlamünde. Münster, 1918.
2 - Die Philosophie des Mittelalters. Berlin, 1921.
3 - Thomas Aquinas : His Personality and Thought. English trans. by Michel. New York, 1928.

Grundmann, H., Studien über Joachim von Flores. Leipzig, 1927.

Guiraud, J., The Mediaeval Inquisition. Trans. by E. C. Messenger. London, 1929.

Hamelin, O., Le Système d'Aristote. Paris, 1920.

Haskins, C. H.,

1 — The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1927.

2 — Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.

Hauréau, B., Histoire de philosophie scolastique. 3 vols. Paris, 1872—80.

Hausrath, A., Peter Abälard. Leipzig, 1895.

Hearnshaw, F. J. C. (ed.), Medieval Contributions to Modern Civilization. London, 1921.

Heim, K., Das Gewissheitsproblem in der systematischen Theologie bis zur Schleiermacher. Leipzig, 1911.

Heitz, T., Essai historique sur les rapports entre la philosophie et la foi de Bérenger à S. Thomas d'Aquin. Paris, 1909.

Hessen, J., Patristische und scholastische Philosophie. Breslau, 1922.

James, B., Saint Bernard of Clairvaux. 1957.

Jourdain, C., La philosophie de Saint Thomas d'Aquin. 2 vols. Paris, 1858.

Kaiser, E., Pierre Abélard critique. Fribourg, 1901.

Kennedy, D. J., St. Thomas Aquinas and Medieval Philosophy. New York, 1919.

Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought. 1962.

Kristeller, P., The Classics and Renaissance Thought. 1955.

Laistner, M., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500—900. London, 1957.

Lalo, A., Aristote. Paris, 1922.

Martin, A., Saint Bernard. Paris, 1925.

Maycock, A. L., The Inquisition from its Establishment to the Great Schism. London, 1926.

Murphy, E., St. Thomas's Political Doctrine and Democracy. Catholic University of America, 1921.

Olgiati, F., The Key to the Study of St. Thomas. Trans by J. S. Zybura. St Louis and London, 1925.

Peillaube, E., Initiation à la philosophie de saint Thomas. Paris, 1926.

Poole, R. L. Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning. London, 1920.

Quadri, G, La philosophie arabe dans l'Europe médeièvale des origines à Averroess. 1960.

Rand, E. K., Founders of the Middle Ages. Cambridge, 1928.

Randall, J. H., The Making of the Modern Mind. Boston, 1927.

Reinstadler. S., Elementa philosophia scholastica. 2 vols. Freiburg, 1911.

Rickaby, J., Scholasticism. London, 1908.

Robert, Les écoles et l'enseignement de la théologie pendant la première moitié du XIIe siècle. Paris, 1909.

Rogers, Elizabeth F., Peter Lombard and the Sacramental System, New York, 1917.

Roland-Gosselin, B., La doctrine politique de Saint Thomas d'Aquin. Paris, 1928.

Rolfes, E., Die Philosophie von Thomas von Aquin. Leipzig, 1920.

Ross, W. D., Aristotle. London, 1923.

Rougier, L., La scolastique et le thomisme. Paris, 1925.

Rousselot, P., L'intellectualisme de Saint-Thomas. Paris, 1924.

Salvayre, G., Saint Bernard : maître de vie spirituelle. Avignon, 1910.

Sartiaux, F., Foi et science au moyen âge. Paris, 1926.

Schneider, A., Die Erkenntnislehre bei Beginn der Scholastik. Fulda, 1921.

Sertillanges, A. D., La philosophie morale de Saint Thomas d'Aquin. Paris, 1922.

Shallo, M. W., Lessons in Scholastic Philosophy. Philadelphia, 1916

Taylor, H. O.,

1 — The Mediaeval Mind, and the Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1911.

2 — Freedom of the Mind in History. London, 1923.

3 — The Mediaeval Mind. 2 vols. New York, 1959.

Truc, G., Le retour à la scolastique. Paris, 1919.

Turberville, A., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vacandard, E.,

1 — Pierre Abélard et sa lutte avec saint Bernard, sa doctrine, sa méthode. Paris, 1881.

2 — The Inquisition. Trans. from the 2nd French ed. by B. L. Conway. New York, 1908.

3 — Vie de St. Bernard, abbé de Clairvaux. 2 vols. Paris, 1910.

Verwegen, J. M.,

1 — Philosophie und Theologie im Mittelalter. Bonn, 1911.

2 — Die Philosophie des Mittelalters. Berlin & Leipzig, 1926.

Webb, C C. J., Studies in the History of Natural Theology. Oxford, 1915.

Wichmann, O., Die Scholastiker. Munich, 1921.

Wickstead, P. H., The Reactions between Dogma and Philosophy Illustrated form the Works of S. Thomas Aquinas. London, 1920.

Williams, W., Studies in Saint Bernard of Clairvaux. London, 1926.

Workman, H. B., Christian Thought to the Reformation. New York, 1911.

Wulf, M. de,

1 — Scholasticism Old and New. Trans. by P. Coffey. London, 1907.

2 — Mediaeval Philosophy, Illustrated from the System of Thoms Aquinas. Cambridge, 1922.

3 — Philosophy and Civilization in the Middle Ages. Princeton, 1922.

4 — History of Mediaeval Philosophy. Trans. by E. C. Messenger. 2 vols. London, 1925—26.

الفصل التاسع

القانون والسياسة

كان القانون منهجا هاما فى كافة الجامعات تقريبا . فقد اشتهرت بولونيا لوجود رجال القانون بها مثلما اشتهرت باريس فى علم اللاهوت : ويحتمل أن القانون الكنسى كان أعظم أثرا من غيره . ومن المحقق أيضا أنه كان أكثر تميزا بوصفه قانونا من قوانين القرون الوسطى : فمنذ أن جعل قسطنطين (١) المسيحية دين الدولة ، أصبح الأباطرة مطالبين بطبيعة الحال بأن يباشروا بين وقت وآخر تشريع القوانين بنزاهة لحماية طبقة رجال الدين أو لتنظيمها . وحدث فعلا فى سنة ٤٣٨ أن صدر قانون ثيودوسيوس ضد الهراطقة .وحوالى نفس الوقت منح فالنتنيان الثالث (٢) البابا سلطة تشريعية على الكنيسة فى الامبراطورية الرومانية الغربية . وقد صدرت عرضا مجموعات عديدة

---

(١) حكم الامبراطور قسطنطين الكبير من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ . وقد اعترف بالمسيحية كدين رسمي للدولة فى مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ ؛ وكان هذا الانقلاب الخطير يعنى انتصار الدين الجديد على الوثنية وعلى عبادة الامبراطور ، وأن الكنيسة المسيحية أصبحت بأمر الامبراطور نفسه كنيسة الدولة ، وأصبح الامبراطور هو الرئيس الدينى الأعلى لها .وقد ترتبت على ذلك آثار بالغة الأهمية فى القرون التالية . أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٩٣-٩٤ ؛ تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٧٢ وما يليها ؛ انظر أيضا A. H. M. Jones, Constantine and the Conversion of Europe, London, 1961.

(٢) حكم الامبراطور فالنتنيان الثالث فى الغرب من سنة ٤٢٥ إلى سنة ٤٥٥.

متضمنة مراسيم امبراطورية ، أو صادرة عن المجالس الدينية أو البابوية تتعلق بالشئون الكنسية . وتنسب أفضل هذه المجموعات إلى راهب رومانى يدعى ديونيسيوس اجزجيوس Dionysius Exiguus حوالى سنة ٥٠٠ . وكان البابوات أنفسهم ينقلون عن هذه المجموعة الأخيرة التي أقحمت فيها هبة قسطنطين المزورة والمراسيم البابوية المزيفة :

وقد اختمرت عملية التزوير الأولى سنة ٧٥٠ : وذلت الهبة على أنهـا مرسوم صادر عن قسطنطين الذى روى خرافة جاء فيها أن البـابا سيلفستر الأول (١) Sylvester I شفاه من مرض الجذام ، وأنه اعـترافا منه بجميله نحوه ، يمنح البابوات السيادة العلمانية على إيطاليا والغرب . ولكن جريجورى الكبير (٢) الذى ظهرت فى عهده هذه الخرافة ، تجاهلها باحتقار . إلا أنه بعد ذلك بخمسة أجيال بات ممكنا أن يتقبل اشد رجال الدين علما وخلقـا بسذاجة تامة وأغرب عملية تزوير حـدثت فى القـرون الوسطى . وفى سنة ٨٩٠ ، أى بعد أكثر من قرن من تاريخ الهبة المزورة ، زورت المراسيم البابوية . وكانت تلك المجموعة التى نشرت تحت اسم ايزيدورس ميركاتور Isidorus Mercatur (٣) عبارة عن مجموعـة شديدة الغـرابة تتضمن

---

(١) جلس البابا سيلفستر الأول على الكرسى البابوى من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٥ .

(٢) جلس البابا جريجورى الكبير على الكرسى البابوى من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٠٤ :

(٣) للمزيد من التفصيلات عن ايزيدورس ميركاتور والمراسيم البابوية المزورة ، أنظر : Shorter Camb. Med. Hist., I, 346—7

مستندات مزورة ، أو يدعى أنها كذلك . وقد أضفى عليهـا بصيص من الحقيقة يجعلها تبدو وكأنها محل ثقة . وعلى الرغم من أن أحدا لا يعرف شيئا عن هذا الرجل الشهير المسمى ايزيدورس ميركاتور ، فقد كان بوسع أى أسقف خلال الشهور القلائل الأولى ، عدم الاعتراف بهذه المجموعة ، إلا أنها لم تلبث أن اكتسبت ثقة لا نزاع فيها ، وكأنها كتاب مقدس . ولقد قضى نيقولا الأول (١) على كل شك أثير حول مرسوم أدخل فيما بعد فى القانون الكنسى . ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا التزوير ، شأنه شأن الهبة، فى مأمن من الطعن فيه حتى سنة ١٤٥٠ تقريبا ، عندما اجترأ العـالم البشرى لورنتيوس فالا (٢) Laurentius Valla والفيلسوف نيقولا أوف كيوز (٣) Nicholas of Cues ، على الافصاح بصراحة تامة عن تشكك صارخ فى هذا الشأن . ولا خلاف أن هذه العمليات المزورة كانت قد طابقت بصورة وثيقة الأفكار التى نمت وترعرعت خلال القرون القلائل السابقة . وتمسك البابوات تدريجيـا بهـذه الأفكار أو سلموا بها بهـدوء ، الواحـد تلو

---

(١) جلس البابا نيقولا الأول على الكرسى البابوى من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٨٦٧ .

(٢) توفى لورنتيوس فالا سنة ١٤٥٧ . وهو من الذين طعنوا فى هبـة قسطنطين المزورة . ومن أهم ما كتبه مؤلفه المسمى Elegantiae ، وكذلك « ملاحظات عن العهد الجديد » ، وكتاب عن « حياة فرديناند صاحب قشتالة » أنظر عن ذلك: Hay, Italian Renaissance, 165, 167, 175-6, 189; Painter, Hist. of the Middle Ages, 416.

(٣) هو الكاردينال نيقولا أوف كيوز ، ولد سنة ١٤٠١ وتوفى سنة ١٤٦٤ عن ٦٤ سنة . أنظر: Heer, Med. World, 100, 251 للمزيد من التفاصيل انظر W. T. Waugh, A Hist. of Europe From 1378 to 1494, 475, 491, 503.

الآخر على مر الأجيال، إلى أن اعترفوا بمعظم أو بكل ما ورد صراحة فى تلك المراسيم المزيفة . وكانت الخطوة من بداية الافتئات الفعلى التدريجى على الحقوق حتى الاعتراف الرسمى المدعم بالمستندات، خطوة واسعة بالغة الأهمية. وغالبا ما اعترضت السلطات العلمانية على المطالب البابوية، شأنها شأن الاحتلال البريطانى لكل من الهند ومصر ، أو احتلال امريكا لكوبا . لقد وضعت المراسيم المزورة لصالح البابوات ، مثلما وضعت أمثالها لصالح بريطانيا ، لو أننا تمكنا من حمل العالم على أن يصدق أن احتلال الانجليز لمصر إنما يرتكز على كونها هبة لهم من قبل الخليفة لا رجوع فيها، وأن مجموعة من القوانين الاسلامية الصحيحة قد تركت للانجليز حرية العمل فى كل مكان وزمان فى هذا القطر . وعلى أية حال ، فان هذه القوانين الجريئة التى وضعها مجلس يشرف عليه أسقف من الفرنجة ، والتى فرضت على العالم فجأة ، وقبلها بابا مقتدر، وطبقت دون منازع طيلة سبعة قرون ، إنما تعبر عن واحدة من أهم النقاط المميزة فى تاريخ الفكر فى القرون الوسطى .

ومع نهضة القانون الرومانى فى بولونيا مبكرا فى القرن الثانى عشر ، ظهر دافع مماثل يدعو إلى النهوض بقوانينها . فقد أخذ راهب يدعى جراشيان Gratian على عاتقه مهمة إدخال نوع من النظام فى هذا الشأن ، ويحتمل أن ذلك كان فى سنة ١١٤٢ . وحتى ذلك الحين كانت كافة المراسيم الأصلية قد صدرت فعلا منذ ظهور هذين المستندين المزورين الكبيرين . وجرت محاولات لاصدار مجموعات أخرى موثوق بها إلى حد ما . وكان عنوان كتاب جراشيان ، وهو « التوفيق بين القوانين الكنسية المتعارضة » A Concordance of Discordant Canons ، ينم عن هدفه الأساسى . ولكن وجد من المناسب أن يحمل الكتاب دائما أقصر عنوان له وهو

« مرسوم جراشيان » " Gratian's Decretum " . ونلمس فى هذا الكتاب محاولة ما فى سبيل التصنيف العلمى للمراسيم البابوية . ففيه نجد المراسيم مرتبة حسب الموضوع ، على غرار القانون المدنى : كما أضاف جراشيان بعض التعليقات التي استهدف من ورائها التوفيق بين المواد العديدة المتناقضة أو المتعارضة : وعلى الرغم من أن البابوات لم ينشروا هذا الكتاب رسميا ، إلا أنه كان من أوائل الكتب التى أفادوا منها بصفة عامة ، ولم ينكره أحد منهم على الاطلاق : وعندما أمر جريجورى التاسع (١) فى سنة ١٢٣٤ باعداد مجموعة رسمية جديدة للمراسيم البابوية ، نشرت هذه المجموعة باعتبارها امتدادا لنشاط جراشيان . ثم أضيفت مجموعات أخرى مماثلة خلال القرن التالى . وكان آخر البابوات فى القرون الوسطى الذى أمر بذلك هو يوحنا الثانى والعشرون (٢) فى سنة ١٣١٧ :

وبات واضحا وقتذاك أن مثل هذه المجموعات كانت فى تناقض مطرد مع قوانين الدولة ومع نمو الوعى القومى . ومع ذلك أضيف فى سنة ١٤٩٠ ملحق شبه رسمي تحت عنوان «ما لا يقبله العقل» Extravagantes . وكان هذا الملحق مكملا لمجموعة القوانين الكنسية المعروفة باسم Corpus Juris Canonici وهو يتألف من مجموعة جراشيان ومن المراسيم البابوية الرسمية الملحقة بها ، ومن الملحق المعروف باسم « ما لا يقبله العقل .» وقد انعقدت لجنة من

---

(١) جلس البابا جريجورى التاسع على الكرسي البابوى من سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤١ .

(٢) جلس البابا يوحنا الثانى والعشرون على الكرسي البابوى من سنة ١٣١٦ الى سنة ١٣٣٤ .

الكرادلة والعلماء تعاقب على رئاستها ثلاثة من البابوات وأصدرت نصا نموذجيا لهذه المجموعة ، أمر بنشره البابا جريجورى الثالث عشر (١) فى سنة ١٥٨٢ ؛ وهكذا وجدت مرة أخرى حدود مرسومة كان الفكر الوسيط مقيدا فى نطاقها بحكم القانون : والواقع أنه عاش أسير هذه القيود .

وكانت النتيجة الطبيعية أن الفكر المكبوت كثيرا ما انزلق إلى مستوى اللغو الشفوى أو الأحاجى والألغاز . وكان البحث العلمى والفكر خاضعين للدراسة والبحث . يقول رشدال Rashdall «إن التعليم فى القرون الوسطى كان شديد التمسك بالمبادىء وباثارة الجدل والمناقشات :» ولكن هذا التعليم كافح كثيرا فى سبيل إيجاد وسائل من أجل الفكر والكلام . فان العديد من كلماتنا المجردة الشائعة التى لاغنى لنا عنها ، مثل كلمتى « الكيف » و« الكم » ، إما ابتدعها كلها أو بعضها رجال العلم والفلسفة فى العصور الوسطى . لذلك ، بينما لا يزال كبار مفكرى الفترة المبكرة من تلك العصور يطالبون علماء ما وراء الطبيعة وعلماء اللاهوت بمزيد من العناية ، «نجد أن سرعة تعدد الجامعات خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كان مرده الحاجة المباشرة إلى محامين ومديرى أعمال ذوى مؤهلات عالية » . وفى هذه الجامعات اكتسب الرجال عادات الثبات والمثابرة والعكوف الشديد على أداء العمل المطلوب منهم . وكانوا يؤهلون هناك كى يتناولون بمهارة مثل هذه الحقائق كما يروق لهم أو لزملائهم تحقيقا لأغراضهم الخاصة .

---

(١) جريجورى الثالث عشر هو البابا الذى عدل التقويم اليوليانى فى سنة ١٥٨٢ ، وعمل التقويم المعروف باسمه وهو التقويم الجريجوريانى .

ولكن لم يكن ثمة إلا النزر اليسير من الملاحظة المنزهة عن الغرض فيما يتعلق بالحقائق المتجمدة التي بدونها قد تخدعنا وتضللنا أفضل المثل العليا . وكان تلقين الطب لأفراد الشعب محرما على الرهبان وجماعات الاخوان الرهبان وانه لخطأ فاضح التوهم بأن رجال الدين المتكفين داخل أديرتهم كانوا هم أطباء القرون الوسطى . وعندما نجد طبيبا من بين رجال الدين المتكفين فى الأديرة ـ ومثل هذه الحالة نادرة الوجود اذا أخذنا فى الاعتبار تلك الأعداد الوفيرة من الوثائق والسجلات التي لا تزال باقية الى اليوم ـ فانما يدل ذلك على أن هذا الشخص كان فى الغالب طبيبا فى «الدنيا» قبل أن يهب نفسه للرهبنة . وكان القديس فرنسيس ورفاقه الأوائل فى الواقع يمنون أحيانا بمرضى الجذام . ولكن ليس ثمة دليل على أن الإخوان الرهبان كانوا يعملون فى مستشفيات الجذام بصفة منتظمة : وفيما يتعلق بالمستشفيات الأخرى التى كانت في نفس الوقت دورا خيرية ، فقد كان مديروها فى أخريات القرون الوسطى هم عادة من جماعات الرهبان الأوغسطينيين . وأما الممرضات فقد كن نساء نذرن أنفسهن للبتولة : ولكن كان ثمة بون شاسع بين كل دار وأخرى . وفى الحالات التى كان فيها رئيس الدير أو الاخوان الرهبان رجال دين معتكفين داخل أديرتهم ، نجد أنهم قلما عنوا هم أنفسهم بالمرضى ، وانما كانت هذه العناية الطبية موكولة للممرضات أو للاخوة العلمانيين . وكانت مثل هذه المعاهد بصفة عامة دورا خيرية بقدر ما هى مستشفيات بمعناها الحديث . ويمكن اعتبار معهد القديس جون فى اكسفورد معهدا نموذجيا خالصا . وتتألف الهيئة العاملة فيه من ثلاثة قساوسة اوغسطينيين أحدهم كان رئيسا ، ومعهم ستة إخوان علمانيين وست

لوحة رقم ٧



مستشفى فى القرن الخامس عشر

أخوات ممرضات (١) . أما فى إيطاليا فقد كانت المستشفيات منذ أزمنة بعيدة تخضع فى أغلب الأحيان لادارة مدنية ، كما كان الحال فى ظل الامبراطورية القديمة . وكانت العناية بالمرضى فى الدول الأخرى تشمل الغنى والفقير بصورة مطردة ، وكانت تتولاها السلطات العلمانية خلال الأجيال الأخيرة القليلة السابقة لحركة الاصلاح الدينى وفى شتراسبورج Strassburg رفض المدنيون حوالى سنة ١٥٠٠ قبول الكهنة كممرضين فى مستشفيات المدينة ؛ كما رفضت خدمات الراهبات كممرضات مساعدات : أما فى انجلترا ، فقد قرر مؤسس مدرسة فى سفن أوكس Sevenoaks فى عام ١٤٢٢ أن الناظر لا يجوز دخوله فى سلك الكهنوت وفى سنة ١٤٤٣ أسس أحد المواطنين فى لندن مدرسة تديرها شركة أقمشة . وعندما جدد كولت Colet عميد معهد القديس بولس مدرسته الكاتدرائية لم ينهج هذا النهج فحسب ، بل أيده بكل ما أتيح له بيانه من الأسباب الداعية لذلك .

وكان الشعب بصفة عامة شديد الاهتمام بميدان آخر له اعتباره : ونظرا لأن السجلات المدونة كانت نادرة نسبيا ، فقد كانت الشهادة المعترف بها تعتمد أساسا على شهادة العيان والشهادة الشفوية : ومن ثم كان الاشهار المطلوب يستدعى أحيانا متاعب جمة : فمثلا لم يكن ثمة سجلات أبرشية زواج . ولذلك كان معظم حفل الزواج لا يتم داخل الكنيسة بل

---

(١) R.M. Clay, The Medieval Hospitals of England, 149-165

(كولتون) ٥

خارجها عند الباب ليتسنى لأكبر عدد من الشهود أن يشاهدوه ، وكان من دواعى سرور تشوسر أنه سجـــل فى أحـــد كتبه ويسمى « امرأة باث» Wife of Bath عدد الأزواج الذين شاهدهم « عند باب الكنيسة » . وكان

رسم رقم ٧



زواج أمام باب الكنيسة

الشهود فى مناسبات أخرى يختارون من بين الشبان قدر الاستطاعة حتى تدوم شهادتهم أطول وقت ممكن ؛ ومن بين مظاهر الابتهاج والاحتفال أن يشترى أصحاب العرس كمية كبيرة من الكرز ، ينثرونها بين الأطفـــال كتعبير

رسمى أولى عن كنه هذه المناسبة السعيدة الهابطة عليهم من السماء . وكانت هناك أيضا عادة شعبية من وجهة النظر القانونية ، إن لم تكن من وجهة نظر الشهود ، تقضى باتخاذ إجراء يخالف ذلك تماما ، وخلاصته أن يضرب بالسوط طفل أو أكثر ضرباً احتفاليا مبرحاً فى هذه المناسبة ، ليكون ذلك علامة مسلما بها على أن هؤلاء الأطفال لن ينسوا قط هذه الواقعة الدالة على شهودهم للزواج : ومن قبل هذه العادة أن نبيلا نورمانديا عظيم القدر نذر قطعة أرض قيمة لأحد الأديرة ، ورأى من باب تسجيل هذه المنحة أن ألبس نجله الصغير سترة من الفرو الفاخر ، ثم ألقى به فى اليم .

وإذا عدنا إلى الطب نقول ان جانبا كبيرا منه لم يخرج عن كونه طبا بدائيا جدا . ويحتمل أنه كان يوجد فى كل دير واحد أو أكثر من الرهبان الذين يعرفون ما يكفى لإسعاف زملائهم فى المستشفى بالأعشاب واللزق ، أو باتباع نظام معقول للأكل . ومن المألوف العثور على وصفات طبية من هذا النوع مكتوبة بخط ردىء على الأوراق المتطايرة من الكتب وكذلك كان شأن الراهبات : وبالرغم من أنهن كن شكليا داخل سياج محكم ، فقد كن يشاهدن وهن يؤدين تلك الخدمات الطبية التي كانت تعود عليهن ، دون شك بالعطايا من الأغنياء وبالشكر من الفقراء . وكانت المرأة القروية العاقلة تحتفظ بوسائل العلاج اللازمة ، كما كانت تحتفظ بملامحها الساحرة . وكانت ربة البيت العادية لديها هى أيضا الوصفات الطبية التقليدية . أما بالنسبة للطب القائم على أسس علمية ، فقد كانت العصور الوسطى تعتمد أساسا على الأغريق القدماء ، إما عن طريق الترجمة المباشرة لتآليفهم ، أو نتيجة لانتقال المعلومات عن طريق الكتاب اليهود أو العرب ، وقد أبدت الكنيسة سخطها على عمليات التشريح التى لم تمارس إلا قليلا . على أنه من المعترف به عموما بين الطلبة

المحدثين ، بل وبين أشد هؤلاء الطلبة تعاطفا مع الفكر الوسيط ، أن جامعات ذلك العصر بذلت الكثير من الوقت والجهد فى سبيل دراسة علوم ما وراء الطبيعة ، بينما لم تبذل سوى النزر اليسير من الجهد على الملاحظة المباشرة للظواهر الطبيعية الملموسة ، أو على التسجيل الدقيق للحقائق أيا كان نوعها : وقد ترك لنا أصحاب الحوليات سجلات قيمة فى هذا الشأن ومع ذلك لم يكن هناك مدارس للجغرافية أو التاريخ . أضف إلى ما تقدم أنه كان ثمة إهمال فاحش للغات والرياضيات والعلوم الطبيعية : ولقد استند القديس توما الأكوينى فى بيانه لإثبات حقيقة المسيحية فى مواجهة الوثنية ، على حقيقتين قال عنهما إنهما مألوفتان للشخص المتعلم بقدر غموضهما بالنسبة لعامة الشعب. وبنص قوله : « انه يبدو عجيبا للشعب الجاهل أن يجذب المغناطيس الحديد، أو أن سفينة تطفو على ظهر سمكة صغيرة .» وإن هذه « السمكة الصغيرة » ماهى إلا السمكة الماصة الخرافية (١) التى يبلغ طولها قدم واحد ، ومع ذلك فانها قادرة بطريق المص على حمل أضخم السفن : (٢) ويهدف أهم كتاب مختصر عن الفن فى أخريات القرون الوسطى ، وهو الذى وضعه تشنينو تشنينى (٣) Cennino Cennini الفلورنسى ، إلى تعليمنا النسب الحقيقية للجسم الإنسانى، وإلى إبراز جسم الرجل والمرأة من الحياة الواقعية . وهو يؤكد لنا أن « للرجل فى جانبه الأيسر ضلع أقل مما للمرأة . »

---

(١) يقال إن هذه السمكة الماصة توقف سير السفينة التى تعلق بها .

(٢) Summa contra Gentiles, lib. III. c. 102; cf. also Coulton, Social Life in Britain, 531 (كولتون) .

(٣) عاش هذا الفنان الفلورنسى فى أواسط القرن الرابع عشر ، انظر عنه كتاب Coulton, Medieval Panorama, 311 .

وكان هذا الإهمال المألوف مشجعا على اقتراف عمليات التزوير المشار اليها. وكتب الأستاذ ت.ف. تاوت Tout في مؤلفه « المزيفون وعمليات التزييف في العصور الوسطى » (١) يقول : « وكان أمثال أولئك الناس العظام وتلك المجتمعات القوية، شركاء في التزييف ، حتى لقد اقتضى الأمر من عامة الشعب أن يساهموا مساهمة فعالة بتكليف خبير متواضع بعمل فحص خاطف لوسائلهم في تداول المستندات . »

وتحتوى سجلات الأديرة على عدد وفير من المستندات المسلم الآن بأنها قد فقدت نهائيا قيمتها كمصادر موثوق بها . وغالبا ما كانت الدعاوى الكبرى في العصور الوسطى تقام بطريق الغش . ففى سنة ١٤٣٢ نجحت جامعة كامبريدج في تأكيد استقلالها عن أسقف ايلى Ely في محاكمة بارنويل الكبرى Barnwell Trial ؛ وذلك عن طريق مرسوم مزيف للبابا هونوريوس الأول (٢) ، يزعم فيه أنه بدافع من الشكر وعرفان الجميل لجامعة كامبريدج التي تعلم فيها ، يمنح تلك الجامعة هذا الامتياز في سنة ٦٢٤ ، أى قبل إنشاء الجامعة فعلا بنحو ستة قرون . وقد أشار ف. و. ميتلاند إلى ما روى عن جامعتي اكسفورد وكامبريدج ، من أن كلا منهما حاولت أن تثبت تفوق تاريخها القديم على تاريخ الأخرى ، كتب يقول : « إن أقدم نزاع

---

(١) T. F. Tout, Medieval Forgers and Forgeries, Manchester, 1920. (كولتون) .

وتاوت له مؤلفات أخرى عديدة في حقل تخصصه وهو العصور الوسطى، نذكر منها « الامبراطورية والبابوية » و « العلاقات بين انجلترا وفرنسا في العصرين الوسيط والحديث » و « تخطيط المدن في العصور الوسطى » .

(٢) جلس البابا هونوريوس الأول على الكرسى البابوى من سنة ٦٢٥ الى سنة ٦٣٨ .

داخلى بين الجامعات قاطبة انما كان مباراة فى الكذب ». والواقع أن الجهل بالتاريخ كان متفشيا حتى بين أصحاب المراتب العليا . وقد قال البابا جريجورى الثانى (١) فى كتابه الى الامبراطور اللاأيقونى ببساطة تامة ، ان الرسل كانوا عبادا للصور . (٢)

وهنا تعزى الجهالة التى عمت القرون الوسطى الى حد بعيد الى ندرة الكتب والنقص فى نشرها . وقد ألمع الأستاذ س . ه . هاسكنز C. H. Haskins الى هذا الأمر قائلا « انه لأسباب عديدة متعددة لا قدرة للكتب على الحركة الاستقلالية التلقائية . » ويمتاز كتاب الحوليات الذى كان جانب منه منقولا والجانب الآخر كتبه متى الباريسى (٣) Matthew Paris ، بقيمته الفائقة . ومع ذلك فلم يبق سوى عدد قليل جدا من نسخ هذا الكتاب داخل دير القديس البان St. Albans ، وأما الفكرة القائلة بأن الرهبان كانوا يعتمدون دائما على النقل ، فهى لا تقوى على الصمود أمام الحقائق . وكان السوق يعج بالمأجورين من الكتبة . وعلى الرغم من وجود بعض الحالات الاستثنائية ، الا أن القرون الوسطى لم تأخذ قط بهذا النظام الذى

(١) شغل البابا جريجورى الثانى الكرسى البابوى من سنة ٧١٥ الى سنة ٧٣١ .

(٢) Migne, Pat. Lat., Vol. LXXXIX, col 514 c. (كولتون). والمقصود به ليو الثالث الأيسورى امبراطور الدولة البيزنطية الذى حكم من سنة ٧١٧ الى سنة ٧٤١م .

(٣) يعتبر متى البارسى من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى . ولسنا نعرف شيئا عن تاريخ ميلاده أو سنى حياته الأولى . وكل ما وصلنا عنه أنه انخرط سنة ١٢١٧ فى سلك الرهبنة حيث اشتهر بتدينه وتقواه . كما

نعلم أنه كان سائدا أيام الرومان واليونان القدماء ، والقائم على الإكثار من الكتب عن طريق الإملاء على الطلبة فى الفصول . وكانت الكتب دائما مرتفعة الثمن ، لأن الكاتب كان يتقاضى أجرا واحدا هو أجره كصاحب حرفة . فقد كان كتاب التوراة ، مثلا ، يكلف عادة ما يربو على دخل كاهن طيلة عام كامل : وفى الواقع يندر أن نجد نسخة منه عند كاهن الابرشيه العادى » وكان كاتب تشوسر فى اكسنفورد Oxenforde يقتني عشرين كتابا فقط ، نظير ما أنفقه من جيبه الخاص وما حصل عليه من أصدقائه . وأما برنارد أوف شارتر Bernard of Chartres — وهو أفضل معلمى حركة احياء التراث الكلاسيكى القديم فى القرن الثانى عشر — فقد ترك كل مكتبته للكاتدرائية . وكانت هذه المكتبة تحتوى على أربعة وعشرين مجلدا .

= كان من المقربين الى هنرى الثالث ملك انجلترا . وعرف عنه الحكمة والعدالة ، حتى أن الناس كانوا يلجأون اليه لفض منازعاتهم وخلافاتهم . وترسل مرارا لدى ملوك الغرب ، ووضع كتابه المعروف باسم « تاريخ انجلترا » باللاتينية بناء على طلب هنرى الثالث ، وهو يبدأ بسنة ١٢٣٥ وينتهى فى ١٢٥٩ ، وهى السنة التي مات فيها المؤلف وقد أتم راهب بدير القديس ألبان بانجلترا يدعى وليم ريشانجيه هذا التاريخ حتى سنة ١٢٧٣ . وجدير بالذكر أن متى الباريسي تحدث فى كتابه فى سخرية مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب الذى تغلغل فيه الفساد مناديا بالإصلاح . أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ١٠-١١ والحواشى ، والعرب والروم واللاتين ، ص ٧٩ - ٨٠ .

هذا ، وعلى الرغم من بعض المزايا الحقيقية للغـة اللاتينية ، فقد عاد استعمالها كلغة عالمية بأضرار جسيمة . ومن المبالغة التحدث عن اللاتينيـة بأنها قد أصبحت فى وقت ما لغة الوطن الثانية فى أى بلد من البلدان ، اللهم إلا فى إيطاليا وأسبانيا . وحتى المتعلمون ،كما يجوز لنا أن نسميهم نقلا عما صادفنا من إشـارات مبعثرة هنا وهناك ، فقد كانوا يصوغون أخص ما تنطوى عليه أفكارهم باللغة الأم ، أى لغة الوطن . وعلى الرغم من أن المحاضرات الجامعية كانت تلقى باللغة اللاتينية ، وعلى الرغم من أن المدارس والكليات كانت تدفع عادة مكافأة دراسية للطلاب الذين تنحصر مهمتهم فى الإخطـار عن جميع زملائهم الذين يرسبون فى لغة الوطن — فقد كانت الجامعات تضطر إلى استخدام مدارس النحو وقواعد اللغة للطلبـة الذين لم يتخرجوا بعد ، وكان حظهم من اللاتينية ضئيلا جدا بحيث لم يكن بوسعهم متابعة الدراسة النظامية : ولم يكن من بين الكهنة خريجون من الجامعـة ، فيما عدا نسبة ضئيلة منهم : وروى المعاصرون من ذوى الآراء الراجحة الصائبة ، من قصص الجهـل باللاتينية ، حتى بين رجال الدين ، ما كان يصعب تصديقه ، لولا أن هذه الروايات قد أكدتها سجلات الامتحانات الرسمية الدورية . وقد دل التفتيش فى سنة ١٢٢٢ على وجود خمسة من الكهنة من بين ١٧ رئيس كاتدرائية فى ساروم Sarum عاجزين حتى عن تفسير الكلمات الافتتاحية للصلوة الأولى من القداس المتضمنة الجزء الأساسى المتعلق بخدمة الأفخارستية ، أى القربان المقدس . ويروى لنا إرازموس(١) Erasmus كيف أن واحدا من أعظم

(١) ولد دزيدريوس ارازموس Desiderius Erasmus حوالى سنة =

أساقفة ذلك العصر حاول معالجة الجهالة بين الكهنة، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه المحاولة عندما تبين له الارجاء في نجاحها. ولذلك يتعين علينا أن نضع نصب أعيننا أنه وجد طيلة العصور الوسطى، كثير من صغار كهنة الأبرشيات الذين كانوا في الواقع أكثر علما من رؤسائهم. ولقـــد نشرت العديد من التقــارير المتعلقة بهـــذه الامتحانات الخاصة برجال الدين في كتابي «الحياة في العصور الوسطى» (١)، وهي تقارير فيها من التسلية بقدر ما فيها من الثقافة.

ومن المشكوك فيه، حتى في الدوائر الجامعية العــالية، إن كان هنــاك حشد من الناس يستطيعون الجلوس حــول المدفأة ليناقشوا مشاكل الحيــاة والموت باللغة اللاتينية، بما يشبه إلى حد ما فريقا مماثلا لهم وهم يتحدثون في أيامنا هذه بلغتهم الخاصة، مع ما يبدونه من حرية الرأي وتوقد الذهن وعمقه. ولا يوجد إلا عدد قليل جـــداً من الرجال ممن يملكون ناصية الكلام والاستماع لأدق ظلال التعبير، تلك الظلال التي تنم عند الرجل على سلامة تفكيره وسيطرته على لغة وطنه. ولا شك في هذه الحقيقة القائلة بأن أعمق أفكار الإنسان إنمــا تطفو إلى ذهنه بلغته الخاصة كما كان يعبر بهـــا في

= ١٤٦٧ وتوفى سنة ١٥٣٦. وهو من علماء عصر النهضة، وقد عرف بنقده لنظام الرهبنة وحملته ضد مفاسد الكنيسة وعيوبها. وهو يعتبر مقدمة لمارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني. أنظر: Huizinga, Waning of the Middle Ages, 312.

(١) Coulton, Life in the Middle Ages, II, 39-48.

المدرسة . وكان هـذا أحد أسباب عدم وجود مدارس قومية قائمة بذاتهـا الفلسفة فى العصور الوسطى : ونتج عن ذلك أن كل فكرة يظفر بها على السطح ، تفقد فى العمق والأصالة ولم تـكن أفـكار الفيلسوف دائماً متعارضة فى إخصابها مع تجارب الحياة العادية وما يتصل بها من الأفـكار .

وقال السيد شترسمان Herr Stresemann فى أول حـديث له أمام عصبة الأمم : « ان اللغة الأم هى محراب النفس المقدس . » وقد فقد كثيرون كل سيطرة لهم على لغتهم الوطنية دون كسب مقـابل من أية لغة أخـرى . وليس ذلك مجرد ظن أو وهم ، وانما هو أمر يمكن بالدليل الناصع إثبات حدوثه المتكرر فى العصور الوسطى ، بما يفوق تكـرار وقوعه فى يومنا هذا : وكان للغة اللاتينية فائدتهـا كلغة عالمية . غير أنها من جهة أخـرى ساعدت على تشجيع الاصطلاحات الشعبية . وغالبا ماكانت الأفـكار التى أمدتها اللغة اللاتينية بأسهل تعبير وأوسع تداول، تجرى على نسق واحد . ويحدثنا جوهان بوش Johann Busch ، وهو قس المـانى لامع عاش فى القـرن الخامس عشر ، ضمن مجموعة أعماله اللاتينية بصلوة من تأليفه لاستخدامها اثناء القداس ، أو عوضا عن القداس نفسه عندما يتعذر حضوره شخصيا : وكان يؤدى هذه الصلوة بلغة وطنه الالمانية . وكانت تلك هى اللغة التى يتلوها فى سره ، والتى كانت تقربه الى الله . وهذا ما كان يفعله ايضا هنريش سوزو Heinrich Suso ، ذلك المتصوف العظيم الذى توفى سنة ١٣٦٣ : فهو يحدثنا فى كتابه الصغير المسمى « الحكمة الأبدية » بأنه يدون أفـكاره التصوفية بالالمانية ، لأن الله هو الذى أوحى اليه بهذه الافكار باللغة الالـمانية نفسها .

هذا من القانون ، أما الفكر السياسي فلم يكن معروفا في العصور الوسطى كعلم اجتماعي قائم بذاته ، وإنما كان فرعا من علم اللاهوت أو القانون . وكان واضعو النظريات السياسية لاهوتيين أو قانونيين . والواقع أن الفقيـه أو المشرع نفسه كان مضطرا لأن يكون إلى حـد ما لاهوتيا ، طالما أن الكتاب المقدس كان الحجة المعصومة من الخطأ ، وأن الآباء كانوا يعاملون عادة من حيث التبجيل والاحترام على قـدم المساواة تقريبا . وقد أصبح كتاب القـديس أوغسطين « مدينة الله » كلاسيكيا بالنسبة للنظرية السياسية التي سادت القرون الوسطى المبكرة بصفة عامة ، كما احتفظ بالكثير من نفوذه حتى النهاية . فإن لفظي « المدينة » و « الدولة » لم يكونا قد انفصلا بعد بصفة نهائية إلى اصطلاحين محددين . وظل الناس أمدا طويلا يفكرون ويكتبون في ظل فكرتهم عن دولة المدينة القديمة (١) وكانت الامبراطورية الرومانية في رأى القديس أوغسطين عبارة عن مدينـة Civitas ، وكذلك الكنيسة التي كانت لاتزال تطالب لنفسها بمزيد من السيادة العالمية مع الإقلال من السلطة المحلية . لقد ظهر هذا الكتاب عقب التخريب الذى أحدثه الاريك Alario في روما سنة ٤١٠ وتحت تأثير الصدمة التي أحدثتها هذه الكارثة ، كتب القديس جـيروم إلى صديقه أجيروتشيا Ageruchia يقـول : « لئن سقطت روما ، فما الذى يظل قائما بعدها ؟ » وعلى أية حال ، فمما لاشك فيه أن هذه الكلمة لم تكن كلمة جيروم الأخيرة . ولم يكن ذلك على حـد قول أوغسطين هو فصل الخطاب : ذلك أنه إذا جاز أن المدينـة الأرضيـة في وضعها المبني على القوة الطبيعية يمكن أن تتحطم تحت ضغط قـوة أكبر منها ، فإن المدينـة السماوية لاتزال بخير . إن بوسع البشر قتل الجسد ، أما

(١) فيما يتعلق بدولة المدينة ، انظر الكتاب التالي : هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى - ص ٣ - ٤ و ٦٣ وما بعدها .

الروح فلا قدرة لهم على المساس بها . وهـذه المفارقة هى موضوع كتاب « مدينة الله » من بدايته إلى نهايته . ولطالما عزا المتزمتون كل هـذه الآلام التى عانتها الامبراطورية الرومانية فى آخريات أيامها إلى هذه البدعة الدينية الجديدة المعـبرة عن الدين الذى اعتنقته الامبراطورية . (١) وقد أحيـا سقوط روما نبوءة مؤداها أن المسيحية لن تعيش إلا عددا من السنين بقـدر ما لعده من الأيام ، وأن السنة الـ ٣٦٥ ستحدد منذ بدايتها نهاية المسيحية المحتومة . ومن ثم كان النصف الأول من كتـاب « مدينة الله » مخصصا برمته للنقد المرير . ويدلل أوغسطين عن ضآلة ما صنعه الآلهة الأقـدمون فى سبيل انقاذ روما فى عصريها الجهورى والامبراطورى ، وفى سبيل حقن الدماء سواء فى الداخل أم فى الخـارج ، وانتشال الرومان من الفساد الخلقى الذى استشرى فى كيانهم . بل إن أوغسطين يشرح كيف أن هذه الآلهـة التى لاخلاق لها ، وتلك الخرافات العالقة بطقوسها الدينية ، قد شجعت على انحلال الأخلاق ، ومن ثم جلبت على الناس نقمة الله (٢) . ثم يستطرد قائلا إن « العالم الأرضى » يشارك حتما فى فساد الانسان الذى تردى فى الخطيئة . وكان الواجب أن تكون جنة عدن خلوا من حرفة السياسة ومن الملـكية ، لأن السياسة والملـكية هما النتيجة المباشرة لسقوط آدم . ثم أليس قابين هو القاتل الأول ، الذى ورد عنه أيضا فى التوراة أنه مؤسس أول مدينة . (٣) وفى آشور أسس نمـرود Nimrod الذى رأى فيه العصر الوسيط عـدوا لدودا لله ، أول امبراطورية عظيمة . (٤) ثم أن روما نفسها قد أسست فوق

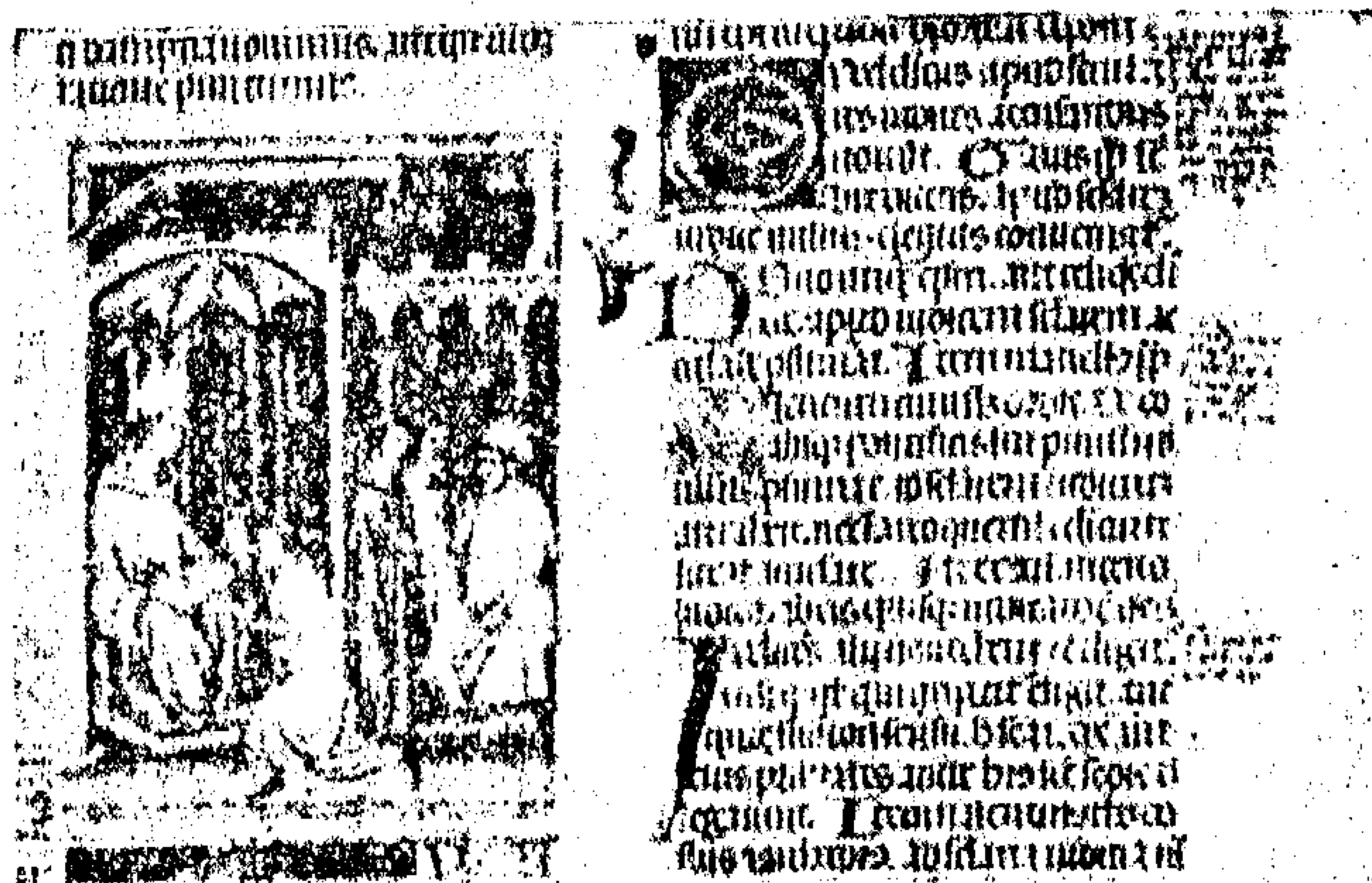
(١) المقصود بذلك الديانة المسيحية .

(٢) أنظر عن ذلك LaMonte, The World of the Middle Ages, 78

(٣) أنظر العهد القديم — سفر التكوين — الاصحاح الرابع : ٩ و ١٦ .

(٤) أنظر : العهد القديم — سفر التكوين — الاصحاح العاشر .

لوحة رقم ٨ (أ)



مرسوم جراشيان

لوحة رقم ٨ (ب)



مدينة الله للقديس أوغسطين

وهما نموذجان من مخطوطين قيمين

أرض لطخت بالدم . (١) ومنذ ذلك الحين أخذت روما تلطخ يديها في دماء القديسين . لقد كان حكم روما الطويل جزءا من خطة الله ، وكانت انتصاراتها على قرطاجنة وغيرها من المنافسين لها انتصارات الله بنوع ما ، حيث أنه قد اختار هذه الامبراطورية العالمية باعتبارها تأسيسا ماديا لامبراطوريته الخالدة . وقد كانت روما «المتحضرة» متدينة متمدينة ، هادفة من وراء ذلك تقريب العالم الناهض الى المسيح . وقد تمت هذه المهمة . ولم يكن لتخريب روما سالف الذكر في سنة ٤١٠ من أثر أكثر من كونه فقاعة واحدة زيدت فوق مياه نهر الزمن . وإن المدينة الأرضية تفنى كما يفنى جسم الإنسان ، أما مدينة الله فانها تدوم مع الروح . ويختم اوغسطين حديثه بذلك النص المعبر عن العزاء الجيل نقلا عن الرسالة إلى العبرانين ، وهو : « إذا بقيت راحة لشعب الله . » (٢)

إن الكتاب المذكور جدير بما يتمتع به من شهرة ومن تأثير لا مثيل لها . أما نقطة الضعف فيه فهي أنه بالنسبة لعصره ولعصور عديدة لاحقة ، يعتبر كتاب شعوذة قوامه الزيغ والمهاترة ، حتى أن أقل القراء حساسية يمكنهم أن يلمسوا فيه أحيانا حرية مطاقة في تفسير الكتاب المقدس . ومن قبيل ذلك ما لمسناه في مثلي قايين ونمرود . ومع ذلك فالكتاب زاخر بالعلم الأصيل . وإن كثيرا من الحقائق الهامة التي وردت عن تاريخ روما

---

(١) يقصد المؤلف بذلك حادثة قتل رومولوس Romulus شقيقه ريموس Remos ليستأثر وحده بالحكم .

(٢) العهد الجديد ـ الرسالة إلى العبرانيين ـ الاصحاح الرابع : ٩ .

الاجتماعى لم تصل الينا إلا عن طريق النصوص التي نقلها اوغسطين عن المؤلفين الأقدمين .

وأهم من هذا وذاك أن الكتاب يمثل واحدا من أقدم الجهود ، إن لم يكن أقدمها على الاطلاق ، التي بذلت لخلق فلسفة التاريخ ، ولوضع اليد على خيط نهتدى به فى زحمة تقلبات الأحداث التى تمس الجنس البشرى : وحتى أولئك الذين كانوا لا يميلون الى قبول تفسيرات اوغسطين من حيث قيمتها السطحية الظاهرة ، ربما يعترفون الآن بأنه كان صادقا ، وأن أهمية التاريخ الحقيقية انما تكمن فى هذا النزاع الأبدى بين المثل العليا وبين الواقع الذى نعيش فيه والذى نخضع له جميعا باخلاص ، ذلك الواقع الذى لم يتحقق قط وقد لا يتحقق إطلاقا . بيد أنه قد ينادينا فى أوج أزمة حادة طارئة ، لواجب ربما نلتزم له بطاعة تفوق ما نلتزم به من طاعة لقوانين البشر . وقد مزج القديس اوغسطين آرائه بالمذهب القائل بازدواج الألوهية الذى دل عليه الفكر المسيحى المتقدم ، وهو أن قوى الخير فى هذا العالم تتوازن مع قوى الشر تماما . لقد بدأ القديس اوغسطين حياته كمانوى : (١) والمانوية مذهب شديد التمسك بمبدأ الثنائية القائل بوجود الهين مستقلين فى الكون الواحد للخير والآخر للشر . ومن ثم فان خبرته الشخصية ذاتها قد أغرته بدورها على المبالغة فى عنصر الازدواج فى المسيحية . وبوسع أى قارىء أن يدرك ذلك بالرجوع الى اعترافاته « Confessions » التى تعتبر أول ترجمة يدونها شخص عن نفسه فى تاريخ الأدب قاطبة . ولكن أحداث الحياة العادية تفرض

---

(١) نسبة الى المذهب المانوى الفارسى القائل بوجود مبدأين فى الكون : النور أو الله والظلمة أو الشيطان .

علينا جميعا قدرا من الازدواج : هذا وسيعمل الفهم السليم على ترديد ملاحظة اوغسطين القائلة بأنه حيثما اجتمع رجلان من الأشرار ، فلابد من أن يختلفا وأن يتعاركا ، وأنه حيثما اجتمع رجل طيب وآخر شرير فلابد لهما من أن يتنازعا أيضا . ومن ثم فلا وسيلة الى تفادى الصراع الا فى مجتمع جميع أفراده على شاكلة واحدة من الخلق الطيب الكريم : وهكذا كانت الحياة صراعا بين الجسد والروح وبين الظلام والنور . وستظل هذه الحقيقة ماثلة حتى لو نبذنا كل مبالغات القديس اوغسطين ، وفعلنا كل ما يستطيع الحق أن يفعله فى سبيل تخفيف الفوارق فى هذا العالم .

وسوف تتكشف بوضوح تلك الاستنتاجات السياسية التى تتعلق « بمدينة الله » بعد انهيار السلطة الامبراطورية المركزية . وقد كان للكنيسة فى ذلك الوقت مطالب سياسية مشروعة لها أهميتها . ولما كان نظامها قد شكل بصفة نهائية وفقا لنظام الدولة ، فقد أصبح هذا النظام أكثر مرونة نظرا لأنه كان أكثر روحانية . وقد ألقى انهيار السلطة المدنية على عاتق الكنيسة كافة المسئوليات المتعلقة بالشئون الاجتماعية . كما ألقى على كاهلها فى بعض الحالات عبء صيانة الطرق والكبارى : ولقد اضطلعت بهذه الواجبات وجنت مكافأتها الطبيعية ، تلك المكافأة التى كانت تتمشى بصفة خاصة مع نسبة الأهمية المتزايدة لأسقف روما الذى كان له الفضل فى اتساع نفوذها وفى نظامها المحكم ، وذلك بصورة تكاد أن تكون نهائية ، مثلما اتسع نفوذ البيروقراطية المدنية المحكمة التنظيم فى شخص الامبراطور . ولذلك عندما تم احياء الامبراطورية فى الغرب سنة ٨٠٠ فى عهد شارل العظيم ، كان قد ظهر لها منافس سياسى خطير الا وهو البابوية . وبناء على هذه المنافسة تركز كل الفكر السياسى اللاحق فى العصور الوسطى بصورة

شبه نهائية (١) وكانت الخطوط الرئيسية لهذه المنافسة قد تحددت طبيعيا فى كتاب « مدينة الله » . وكان من المسلم به أن الكنيسة والدولة لا انفصام بينهما ، شأنهما فى ذلك شأن الروح والجسد . بيد أنهما لا تزالان فى حاجة الى إعادة تنظيمهما والى العناية الدائمة بهما ، مما لا يقل عما كانتا عليه من قبل . وعلى الرغم من أن أوغسطين لم يسلم بذلك على طول الخط ، إلا أنه يعترف إجمالا بضرورة إعطاء ما لقيصر لقيصر . ولكننا نجد فى هذا الكتاب الشيء الكثير الذى يكشف فى سهولة عن تأييد المطالب البابوية . وبعد أقل من قرن من الزمان (حوالى سنة ٤٩٥) ألقى البابا جلازيوس (٢) Gelasius تصريحا يستحق الذكر ، قال فيه إنه فيما يتعلق بالشئون الدنيوية يكون للامبراطور حق إصدار القوانين وعلى رجل الدين الطاعة . أما فيما يتعلق بالشئون المتصلة بالعقيدة الدينية والطقوس المرعية يكون البابا هو المرجع فيما يصدر عن ذلك من قرارات . فهذه المعاهدة التى أصدرها جلازيوس ، كما أطلق عليها ، قد نفذها القديس جريجورى الكبير (٥٩٠-٦٠٤) الذى حول الشعوب الانجلوسكسونية إلى المسيحية . لقد اقتنع البابا جلازيوس بأن واجب الامبراطور بوصفه أحد الرعايا يقتضيه أن يصدر القوانين لصالح الامبراطورية ، حتى عندما كان يحتج عليها بأنها اعتداء خطير على امتيازات الكنيسة . ولقد كانت كلماته من قوة البيان بحيث يتعين نقلها برمتها . قال موجها الحديث الى الامبراطور وأعضاء مجلسه : « اعترف لسادتى

---

(١) فيما يتعلق بالكفاح بين الامبراطورية والبابوية فى العصور الوسطى والنظريات السياسية التى قامت حوله ، انظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ٣١-٣٢ و ٣٨ و ٤٠-٤٩ والحواشى و ٢٣٩-٢٤١ .

(٢) شغل البابا جلازيوس الأول الكرسي البابوى من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦ .

بأنني كنت شديد الخوف من هذا القانون ، لأنه يسد الطريق إلى السماء في وجوه الكثيرين من بني البشر ... ماذا أكون أنا ؟ ... ما أنا إلا تراب ودودة . بيد أنني ، وأنا أشعر بما أشعر به الآن من أن هذا القانون موجه ضد الله الذي خلق كل شيء ، لا يمكنني السكوت عليه أمام سادتي ... ولما كنت رجلا أخضع لسلطة أعلى ، فقد عملت على أن يبلغ القانون المذكور إلى مختلف أرجاء المعمورة ... وهكذا أكون قد قمت بواجبي نحو كلا الفريقين . فمن ناحية ، قد أديت فريضة الطاعة للامبراطور ، كما تحدثت من ناحية أخرى بصراحة بما أشعر به نحو الله تعالى . »

وقد كان رجال الدين في الغرب هم وحدهم ، في الغالب ، الحفاظ على السجلات المكتوبة . فهم الذين كانوا ، عادة ، يعرفون دون غيرهم القراءة والكتابة . ومن ثم ، اذا كانت مواهبهم الحقيقية قد عادت عليهم بنفع سياسي استغلوه أحيانا الى أقصى حدود الاستغلال ، فانما كان ذلك ضعفا انسانيا يمكن التجاوز عنه . ولكن نيقولا الأول (٨٥٨-٨٦٧) خالف الاتفاق الجلازياني ، معتمدا على فقرة من كتاب « مدينة الله » ، وهي « انما الناس يتجمعون في شكل دولة من أجل السلام . » ومن ثم ، اذا عجز الحاكم العلماني عن المحافظة على السلام لسوء ادارته ، كان من واجب الكنيسة أن تتدخل في الأمر وأن تتولى الحكم حيث أخفق الحاكم في أداء واجبه . وربما كان المفهوم الصريح لمطالبة من هذا النوع هو تبرير أشد المبادىء البابوية تطرفا واذا كان جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) قد عاد مع مرور الزمن الى

المغالاة فى تفسير ما ورد فى كتاب « مدينة الله » ، فقد طالب كحقيقة واضحة تعلن عن نفسها ، بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قابين . وهكذا يكون باستطاعة البابا تعيين الأمراء وعزلهم . وفى عهد انوسنت الثالث (١١٩٨—١٢١٦) الذى كان محاميا كنسيا عظيما ، أخذت هذه المبادىء تسير قدما نحو الكمال . أما بونيفاس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣) فقد كانت له كذلك مطالب يحتمل أنها أهم من تلك التى أشرنا اليها . إلا أن اللغة التى صيغت بها هذه المطالب كانت أشد سقما من تلك التى استخدمها أسلافه . فهو يذكر أن كافة القوانين مودعة فى الحرز الكامن فى الصدر البابوى . ويستطرد قائلا : « ومرة أخرى نؤكد رسميا أن الخضوع للحبر الأعظم الرومانى (أى البابا) شرط ضرورى لابد منه لخلاص جميع البشر .. » وقد وزد هذا الرأى فى المنشور المقدس رقم « ١ » (١) 'Unam Sanctam' ، الذى يعتبر باجماع الآراء تقريبا من المنشورات القلائل الصادرة عن البابوية . ومن ثم كانت أمثال هذه المنشورات نفثات معصومة من الخطأ . (٢) وهاك ما قاله بونيفاس حرفيا : « وفضلا عن ذلك ، فاننا نعلن أن البشر جميعا خاضعون لحبر روما الأعظم ، ونؤكد قائلين بأن هذا المبدأ ضرورى للخلاص . » ولكننا نواجه هنا ظاهرة غريبة شائعة ، ذلك أن أشد

---

(١) صدر هذا المنشور سنة ١٣٠٢ ، وللمزيد من المعلومات عنه أنظر :
Hay, Italian Renaissance, 16; Downs, Basic Doc., 163 — 5.

(٢) انظر مثلا كتاب : L. Choupin, La Valeur des Décisions, etc., 12 (كولتون) .

الادعاءات الشعوبية تطرفا إنما تظهر عندما تكون الحقيقة قد بدأت تتوارى فعلا : وفي ذلك الوقت كانت البابوية قد أقلعت عن معاداة الأباطرة الذين أصبحوا حكاما بالاسم فقط على دولة تضم المانيا والنمسا ومعظم إيطاليا والأراضي الواطئة وبعض أجزاء من فرنسا ، تلك الدولة التي كان من الميسور بذر بذور الشقاق بين رعاياها وأخيرا قام البابوات في وجه ملوك كان يساندهم نوع من الشعور القومي البدائي . وهو شعور كان مهيأ لأن ينمو بقدر ما يلحق سلطان البابوية السياسي من انحلال .

وقد نما هذا الوعي القومي ، حسبما كان متوقعا ، جنبا الى جنب مع نمو الحقيقة الكبرى المتجهة نحو التمسك بالقومية نفسها . وكان الطلبة في الجامعات الكبرى يكونون منذ أقدم مراحل تطورها ما يعرف بالأمم . وكانت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا إلى حد معقول حربا قومية . ولم تنفع عالمية الكنيسة ، ولا الاستعمال العالمي للغة اللاتينية بين الشعوب المثقفة — وهما العاملان اللذان كانا في الغالب موضع تقدير يساند نفوذ يفوق بكثير ما تحقق منهما بالفعل — لم ينفعا في العمل على إنهاء ذلك الصراع القومي ، بل ساعدا على تأجيج ناره . وفي سنة ١٣٠٠ وجه بطرس ديبوا Pierre Dubois (1) نداء صريحا

---

(١) ولد بطرس ديبوا في نورمانديا فيما بين عامي ١٢٥٠ و ١٢٦٠ . درس في جامعة باريس واستمع الى محاضرات في اللاهوت والسياسة . وفي سنة ١٣٠٠ عالج عدة قضايا لكل من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا . ويحتمل أنه توفي سنة ١٣٢١ وكتب في أوقات =

ناشد فيه الشعور الوطني الفرنسي ، ويعني به ذلك الشعور السائد بين البارونات طالما كان عدد باقي المواطنين وعامة الشعب ضئيلا جدا حتى ذلك الوقت . وبطرس ديبوا هو الذى أيد فيليب الرابع ملك فرنسا فى النزاع الذى نشب بينه وبين البابا بونيفاس الثامن . وقد استهل ديبوا نداءه بالفرض المسلم به والقائل : « إنها لهبة يتميز بها الفرنسى أن يكون حكمه أضمن فى فرنسا عما هو الحال فى غيرها من الأمم . » ومن ثم فإن سلام العالم يكون فى أمان أكثر بإخضاع البابا للحكم الفرنسى . وقال ديبوا بأن البابوات كثيرا ما أشعلوا نيران الحرب بدلا من أن يعملوا على اخمادها . فدعوا البابوية تستبدل بمطالبها سيادة ملك فرنسا على العالم مقابل تعويض مادى مناسب وهكذا يمكن تأمين السلام فى العالم ، ويكون نيقولا الأول بانتهاكه الاتفاق الجلازيانى قد نفذ بلا شك انتقامه ، لأنه إذا حدث أن تخطى البابا مرة واحدة حدوده المرسومة، وتدخل فى حكم الأمراء الزمنيين بدعوى العمل على تحقيق السلام ، فان الحاكم

= فراغه عدة مذكرات رفع معظمها الى فيليب الجميل ، وكانت تتناول اصلاحات فى النواحى الاجتماعية والحربية والمالية والكنسية . وكان من المقربين إلى الملك الفرنسى ، ومن المؤيدين الملكية الفرنسية . وكان يأمل كذلك فى أن ينتخب ملك فرنسا أمبراطورا ، وأن يؤسس سلطته العالمية ليس على الغرب فحسب ولكن على الشرق أيضا : وكان من المتحمسين لفكرة إحياء الحرب الصليبية فى القرن الرابع عشر . تلك الفكرة التى كانت قد لقيت مصرعها فى أخريات القرن الثالث عشر . ولديبوا فى ذلك أكثر من مؤلف : أنظر :

Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 47—52; idem, Crusade, Commerce and Culture, 97 –98.

الدنيوى يستطيع مرة أخرى أن يتعالى بنفس السبب لمخالفة الاتفاق لصالحه . هذا ، وقد أصبحت البابوية منذ حوالى سنة ١٢٥٠ فصاعدا ، قوة سياسية راسخة الدعائم تتدخل فى كافة أشكال الصراع التى تنشب من أجل السيادة العلمانية ، وتوجهها بالوسائل السياسية والعسكرية العادية ، حتى لقد أثار رد ديبوا المفحم الإحساس بأنه كان فريداً فى فاعليته : وحوالى ذلك الوقت بالذات ، بنى مارسيليوس أوف بادوا اعترافاته ضد البابوية إلى حد بعيد على نفس السبب ، وهو أن المعروف عن البابوات أنهم أثاروا فى أوروبا الحروب أكثر مما عملوا على منعها . وقد أشار مكيافيللى (١) ، قبل ظهور حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا بسنوات قلائل ، إلى ذلك الأمر مرة أخرى باعتباره حقيقة معروفة ، والواقع أن الأحداث التى وقعت خلال هذين القرنين ، أى فى الفترة الممتدة بين مكيافيللى وديبوا ، كان لها أكبر الأثر فى تبرير الاتهام ضد البابوية « Discorsi sopra la Prima Deca di Tito Livio » . وان الأهمية التى يتمتع بها مارسيليوس تستوجب تخصيص كلمة عنه . فقد تلقى علومه فى البداية فى جامعة بادوا موطن رأسه ، وقام بالتدريس فيها ، حيث كانت المناقشة فى الشئون السياسية وفى فلسفة التشاؤم أكثر ازدهارا عنها فى معظم أنحاء أوروبا . وقد اتخذ الطب مهنة له ، وعين رئيسا للجامعة فى باريس ، وهو منصب يعادل تقريبا منصب وكيل الجامعة فى وقتنا هذا . وهناك وضع بالاشتراك مع زميل

---

(١) ولد نيقولا مكيافيللى الفلورنسى سنة ١٤٦٩ وتوفى سنة ١٥٢٧ . وفيما يتعلق بحياته وآرائه السياسية وكتابه « الأمير » أنظر D. E. Muir, Machiavelli and His Times, 138 sqq. — أنظر أيضا جوزيبى بريتيزولينى : حياة نيكولو ماكيافيلى الفلورنسى - ترجمة طه فوزى - مراجعة حسن محمود القاهرة ١٩٦٤ .

فرنسي سنة ١٣٢٥ أو ١٣٢٦، ولفه المشهور « المدافع عن السلام » Defensor Pacis . وهو كتاب مثير للغرابة فى قالب من الفكر الحديث . ويكاد المؤلف ينسلخ كلية عن تقاليد القرون الوسطى ، ومع ذلك يمدنا الكتاب ببيان واضح من بين المعلومات المبعثرة الدالة على أنه تحت الرأى الظاهرى المتفق عليه فى كل المسائل الجوهرية ينطوى تمرد شامل حتى بين أساتذة الجامعة وفى محادثاتهم الخاصة . فمارسيليوس هو أحد الكتاب القلائل فى العصور الوسطى الذى يرتفع بقلمه الى مستوى يشبه ما يدون من التاريخ بالطرق الحديثة . إنه يرى بوضوح كيف أن الكثير من التقاليد الجديرة بالاحترام لا يتفق بالمرة مع الأدلة الصحيحة المدعمة بالمستندات . على أنه بصفة عامة لم يغامر بالتلميح عن الغش فى المراسيم المزيفة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المعاصرين له . ومع ذلك نراه يكشف عن عدم الأصالة فى إحدى الوثائق الأصلية التى يطلق عليها اسم « رسالة البابا كليمنت (١) الى يعقوب تلميذ المسيح . » إذ وضع الوثيقة المذكورة تحت فحص علمي دقيق لم يجرؤ — للأسف — إلا القلائل من مفكرى القرون الوسطى على تطبيقه على وثائقهم التاريخية . ذلك أنه يلاحظ (٢) فى الجزء المعنون « بشأن الملابس والأوانى المقدسة ، الى يعقوب تلميذ السيد » ، والجزء المعنون « حياة الرسل العادية » ، أنهما مكتوبان بطريقة يستشف منها كأن كليمنت كان يصف ليعقوب ما صنعه المسيح مع رسله : غير أن ذلك لو صح ، لكشف عن جهل كليمنت الفاضح ، إن لم يكن عن غطرسة بغية أن يبالغ ما سمع هو عنه من الأمور فى شىء من المبالغة والتهويل الى الشخص الذى كان حاضرا بين الرسل ، والذى كان هو نفسه أحدهم ورأى المسيح رأى العين . وإلا فمن الذى بوسعه تعليم الحواريين

(١) المقصود كليمنت الخامس أول بابوات أفنيون .

(٢) Defensor, ed. Previté - Orton, 431 (كولتون) .

فى بيته المقدس حيـاة المسيح ورسله ؟ وبنـاء على ذلك ، هل يخامر أحد الشك فيما إذا كان من الأفضل أن يقوم بهـذه المهمة أحد رسل المسيح ، أم أن يقوم بها مجرد خليفة للرسل ؟ ولهذا يتعين اعتبار الأجزاء المذكورة من الرسالة غير موثوق بصحتها ، حتى لو سلمنا بأن كليمنت هو الذى كتبها كما يصر البعض، معتمـدين فى ذلك على روايات خرافية . وليس هذا فحسب ، بل إنهم يذهبون الى أبعـد من ذلك ليقولوا إن كليمنت عند ما كان أسقفا على روما حيث توجد كنيسة الله ، كان أرفع مرتبة من يعقوب الرسول . فمن ثم يجب علينا أن نتساءل : لماذا لم تدرج رسائل كليمنت فى الكتب المقدسة المعتمدة من الكنيسة ، كما اعتمدت رسالة يعقوب ؟ أما فيما يتعلق بالأمور الواردة فى هذه الرسائل والتى يبدو أنها تتعارض مع حكم المسيح ورسله ، فسوف نعالجها عند تناولنا لنصوص الكتاب المقدس التى يبدو أن اولئك الناس قد اعتمدوا عليهـا .

ويعالج [أى بادوا] بعد ذلك نصوص العهد الجديد قائلا إنها لا تتضمن أى تأكيد فى صالح السيادة البطرسية فى العصور الوسطى . وهو ، على العكس من ذلك ، يظهر لنا أن كلا من القديس بولس والقديس يعقوب، كان يقـوم بالدور الذى طالب اللاهوتيون فى العصور الوسطى بأن يقوم به القديس بطرس دون سواه : ثم يستطرد قائلا إن القديس بولس كان المؤسس الحقيقى الأول لكنيسة روما المحلية . وكانت المجالس الكنسية العامة قد دعيت منذ البداية للانعقاد تحت رئاسة الأباطرة وليس البابوات : وإن الكسب الذى أحرزه البابا سنة ١٣٢٥ إنما كان عن طريق الاعتداءات المتوالية على السلطات العلمانية : فقد ألغى تدريجيا نظام الانتخابات الشعبية، وانهالت عليه الهبات بوفرة ، تصاحبها عوامل الاغراء بالدنيويات . ولا يعتبر تدخل البابا ورجال الدين فى الشئون المدنية اعتداء فحسب ، وإنما هو عبث

مىء المقبة » وإن أعلى سلطة فى المسيحية بعد المسيح هى الـكتاب المقدس ، وأعلى محـكمة هى عبارة عن مجلس عام يجب تمثيل رجال الدنيا والدين فيه على السواء ، وللامبراطور وحده الحق فى دعوته للانعقاد . وحتى البابا ليس له أية ضرورة فى المسيحية . وغير خاف أنه يؤدى بعض الواجبـات التى يصعب تنظيمها بطرق أخرى ، ولكن الاستغناء عنه كلية لن يترتب عليه تعذر القيام بأى نشاط مطلوب . وليس لنظريات مارسيليوس الثورية من هدف سوى مصانعة الامبراطور الذى انحاز إلى جانبه فى الصراع بين الامبراطورية والبابوية . ومن ثم كان مارسيليوس يدين بحياته لحماية الامبراطورية . وهو ، على العكس من ذلك ، لا يشك فقط فيما إذا كان من المرغوب فيه إقامة حـكم عالمى ، بل أيضا فيما إذا كانت أى حـكومة تعتبر أفضل من النظام الجمهورى ، حتى أنه عندما أصدر هنرى الثامن أمره بترجمة كتاب « المدافع عن السلم » لتعزيز قضيته ضـد البابا ، كان على المترجم أن يحذف منه الكثير من العبارات حتى يتفادى الاساءة إلى الملك .

وثمة هزة أخرى أصابت السلطة البابوية عندما غادر كليمنت الخامس وخلفاؤه روما الى أفنيون (١٣٠٥—١٣٧٨) . فضلا عن صدمة أشد عنفا عندما تسببت القطيعة الدينية الـكبرى فى الغرب (١٣٧٨ — ١٤١٨) فى استحالة البت فى النزاع بين البابويين المتنافسين لعدة سنوات . وكانت القديسة كاترين السينية (١) St. Catherine of Siena . على ثقة من

(١) كان لها دور معروف فى سبيل عودة البابوية من منفاها فى افنيون إلى مقرها القديم فى روما ، عندما قامت باقناع جريجورى الحادى عشر آخر بابوات أفنيون بالعودة الى روما ، في وقت كان فيه الرأى العام الكاثوليكى ضد إقامة البابوية فى افنيون . أنظر عن ذلك : LaMonte, The World of the Middle Ages, 638.

أن البابا الايطالى هو النائب الرسولى الحقيقى للمسيح ، أما القديس فنسان فيرر St. Vincent Ferrer فلم يكتف بالانحياز إلى جانب الفرلسيين، بل أخذ أيضا على عاتقه أن يثبت بمنطق قوى الحجة أن كل من تعلق بالبابا الايطالى حقت عليه اللعنة ، فيما عدا البعض الذين يمكن التماس العذر لهم بسبب جهلهم الفاضح . وعلى أثر ذلك لجأ مجلس كونستانس(١٤١٤-١٤١٨) إلى تأكيد تفوق سلطة المجالس العامة على البابوات ؛ وهكذا أحال بصفة مؤقتة حكما مطلقا دام عدة قرون إلى حكومة دستورية . بيد أنه حدث فى مجلس بازيل (١٤٣١ — ١٤٤٢) أن اشتد ضغط الديمقراطية ، فأسفر عن رد فعل كان من أثره أن شهدت السنوات الأخيرة من القرون الوسطى أوتوقراطية نامية فى كلا المجالين الدينى والدنيوى .

ولم يكن المجتمع قد نضج بعد بحيث يتفهم شيئا من قبيل الديمقراطية الحديثة . هذا،وكان ينطوى تحت الفكر السياسى الوسيط منذ بداية ظهوره الضغط على فكرة الوحدة التى كان يتمناها جميع المتحمسين ، لأن المجتمع كان فى الواقع ممزقا خلال قرون عدة لنتيجة الحروب المستمرة فى الداخل أو الخارج ، والتى لم تكن تعرف الهدوء . لقد كانت فوضى العصور المظلمة هى التى أمدت الاقطاعية بالقوة والثبات ؛ ومن أجل نفس الأسباب التى قيلت لصالح التطور من الفوضى الى الاقطاع ، رحب الناس تدريجيا بتطور الاقطاع من نظام شبه جماعى إلى آخر جماعى كامل يسوده حكم مطلق سواء فى الكنيسة أم فى الدولة . ويقول جيركى Gierke :

« وفى ثنايا كافة مؤلفات كتاب القرون الوسطى كان يسرى تيار قوى ملحوظ نحو الحكم الفردى . وهنا نجد تناقضا شديدا بين كل من الفكر القديم والفكر الوسيط . » ويقول الأستاذ هـ . و . س . ديفيز H. W. S. Davis : « إن الحكومة الصالحة فى القرون الوسطى لم تكن إلا إسما آخر لدولة قوية ذات طابع شعبى » .

بعض المراجع للفصل التاسع

١ ـ القانون

Brunot, F. E., Histoire de la langue française des origines à 1900. Vol. I : moyen âge. Paris, 1905.

Buckland, W. W.,

1 — Textbook of Roman Law, Augustus to Justinian. Cambridge, 1921.

2 — A Manual of Roman Private Law. Cambridge, 1925.

Davenport, E. H., The False Decretals. Oxford, 1916.

Delisle, L., Littérature latine et histoire du moyen âge. Paris, 1890.

Dodd, J., History of Canon Law. London, 1881.

Flach, J., Etudes critiques sur l'histoire du droit romain au moyen âge, avec textes inédits. Paris, 1890.

Français, E. A., Studies in Medieval French. 1961.

Haskins, C. H., The Rise of Universities. New York. 1960

Hove, A. van, Prolegomena ad codicem iuris canonici. Mechlin, 1928.

Huchon, R., Histoire de la langue anglaise. 2 vols. Paris, 1923, 1930.

Hunter, W. A., Roman Law. London. 1903.

Jenks, E., Law and Politics in the Middle Ages. London, 1913.

Koffmane, G., Geschichte des Kirchenlateins. Breslau, 1879-81.

Laurin, F., Introduction in Corpus juris canonici. Freiburg, 1889.

Leage, R. W., Roman Private Law. New York, 1906.

Nunn, H. P. V., An Introduction to Ecclesiastical Latin. Cambridge, 1922.

Pometti, F., Il Decretum di Graziano nei suoi Precedenti storici e nelle sue consequence storico-ecclesiastiche. Corigliano Calabro, 1910.

Rashdall, H., The Universities of Europe in the Middle Ages. 3 vols. Oxford, 1895.

Rumpf, P., L'étude de la latinité médiévale. Geneva, 1925.

Souter, A, Hints on the Study of Latin (A. D. 125-750). London, 1920.

Thorndike, L., University Records and Life in the Middle Ages. New York, 1944.

Vinogradoff, P., Roman Law in Medieval Europe. Oxford, 1929.

Vising, J., Anglo-Norman Language and Literature. Oxford, 1923.

Waywood, S., A Practical Commentary on the Code of Canon Law. New York, 1926.

Wyld, H. C., A Short History of English. New York, 1927.

ب ـ السياسة

Augustine (St.), City of God. English trans by J. Healey 2 vols. Edinburgh, 1909.

Bertrand, L., Saint Augustin. Paris, 1913.

Bowsky, W. M., Henry VII in Italy: The Conflict of Emprie and City-state. 1310-1313 1961.

Carlyle, R. W. & Carlyle, A. J., A History of Medieval Political Theory in the West. 5 vols. Edinburgh & London, 1903-28.

Cutts, E. L., Saint Augustine. London, 1909.

Dopffel, H., Kaisertum und Papstwahlen unter den Karolingern. Freiburg, 1889

Dunning, W. A, A History of Political Theories, Ancient and Mediaeval. New York 1902

Eichmann, E., Kirche und Staat Vols. I-II (750 1350 A. D.). Paderborn, 1912-14

Figgis, J.,

1- The Political Aspects of St. Augustine's City of God.
2- Political Thought from Gerson to Grotius: 1414-1625. New York, 1960.

Fournier, P., Etudes sur les fausses Décretales. Louvain, 1907.

Gierke, O., Political Theories of the Middle Age. Trans. by F. W. Maitland. Cambridge, 1900.

Greenwood, A D., The Empire and the Papacy in the Middle Ages London 1901

Humphrey, E. F., Politics and Religion in the Days of Augustine. New York, 1912.

Janet, P., Histoire de la science politque dans ses rapports avec la morale 2 vols. Paris, 1887.

Jarrett, B., Social Theories of the Middle Ages, 1200-1500. London, 1926.

Lea, H. C, Superstition and Force. Philadelphia, 1892.

Lewis, E., Medieval Ideas. 2 vols. London, 1954

Mathew, A. H, The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes. London. 1908.

Pelugk-Harttung, Die Papstwahlen und Kaisertum, 1046-1328. Gotha, 1908.

Pirano, S., Stato e chiesa, 888-1015. Turin, 1908.

Sägmüller, J B, Lehrbuch des katholischen Kirchenrechts. Freiburg, 1925.

Salin, E., Civitas Dei. Tübingen, 1926.

Savigny, F. C. v., Geschichte des römischen Rechts im Mittelalter. 7 vols. Heidelberg, 1834-51.

Schilling, O., Naturrecht und Staat nach der Lehre der alten Kirche. Paderborn, 1914.

Seidel, B., Die Lehre des heiligen Augustinus vom Staate. Breslau, 1909.

Sokolwski, P v., Der heilige Augustin und die christliche Civilisation Halle. 1927.

Tout, T., The Empire and the Papacy. European History, 918-1273. London, 1909.

Ullmann, W., Principles of Government and Politics in the Middle Ages. London, 1961.

Waley, D. P., The Papal State in the 13th. Century. 1961.

الفصل العاشر

الكنيسة وعالم الاقتصاد

كان جــل اهتمامنا موجها حتى الآن الى دراسة الفكر الوسيط من ناحيتيه الأكاديمية والرسمية دون سواهما. ولكن الواجب يقتضي ألا نقف عند هــذا الحد. فان من أشد الأخطاء فيما يتعلق بما نتوقعه من الأحداث التاريخيــة البعيدة ، الحكم على عصر ما بعظماء رجاله فحسب ، ولو أنه يتعين علينا بطبيعة الحال أن نبــدأ أولا بعظماء الرجال : وقد غالى المؤرخون كثيرا في فاعليــة النظم في العصور الوسطى ، وتبعا لذلك في تجــانس المبادىء التي قامت عليها تلك العصور . وبوسعنا ملاحظة ذلك في مبــدأ من أهم المبــادىء الوسيطة ، ألا وهــو مبدأ السعر العادي في التجارة ، مع ما يلحق به من تحريم الربا :

ففي ظل ذلك النظام المحكم الذي قرره القانون المــدني ، والذي نما ونسق في الامبراطورية الرومانية — كان المبــدأ الاقتصادي السائد هو أن يهتم كل امرىء بنفسه . وكان الشعار المعمول به هو : « دع المشتري أن يكون على حذر » (١) ولكن قانون الكنيسة الوسيطة ، وكذلك الدولة بقــدر ما سمحت به لنفسها بأن تتــأثر بهذا القانون ، قد حاولا تأكيــد الآية الواردة في الكتاب المقــدس ونصها : « فكل ما

---

(١) بمعنى ان يفحص المشتري بضاعته بنفسه دفعــا لمسئولية التــاجر فيما إذا حاول المشتري الرجوع عليــه إذا ما اكتشف عيبا في مشترياته بعد استلامها .

تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم » (١) . ولقد كان المسيحيون الأوائل جميعا على جانب كبير من الاشتراكية (٢) ، بحيث لم يكن بينهم إلا القليل من المعاملات التجارية ، إن لم تكن التجارة

---

(١) هي جزء من موعظة المسيح على الجبل : أنظر : انجيل متى — الاصحاح ٧ : ١٢ .

(٢) ذكر كولتون أن المسيحيين الأول كانوا على جانب كبير من الاشتراكية ، والواقع أنه فضلا عن القيم الروحية فى دعوة المسيح ، فالكتاب المقدس مليء بالآيات الدالة على الاتجاهات الاشتراكية ، فالمسيحية تحرم الربا . وقد جاء فى انجيل لوقا - اصحاح ٦ : ٣٥ « ... أقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا » . وهي تدعو إلى عدم تكديس المال واكتنازه باعتبار أن المال وظيفة اجتماعية . جاء فى موعظة المسيح إلى تلاميذه على الجبل — انجيل متى ٥ : ٤٢ «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض » : وفى رسالة المسيح تقديس لقيمة العمل ، وأن لكل حسب عمله . جاء فى رسالة القديس بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى اصحاح ٣ : ٨ « ولا أكلنا خبزا مجانا من أحد بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلا ونهارا لكى لا نثقل على أحد منكم » ، وفى نفس الرسالة — اصحاح ٣ : ١٠ « يزداد هذا الأمر وضوحا ، إذ جاء « إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا لأننا نسمع أن قوما يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئا بل هم فضوليون ... » . وهذا يعنى تقييم الفرد فى المجتمع بعمله ومجهوده ، بمعنى أن يأخذ كل فرد نتيجة عمله . فمن يتعب ويكد ينال ثمرة تعبه وكده ، والعكس بالنسبة لمن لا يتعب ولا يعمل . وهذا يتضمن العدالة والمساواة فى الفرص المتكافئة أمام كل فرد فى المجتمع . والدعوة تنادى كذلك إلى نبذ الطبقية حتى لا تستغل طبقة بقية المجتمع الذى يتألف من الجماهير العاملة ، مع العمل فى نفس الوقت على إشباع كافة مطالب الناس . ونجد مثلا واضحا لذلك فى أعمال الرسل — اصحاح ٢ : ٤٣ — ٤٥ . =

فى حكم المعدومة . وكان الكتاب المسيحيون فى القرون الأربعة الأولى شديدى التمسك بالمذهب الطهرى فى موقفهم من التجارة ؛ وجاء فى فقرة منسوبة إلى القديس حنا فم الذهب (١) St. Chrysostom المتوفى سنة ٤٠٧

= ولكن الذى حدث أن الغرب الاوروبى ، بعد قرون قليلة من ظهور المسيحية ، أخذ ينحرف عن جوهر الرسالة . فأصبحت الطبقية والاقطاع من السمات المميزة للعالم الغربى لقرون طويلة . وانزلقت البابوية فى روما والكنيسة اللاتينية نفسها إلى الاقطاعية نتيجة لظروف عديدة تتعلق بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ثم أخذ الفساد يدب فى الجهاز الكنسى البابوى فمن رشوة ، إلى صكوك غفران ، إلى محاكم تفتيش ، إلى احتكار للشئون الدينية والدنيوية على السواء، إلى أن غدا رجل الدين هو الواسطة بين الخالق والمخلوق وحتى عندما حل الاقتصاد النقدى فى أخريات العصر الوسيط محل الاقتصاد الاقطاعى ، وقامت المدن بسكانها من أفراد الطبقة المتوسطة المشتغلين بالتجارة والصناعة ، والذين كانوا يعرفون وقتها باسم البرجوازية ، انبثقت من بينهم طبقة أخرى هى طبقة كبار التجار التى سيطرت على المدن وعلى السلطات العليا فيها من سياسية وإدارية ومالية وقضائية . وكانت هذه هى النواة الأولى للرأسمالية التجارية فى الغرب فى عصر النهضة . وبظهور الثورة الصناعية واستخدام الآلة الحديثة فى القرن الثامن عشر تحول الغرب إلى الشكل الرأسمالى بمدلوله الحديث ، ونعنى به رأسمالية الصناعة ، وأصبحت البرجوازية تعنى حاليا الطبقة الرأسمالية . ويكشف هذا العرض السريع كيف بعد الغرب عن التعاليم الأصيلة للمسيحية وما نادى به المسيح ، إلى أن وصل إلى ماوصل اليه الآن ؛

(١) ولد يوحنا فم الذهب فى أنطاكية سنة ٣٤٧ . وأصبح أسقفا على القسطنطينية سنة ٣٩٧ . وكانت حملته العنيفة ضد الفساد والتدهور فى العاصمة البيزنطية سببا فى كراهية الكثيرين له ، وبخاصة أفراد الطبقة العليا ، مما أدى فى النهاية إلى نفيه خارج البلاد سنة ٤٠٣ بتهمة انحيازه إلى آراء أوريجين =

ما يلي : « اذا اشترى أى فرد شيئا لا ليبيعه كما اشتراه ، دون أن يحدث تغييرا فيه ، ولكن ليكون مادة يصنع منها شيئا جديدا ، فهذا الشخص لا يعتبر تاجرا : ولكن الرجل الذى يشترى شيئا بقصد الكسب من بيعه ثانية

السكندرى ولكنه استدعى خوفا من ثورة الشعب ، نظراً لأنه كان محبوبا جدا من العامة . ثم نفى مرة أخرى لمواقفه المتشددة ، وتوفى فى منطقة البحر الأسود سنة ٤٠٧ . وقد ترك كتابات كثيرة تضمنت آراءه وأفكاره .أنظر عن ذلك : Blakeney, Everyman's Smaller Classical Dict., 144.

ويوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء عدة مخطوطات باللغتين العربية واليونانية القديمة ، تتناول سيرة يوحنا فم الذهب وأخباره وقصصه وميامره ، يرجع تاريخها فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر . ومن أهم المخطوطات العربية نذكر :

١ — « برلام ويواصف وميامر لا . طاسيوس وثودلس وذهبي الفم للصوم الكبير وبستان الرهبان » (رقم ٥٠٦) أنظر ورقة ٣٣ أ ٥٣ أ — عدد أوراق المخطوط ١٧٥ - تاريخه القرن ١٣ .

٢ « ميمر لذهبي الفم وقصة مريم المغنية العبرانية وخبر يوحنا فم الذهب وشهادات بقطر وآخرين » (رقم ٥٢٠) أنظر ورقة ١ ب - ٩١ و ١٢٥ ب - ١٥٤ ب - عدد اوراق المخطوط ٢٧٦ - تاريخه القرن ١٠ .

٣ - « سيرة ابيفانوس وسيرة يوحنا فم الذهب واستشهاد بطرس بطريرك الاسكندرية » (رقم ٥٢١) أنظر ورقة ١٢٥ ا - ١٣٥ ا - عدد أوراق المخطوط ١٤٥ - تاريخه القرن ١١ .

٤ - « قصص يوحنا ذهبي الفم وابي القديسة » (رقم ٥٢٩) أنظر ورقة ٩ ب - ٢٧٩ ب - عدد أوراق المخطوط ٣٢٣ - تاريخه القرن ١٣ : =

دون أن يحدث تغييرا فيه بل كما اشتراه ، فهذا الشخص يكون أحد المشترين أو البائعين المنبوذين من معبد الله » وبعبارة أخرى، يمكنك أن تشترى خامات لعملك الخاص ، أما أن تشترى البضاعة المصنوعة بقصد الاتجار بها فذلك خطيئة . ولا تفضل هذه الخطيئة الربا إلا بقدر درجة واحدة ، وعلى أية حال، فان ذلك يطابق منطقيا ما قاله القديس بولس من أنه إذا لم يكن ممكنا أن يقاضى مسيحى زميلا له ، فمعنى ذلك أنه لن تقوم تجارة واسعة بين مسيحى وآخر. ومن المحتمل أن يكون هذا الكلام قد نسب خطأ الى القديس حنا فم الذهب ، وأن يكون قد صدر فى الحقيقة عن كاتب آخر متأخر .

= ٥ - « برلام و يواصف ونياحة العذراء وسيرة تادرس من دير سابا ومرقس الترمقانى وميامر ذهبى الفم وسير مكسيموس ودماديوس ونفريوس وغيرهم من القديسين » (رقم ٥٣٨) أنظر ورقة ١٦٨ ا - ١٧٣ ا و ١٧٨ ا - ١٨٠ ب - عدد أوراق المخطوط ٢٧٦ - تاريخه سنة ١٢١١م

هذا فضلا عن العديد من المخطوطات الموجودة بمكتبة الدير الذهبي الفم منها « قداس يوحنا فم الذهب » (رقم ٢٢٢) ، و « تفسير التكوين » (ارقام ٢٨٠ -٢٨٣ و ٤٤٩) ، و « خدمة القداس الالهي مع الصلوات » (رقم ٦٢٤) ، و « تفسير انجيل متى » (ارقام ٢٨٤ - ٢٩٠) ، و « تفسير انجيل يوحنا » (أرقام ٢٩١ - ٢٩٦ و ٤٧٢) ، و « تفسير رسالة رومية » (أرقام ٢٩٧ - ٢٩٨ و ٣٠٠) ، و « تفسير رسالة افسس » (رقم ٢٩٩) ، و « تفسير رسالة العبرانيين » (ارقام ٣٠١ - ٣٠٣ و ٥٩٢ و ٦٢٦) ، و « مقالات وعظات عن تفسير رسالة رومية » (رقم ٦٢١) ، و « تفسير على بعض رسائل بولس » (رقم ٤٧٨) . يضاف إلى ذلك عشرات المخطوطات التى تضمنت مواعظ ومقالات وميامر وتعاليم ومحاورات ورسائل الذهبي الفم محفوظة بدير سانت كاترين.

ولكن ذلك ربما يجعل لهذا الكلام أهمية أعظم من وجهة نظرنا في هذا الزمن، لأنه من الممكن إثبات أن هذا الضرر البالغ بالتجارة كان شائعا حتى بعد وفاة حنا فم الذهب . فضلا عن أن القول المذكور قد أدمج في مجموعة القوانين الكنسية Corpus Juris Canonici التي جمعت حوالى سنة ١١٥٠ (١)، والتي كانت موضع ثقة كبيرة طيلة القرون الوسطى وبعد انتهائها . ولم يكن هذا النص الذي فسر حرفيا غير متمش مع التجارة على أي نطاق واسع فحسب، بل كان قليل المرونة بحيث لم يسمح حتى بافساح المجال لأحد بأن يقيم حانوتا في قرية ، الأمر الذي حدا بالكنيسة إلى التراجع عن هذا الموقف المزيل . غير أن تراجعها تم تدريجيا، وكان في معظمه بصورة غير رسمية وغير معترف بها.

وفي سنة ١٢٥٠ واجه القديس توما الأكويني ، وهو لاهوتي معروف باعتداله ، بعض الصعاب في تفسير كلمات القديس حنا فم الذهب ، وهو ينظر إلى التجارة على أنها في ذاتها عمل مرذول بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وذلك بوصفها نتيجة لطبيعة الإنسان المعرض للسقوط في الخطيئة . ولا بد أن الجنة لم تقم فيها أية تجارة . وكان القديس انطونينو St. Antonino الذي كتب بعد عصر تشوسر بجيل واحد ، يؤيد هذا الرأي . انه لا يعارض فعلا القديس حنا فم الذهب ، ولكنه يحاول كثيرا أن يخفف من حكمه عليه بقوله : « إن التجارة في ذاتها شيئا محمودا ، إذ يمكن ان تحمد إذا اقتنع التاجر لنفسه بكسب شريف يضمن له الكفاف من العيش ، بحيث اذا

---

(١) Gratian, Decretum, Pars I, dist 88, cap II.Cf. History for July 1921, 69 (كولتون) .

زاد كسبه عن ذلك وجب عليه توزيع فائض دخله على الفقراء ، وهكذا برز مبدأ السعر العادل ذى الطابع الوسيط (١) وإن من حق الإنسان أن يعدل ربحه بحيث يكفيه وأسرته ليعيشوا فى نعمة معقولة تتفق مع مركزه فى الحياة ، أيا كان هذا المركز . ولكن لا حق له فى أية زيادة على ذلك .

ويمكننا جميعا تقبل هذا الوضع بارتياح باعتباره أمرا مثاليا . ولكن تبقى بعد ذلك الصعوبة الكبرى فى ترجمة هذا المعنى عمليا . وحقيقة الأمر أن هـذا التطبيق يحيل الاقتصاديات إلى مسألة ضمير ، فهى تبدأ بالمبدأ القـائل بأن الجيد أو الردىء إنما يرجع الى نوايا التاجر . فاذا كان يقصد مصلحة الشعب مكتفيا بكسب معتدل مقابل ما يقدمه من خدمات فذلك أمر حسن . اما اذا كان يهدف الى الحصـول على مزيد من الربح ، فان عمله يكون مجـردا من الاخلاق . وكان من الميسور تنفيذ هذه النظرية فى العصور الوسطى بنجاح فى بعض الحالات المعقولة نسبيا وفى تلك الأيام فعلت الحـكومات الوطنية والمحلية ما فعلناه نحن على نطاق واسع اثناء الحرب (٢) ، إذ ثابرنا على العمل منذ إلقاء السلاح . وقد حددت هذه الحكومات أسعارا لا لمعظم ضروريات الحياة فحسب ، بل للاجور أيضا . فالخبز مثـلا كان يباع طبقا لقـائمة الأسعـار اليومية التى تتغير تبعا لتغير سعر القمح فى السوق : وكانت الجعة تعتبر ضرورية ، وبلغ سعرها مرة بنسا ونصف بنس للجـالون من الصنف الممتاز ، وبنسا واحدا للجالون المتوسط الصنف ، ونصف بنس للعيار الصغير ، ولا شك أن تسعيرة انتاج الجعة هذه قد نجحت فى تحديد مستوى الأسعار الى حد ما ، ولكن دون أن يتم هذا التحديد بصورة كاملة . وكان كل رجل أو

(١) المقصود بذلك مبدأ السعر العدل فى العصور الوسطى .

(٢) المقصود انجلترا

امرأة يقوم بتحضير أجنة يعتبر من الناحية العملية مخالفا للتسعيرة الاتساع في حالة بيعها مخففة جدا أو باهظة السعر : وكان يتم تحصيل الغرامات عن هذه المخالفات كما لو كان التجار قد راعوا القانون ولكن يتعين عليهم الحصول على رخصة مقابل رسم يدفعونه عن المشروب ، كما يفعلون في أيامنا هذه .

ومع سرعة التقدم المهني والتجاري منذ حوالى سنة ١١٠٠ فصاعدا ، والذي يرجع بعضه الى الحروب الصليبية ، بدأت مشكلات جديدة في الظهور ، وأخصها مشكلة الربا ، أي إقراض النقود مقابل فوائد : والربا حسبما عرفته الكنيسة والقانونيون كان في بادىء الأمر مجرد فكرة ميسور تعريفها بوضوح في بضع كلمات : فاقراض النقود وقبول ربح بنس زيادة عن المبلغ المقرض هو ما يعرف بالربا . وكان الربا خطيئة مميتة ، لأنه محرم صراحة في الكتاب المقدس . (١) وقد رأينا كيف أنه بالنسبة

---

(١) الكتاب المقدس زاخر بالآيات الخاصة بتحريم الربا صراحة في العهدين القديم والجديد . ففي العهد القديم جاء في سفر الخروج (الاصحاح ٢٢ : ٢٥) « ان اقرضت فضة لشعبي الفقير فلا تكن له كالمرابي . لا تضعوا عليه ربا . » وجاء في سفر اللاويين (الاصحاح ٢٥ : ٣٥ - ٣٧) « وإذا افتقر اخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك . لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة ، بل اخش الهك فيعيش اخوك معك . فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعطه بالمرابحة . » وفي سفر التثنية (الاصحاح ٢٣ : ١٩) جاء « لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما يقرض بربا . » وفي مزامير (المزمور ١٥ : ٥) جاء : « فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البريء » وجاء في امثال (الاصحاح ٢٨ : ٨) [illegible]

للاهوتيين فى العصور الوسطى ، كما هى الحال بالنسبة لمعظم اللاهوتيين حتى الأزمنة الحديثة تقريبا ، لم يكن من الميسور المجادلة فى أى موضوع وارد صراحة فى الكتاب المقدس . فلما كانت سنة ١١٥٠ بدأت المشكلة تتخذ صورة جديدة : ثم لم تلبث أن أخذت فى النمو حتى صارت مسألة حياة أو موت بالنسبة للتجارة ، لأنه إذا لم يحصل الناس على فائدة مقابل النقود المقرضة ، كان ذلك يعني بوضوح أن يعجز المجتمع كلية عن النهوض بأحوال القرية البدائية . إن حرية التجارة الحقيقية تعني حتما حرية الحصول على الفائدة . ولا تنال هذه الحرية بمواجهة المشكلة بطريقة مبـــاشرة وإعلان تعديلات صريحة فى القانون ، وإنما يتم الحصول عليها بصورة غير مباشرة ، وذلك بتعديل التعريف الأصلى للربا . وكان هذا التقدم شديد الشبه بما هو جار الآن فى أمريكا بموجب مرسوم فولستيد « Volstead Act » . وقد قيل إنه لا أمل عمليا فى العودة الى تغيير الدستور الامريكى . فالمشروبات الروحية ستظل دائما محظورة اسما . ولكن يبدو من جهة أخرى ،أن طائفة كبيرة

= والمكثر ماله بالربا والمرابحة فلمن يرحم الفقراء يجمعه . » وجاء فى حزقيال الاصحاح ١٨ : ٨ « ولم يعط بالربا ولم يأخذ مرابحة : » أنظر أيضا حزقيال (الاصحاح ١٨ : ١٣ و ١٧ والاصحاح ٢٢ : ١٢) . ونجد فى نحميا (الاصحاح ٥ : ١ - ١٣) اشارة واضحة الى تحريم الربا . هذا فى أسفار العهد القديم ، وفى العهد الجديد نجد الكثير من الآيات التى تنص صراحة على تحريم الربا . فجاء فى انجيل لوقا (الاصحاح ٦ : ٣٥) « بل أحبوا اعداءكم واحسنوا واقرضوا وانتم لا ترجون شيئا ... » أنظر أيضا المثــل الوارد فى الاصحاح ١٩ : ١٣ - ٢٧ من انجيل لوقا و كذلك المثل الوارد فى الاصحاح ٢٥ : ١٤ - ٣٠ من انجيل متى . راجع كذلك ص ٢٨٨ ح ٢ من هذه الترجمة .

من الناس لا تزال شديدة الأمل فى أن تقوم السلطات التنفيذية فى عدد كبير من الولايات المتحدة الأمريكية بتفسير القانون بأى شكل بحيث تفتح الباب لبيع المشروبات الروحية بصورة معتدلة . واذا كانت مثل هذه المقارنة التى اقترحها بين أحوال أوروبا منذ سبعمائة سنة مضت وبين أحسن الأحوال فى أحدث الولايات فى العالم ، تبدو لأول وهلة جريئة جدا ، فانى أرجو أن أن تتتبعوا فى صبر وأناة الحقائق التى يتعين على عرضها بإيجاز . فقد قدمت عن تلك الحقائق مستندات مستوفاة فى عدد يوليو من سنة ١٩٢١ من مجلة « التاريخ » « History » الدورية .

ففيما يتعلق بالربا ، كما هو الحال فى التجارة ، بنت الكنيسة كل شيء على أساس أن يسائل الإنسان ضميره . فاذا أنت أقرضت نقـودا بقصد الربح من وراء هذا القرض ، كان ذلك ربا وخطيئة مميتة . أما اذا كانت نيتك أن تساعد جارك دون أن تتقاضى منه الا ما يكفيك لتغطية أى خسارة تكون قد تكبدتها فى سبيل هذه المساعدة ، فلا ضرر عندئذ من قبول الفائدة . مثال ذلك ، أننى اذا اقترضت من أجل الحصول على المال الذى أقرضه لجارى ، كان طبيعيا أن أتوقع من جارى هذا أن يرد لى تلك الفائدة التى دفعتها أنا للطرف الثالث . وهكذا فى كافة الحالات الأخرى حيث تقتضينى مروءتى نحو جارى تحمل خسارة أكيدة يجب عليه أن يردها إلى . ولم يكن هذا بطبيعة الحال إلا نوعا من تخفيف التحريم المسيحى الأصلى للربا ، ولكنه كان على أى حال تخفيفا طبيعيا . وعلى الرغم من أن الكنيسة سمحت بهذا التعويض مقابل الخسارة الفعلية المتحملة ، فقد رفضت السماح بأى تعويض لما كان معروفا باسم « الكف عن الربح » .

فهي لم تقبل فقط الدفع بأنه كان من حقي أن أحصل على التعويض في مقابل أن كل مبلغ أقرضه لجاري كان يرد الى دون فائدة ، بينما لو لم أقرضه هذا المبلغ لأمكنني أن أتاجر به وأزيد من دخلي . وإن الأخذ بهذا الدفع طبقا لفلسفة ذلك الزمن ، كان معنـــاه أن يطلب الإنسان المستحيل . (١) ذلك أني اذا أقرضت جاري بقرة فاني أتكبد خسارة فعلية ، لأني إن أقرضتها له لمدة عام مثلا ، فلا أخسر لبن عام فقط بل ربما خســـرت عجلين أيضا . ولكني لو أقرضته مائة جنيه ، فلا أخسر اللبن ولا العجول . ذلك أن الذهب والفضة لا يلدان كالحيوانات . وإن شيلوك المرابي (٢) هو وحده الذى يقبل « نتاج الذهب المصاب بالعقم » . لذلك أدانت قوانين الكنيسة صراحة كل فائدة تؤخذ لمجرد التعويض عن ضياع ربح من النقود التي تقرض على هـــذا النحو . (٣) وعلى أساس كل هذه النقاط الهامة علينا أن نتـــذكر بأن الدولة قبلت قانون الكنيسة من الوجهة النظرية على الأقل ، وإن هذا التمييز بين أحقية التعويض عن الخسارة الفعلية المتحملة وبين بشاعة التعويض للابقاء على المعدن المصاب بالعقم معطلا ، انما هو أمر منطقى من الوجهة النظرية سواء سلمنا به أم لا : وقد غدا هذا المنطق من الوجهة العملية أمرا يصعب الأخـــذ به ، كما هو الحال بالنسبة لذلك التمييز الآخر بين النـــوايا الحسنة والنـــوايا السيئة :

---

(١) في الأصل الانجليزى « أن يحلق الإنسان هائما على وجه الطبيعة . »

(٢) شيلوك المرابي هو شخصية ظهرت في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» ، ويضرب بها المثل في البخل الشديد واقراض المال بالربا الفاحش .

(٣) عالج المؤرخ البلجيكي هنرى بيرين مسألة الربا والقرض بفائدة ، فقال =

وربما كانت أول حالة هامة من الحالات التي يتعين أن تطبق عليها المبادىء المستجدة عن الربا ، هي التي نطلق عليها الآن اسم « شركة توصية نائمة » ، وكانت تعرف في القرون الوسطى باسم Commenda . ومن قبيل ذلك أن تاجرا مثلا ذهب في رحلة طويلة باهظة التكاليف . فمن الواضح أن من

= إنهما كانا يعتبران خطيئة مميتة في نظر الكنيسة التي حرمتها ونجحت فعلا في إبطالها منذ القرن التاسع وكانت تقدم كل من يقترف الربا الى المحاكم الكنسية وتوقع عليه أشد العقاب . أما التجارة فكانت في نظرها أقل إثما من الربا لصلتها بالحياة المادية دون الحياة الروحية : ويذكر بيرين أن الكنيسة أفتت بذلك تحقيقا لمصالحها فحسب ، ورغبة منها في تقوية سلطانها الروحي والدنيوي بين أتباعها . ثم يتساءل : هل هناك أشد تحكما من الكنيسة بعد تحريمها للربا والقروض والتجارة بصفة عامة ، في مثل هذه القرون التي كان يسودها الاكتفاء الذاتي لكل اقطاعية من الاقطاعيات التي كانت الطابع المميز للقرون الوسطى ؟ وهل يكون الوضع أكثر نفعا لو فتحت الكنيسة الباب أمام المضاربات والربا والاحتكار في وقت كانت فيه المجاعة تجبر الأفراد على الاقتراض غير الشرعي من جيرانهم ، فتجعلهم أكثر عرضة للوقوع في براثن السخرة والعبودية؟ ومع ذلك فان الظروف الاقتصادية القاسية التي مر بها الغرب دفعت الأفراد الى عصيان أوامر الكنيسة في هذا الشأن . كما دفعت الأديرة نفسها الى التمرد والعصيان على تعاليم الكنيسة ونواهيها ، والى قبول المكاسب والفوائد التجارية التي كانت تحصل عليها نتيجة استغلال الأديرة لرؤوس أموالها باقراضها للمعوزين بالربا ، حتى يتسنى لها تثبيت كيانها الديني والقيام بواجباتها

أنظر كتاب Pirenne, Economic and Social Hist. of Med. Europe, 14—5; cf. also 28—9.

بمصلحته أن يجاوزه شخص آخر لينمي له رأسماله ، على أن تكون له حصة نسبية في الأرباح بعد خصم الأجور ومصاريف التشغيل ولكن ، ألم يكن المقرض بمثل هذا الاتفاق يحصل على ربا . إنه طبقا للتعاريف الكنسية المبكرة يحصل حتما على ربا . ذلك أن قبول أى شيء يجاوز المبلغ المقرض فعلا ، كان يدان طيلة قرون عديدة بوصفه خطيئة مميتة . وحتى بموجب التفسير الأخير الأكثر تسامحا ، لنا أن نتساءل : « ألم يكن واضحا أنه يحصل على نتاج من المعدن المصاب بالعقم ؟ » ذلك أن صاحب المال الذى أقرض مائة جنيه كان قابعا فى بيته فى هـــدوء ! وكان البحار وطاقمه هم الذين انتجوا بجهدهم كل ما وصل إلى أيديهم زيادة عن رأس المال البحت . ومن ثم فأى حق للمقرض البليد فى المطالبة بحصة أيا كانت فى نتاج عقيم ؟

كانت هذه هى المشكلة . وهنا ، كما يحدث كثيرا فى التاريــخ ، جاءت الحقائق فتحت بعنف الطريق الذى كانت النظرية تبذل جهدها لسده ذلك أنه قبل الغزو النورماندى بجيلين على الأقل ، كان التجـــار فى موانى البحر الأبيض المتوسط التى امتازت بتفوقها حضاريا على غيرها ، يمارسون نظام شركة التوصية النائمة المعروف باسم Commenda : وقــد أصبــح أمرا عاديا خلال القرنين اللاحقين أن نجد بابا مثل انوسنت الثالث يفتى فى سنة ١٢٠٦ بأن بائنة الزوجة يجب استثمارها بهذه الطريقة باعتبارها نوعا من القيـم الـكافية الضمان ؛ ومع ذلك ، فثمة رسالة فى علم اللاهوت المبسط كتبت حوالى نفس الوقت ، وفيها نجد العالم الأخلاقى يصم هـذه الممارسة صراحـة بوصفهـا خطيئة شائعة ويفسر أمر انتشـ ـ ها أ. ا. س « فى تلك الأيام ، أى فى القرن الثالث عشر المنحل . كانو على س. عد د للقـ.ام بأى عـ ل فى سـبيل الحصول على المال ، و حتو ا ه مكتنز : ال حج دون اعتبار للناحية

الخلقية فيما يلجأ اليه من وسائل لتحقيق هذا الغرض». وفى مثل هذه الظروف لن ندهش حين نعلم أن البابا جريجورى التاسع قد هاجم هذه المسألة على الفور، وعالجها فى مرسوم أطلق عليه اسم « الملاحة Navigantl » . وفيه يتناول البابا قضية المقرض الذى يحصل إلى جانب مبلغه الأصلى على حصة فى أرباح الرحلة التجارية ، ويقرر بخشونة فى كلمتين أن هذا هو الربا بعينه usura est . وكان ذلك فى الواقع هو العودة إلى ما كانت عليه الحال من قبل وهكذا ناصر جريجورى التقليد المسيحى الذى دام ألف عام فى تحد صريح للتجارة النامية . فهو يرى أنه يجب ألا تكون ثمة تجارة إلا بقدر ما يستطيع رجل أن يفعله فى قاربه الخاص الصغير وبرأسماله الخاص الصغير . ومن وجهة النظر هذه ، يشبه مرسوم الملاحة المشار اليه مرسوم فولستيد الامريكى ، من حيث عدم التساهل فى تأكيد هذا المبدأ » ولنا أن ندهش من الجرأة التى تحدى بها جريجورى التاسع عالم التجارة الكبرى ، وهو العالم الذى احترمه دون مناقشة سلفه انوسنت الثالث ، ذلك الحامى الكنسى العظيم والحاكم الشجاع . وكانت هناك مفاجأة أعظم من ذلك كامنة وراء الستار . ذلك أن جريجورى التاسع صاحب هذا التحريم الشامل ، كلف القديس ريموند أوف بنافورته St. Raymund of Penaforte ، وهو اسبانى دومينيكانى ، بجمع المراسيم البابوية فى كتاب جديد يكون مكملا للمجلد الأول من القانون الكنسى . وكان طبيعيا أن يدرج ريموند مرسوم الملاحة الذى أصدره جريجورى بنفسه فى تلك المجموعة . وعندئذ حظى الكتاب كله بتصديق البابا الرسمى عليه ، وهكذا أصبح مرسوم الملاحة قانونا معترفا به فى المسيحية قاطبة . واعتقد أن هذا القانون لم يلغ رسميا إلا بعد أن تم استبدال كافة المجموعات القديمة

بمجموعة جديدة للقانون الكنسي في سنة ١٩١٧ ، أى منذ ثلاثين عاما مضت (١) ومن ثم ظلت هاتان الكلمتان المشئومتان « هوذا الربا Usura est » ماثلتين في القانون . ومع أن ريموند كان قد وضع كتابا عن القانون الكنسي،وأدمج المرسوم المذكور في القانون بعد ذلك بسنوات قلائل ، فقد اعترف بأن بعض اللاهوتيين لم يزالوا على رأيهم الخاص بمعارضة حكم البابا على طول الخط . وبعد ذلك بسنوات قلائل تناول القديس توما الأكويني المسألة في فصل من مؤلفه العظيم « الكامل في اللاهوت » ، الذى أصبح أساس التعليم الكنسي في هذه الناحية حتى يومنا هذا وقد قرر القديس توما أن مجازفة المقرض تعتبر في الحقيقة عملا من جانبه . وهكذا يتاح له أن يتجنب تلك المحاولة المنافية للدين في سبيل الحصول على نتاج من المعدن المصاب بالعقم . فاذا جرر المقرض عقدا يلزم التاجر البحار بأن يرد له المبلغ المقترض أيا كانت نتيجة رحلته ، فانه بذلك يقترف الربا على حد قول القديس توما ، لأنه إنما يجنى فائدة لم يحصل عليها بجهده . أما إذا كان يساهم مع البحار حظه في الخسارة بدلا من أن يساهم معه في الربح ، جاز اعتبار مجازفته عملا ، ويكون استثماره حلالا ؛ وهذا حل معقول وجدير بمثل هذا الفيلسوف الكبير . فضلا عن دلالته على جرأة عظيمة في مخالفة تقاليد الكنيسة الأسبق . بيد أن القانون الكنسي تضمن القرار الصادر بالمعارضة التامة في هذا الشأن ؛ وكان للقانون الكنسي ، نظريا ، من قوة الإلزام ما يعتبر كل من يعارض فيه هرطيقا .

وفى تلك الأثناء ، عندما كان القديس توما وكبار الفلاسفة الذين جاءوا بعده يتجاهلون كلام البابا رغم وضوحه وصراحته ، كان طبيعيا أن يتجاهل رجال الدين المحافظون من جهة والسلطات المدنية من جهة أخرى ، آراء

(١) ذلك لأن الطبعة الأولى من كتاب كولتون صدرت سنة ١٩٣٠ ؛

القديس توما . وهكذا نجد ولمدة طويلة حتى حركة الاصلاح الديني ما زالوا يعرفون الربا لشعوبهم طبقا للافكار البحتة القديمة . وهو أن كل ما يقبل زيادة عن رأس المال البحت يعتبر ربا . هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى تخلت السلطات المدنية كلية عن موضـــوع حسن النية أو خبثها ، كما تخلت عن كل التعديلات التي أدخلت على المنطق المدرسي في العصور الوسطى . وحاولت تلك السلطات أن تبحث عمليا في هذا الموضوع الصعب الذى قاد واضعى النظريات الى تلك المتاهات ، ولقد سمح ملوك فرنسا صراحة منذ حوالى سنة ١٣٠٠ فصاعدا بممارسة أى ربا بموجب رخصة ملكية ، وبشروط معينة فيما يتعلق بسعر الفائدة. وسار على هذا النهج أمراء وبابوات آخرون .

وعندئذ انتهت القرون الوسطى فى غمرة هذه الآراء المتشعبة المتبـاينة من الوجهة النظرية ، بل وما هو أعمق من ذلك من خلافات من الوجهة العملية . فمن ناحية يتعين علينا أن نصدق الناس لشجاعتهم فى إعلان مبدأ خلقى صارم فى مواجهة المبدأ المتسامح القائل : « دع الأمور تأخذ مجراها » ، « فالمناقشة تصل بالامور دائما الى المستوى الصحيح » ، ومن أجل هذه الشجاعة يجب علينا أن ننحي باللائمة على القرن التاسع عشر . اذ فاته الى حد بعيد أن يتنبه الى ذلك المثل الأعلى القديم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان مغالاة القانون الوسيط في التشدد قد أدت الى احتقار القانون نفسه . لقد أصبحت صناعة الاحذية مثلا تجارة مربحة . وثمة شواهد عديدة على زيادة الربا ، لا على نقصانه ، خلال الفترة الأخيرة من الحقبـــة الوسيطة . ان بنفنوتو دا ايمولا Benvenuto da Imola الاستاذ البولونى الذى كتب فى عهد تشوسر تعليقا ضافيا عن دانتي ، يعبر في سذاجة عما كان يقوله الناس فى ايطاليا الغارقة حتى أذنيها في التجارة . فبعد أن وصف الصورة التعسة التى حفرهـا هؤلاء

المطاة تحت سيل منهمر من النار المتقدة التي حكم بها دانتي عليهم ، يضيف قائلا : « ان من يتقاضى الربا في أيامنا هـذه مصيره الى الجحيم ، ومن لا يتقاضاه مصيره الى الفقر » وحتى حملة القديس فرنسيس الصليبية ضـد السعي وراء المال ، لم تفلح في مقاومة هذا المد. وشكا نيقولا بوزو Nicole Bozou الفرنسيسكاني ، بعد وفاة القديس فرنسيس بنحو مائة عام قائلا : « لقد تغيرت الاوضاع في أيامنا هذه ، لأن أولئك الذين تجنبوا مرة واحـدة أن يطبعوا على خدود أولئك الناس قبلة السلام ،هم الآن على استعداد لأن يقبلوا أرجلهم. أما أولئك الذين جرت العادة أن يدفنوا في الحقل أو في الحديقة ، فانهم يدفنون الآن داخل الكنائس أمام المذبح العالي . »

بعض المراجع للفصل العاشر

Avenel, G. d', Histoire économique de la propriété, des salaires, des denrées, et de tous les prix en général, depuis l'an 1200 jusqu'en l'an 1800 6 vols. Paris, 1894-1912.

Brants, V., Les théories économiques aux XIIIe et XIVe siècles. Louvain, 1895.

Knight, M. M., Economic History of Europe to the End of the Middle Ages. Boston, 1926.

Lipson, E., The Economic History of England, Vol I : The Middle Ages New York, 1915.

Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

Postman, M. M., The Cambridge Economic History of Europe. Vol. III : Economic Organization and Politics in the Middle Ages. 1961

Rogers, J. E. T, A History of Agriculture and Prices in England, 1259 –1793. 7 vols. Oxford, 1866—1902.

Strieder, J., Studien zur Geschichte kapitalistischer Organisationsformen : Monopole, Kartelle und Aktien-

gesellschaften im Mittelalter und zu Beginn der Neuzeit, Munich, 1925.

Thompson, J. W.,

1- Economic and Social History of the Middle Ages (300-1300). New York, 1928.

2- Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages. 1960.

الفصل الحادى عشر

ديانة الشعب

كان جديرا بأن نوجه المزيد من العناية إلى الموضوع الخاص بمبدأ السعر العادل والربا ، لا لأهميته الجوهرية فحسب ، بل لأن زاوية الحياة الاجتماعية فى القرون الوسطى ليست إلا إحدى زوايا عديدة نتوه فيها بعيداً عن الحقيقة التاريخية ، إذا تصورنا أن السلطة الدينية والجامعات وحتى هيئة رجال الدين قاطبة فى العصور الوسطى ، يستطيعون هم أنفسهم أن يعطونا فكرة سديدة عن آراء الرجل العادى . ذلك أن الرجل العادى كان،دون وعى منه ، وفى صدق لامراء فيه ، ينقل فى الواقع أحاسيسه إلى أقرب الناس اليه ، حتى فى تلك الجهات التى كان يعني فيها برأى سطحي ، لمجرد أن هذا الرأى يفرض عليه نقل إحساسه إلى الغير : إن كثيرا من أشد العقائد الوسيطة تأثيرا ، ومن قبيل ذلك مثلا النبوات المختصة بنهاية العالم ، قد نبعت من بين الطبقات الدنيا . وقد دافع رجال العلم فى الواقع عن هذه العقائد مع تدعيمها بالوسائل المنطقية المعقولة . أما فيما يتعلق بالعقائد ذاتها، فلم يكن هناك مجال للاختيار الفعلى . ومع ما للقديس توما من أصالة فى نواح عديدة ، فقد وجد نفسه مضطرا فى مجالات أخرى إلى الأخذ عن أجيال سابقة له ، تبنت فيها السلطة الكهنوتية تدريجيا العقائد الشعبية وقدستها . ويصدق هذا القول حتى على عدد من أهم الاحتفالات الكنسية والأعياد المقدسة . ويحتمل أن ثلاثة أرباع قديسى التقويم الرومانى

على الأقل، كانوا يدينون بمراكزهم للاختيار الشعبي . ولم يكن هـذا فقط قبل أن يقصر اسكندر الثالث (١) (المتوفى سنة ١١٨١) تطويب الأبرار وإدراج أسمائهم في تقـويم القديسين على البابوات وحدهم ، بل أيضا قبل المرحـلة السابقة التي زود فيها أساقفة الأبرشية بسلطات مماثلة . ثم إن ما يعتبر الآن واحدا من أهم الأعياد المثبتة في تقويم الكنيسة الرومانية باللون الأحمر ، وهو عيد الجسد (٢) « Corpus Christi » ، يرجع الفضل في الاحتفال به لفتاة متحمسة وقس شاب أمي . وقد أخذ باقتراحهما رئيس شمامسة لييج Liège ، الذي أصبح فيما بعد البابا أربان الرابع (٣) . وفي سنة ١٢٤٦ أمر أسقف لييج بأن يكون الاحتفال بهـذا العيد في أبرشيته ؛ وفي سنة ١٢٦٤ أذاع أربان ، بوصفه البابا ، منشوراً لصالح العيد المذكور . بيد أنه حتى حوالي سنة ١٣٠٠ لم يكن العيد قد اعترف به عالميا ، وإنما تم هذا الاعتراف بفضل البابا كليمنت الخامس (٤) (المتوفى سنة ١٣١٤)، والبابا يوحنا الثاني والعشرين (المتوفى سنة ١٣٣٤)، وذلك بموجب المراسيم التي أصدراها ، والتي كان لها أعظم الأثر في هذا الشـأن . ولكن المعروف أن كل سؤال يستلزم جوابا عليه . ومن ثم طلبه البسطاء حلولا مبسطة لأعقـد

---

(١) شغل اسكندر الثالث الكرسي البـابوي من سنة ١١٥٩ إلى سنة ١١٨١ .

(٢) هو عيد صعود المسيح في يوم الخميس التالي لأحد الثالوث الذي يلي بدوره الأحد السابع بعد عيد القيامة ، الموافق عيد العنصرة .

(٣) شغل أربان الرابع الكرسي البابوي من سنة ١٢٦١ إلى سنة ١٢٦٤ .

(٤) شغل كليمنت الخامس الكرسي البابوي من سنة ١٣٠٥ إلى سنة ١٣١٤ . وللمزيد من المعلومات عنه ، انظر ص ٢٧٧ – ٢٧٩ من هذه الترجمة .

مشاكل الحياة : وبناء على ذلك صيغت الإجابات الرسمية الصحيحة إلى حد ما ، في حدود مدارك أصحاب الأسئلة والاستفسارات من عامة الشعب . أما المعنويات العليا المستمدة من كتابات القديس بولس أو القديس يوحنا ، فإن العفاء كاد أن يدركها خلال العصور المظلمة لولا خليط مركز من هذا القبيل . وفي سبيل فكرة الوحدة بين الكنيسة والدولة ، اضطر رجال التعليم الكنسيين أن يكونوا كل شيء بالنسبة لكل الناس (١) ، ولو استلزم الأمر أخذ نماذج بشرية منهم ومن مختلف الأرجاء حسبما يتواضعون عليه . وقد جاوزت هذه الفكرة عن الوحدة العصور المظلمة . ويمكن القول بأنها لم تبلغ منتهاها وأقصى وضوحها إلا بعد فوات تلك العصور ، واستقرار العالم استقرارا نسبيا في القرن الثالث عشر . وحوالى ذلك الوقت جاهد جيلان من كبار المفكرين في سبيل تنسيق العقائد المقبولة في زمانهم بحيث تصبح كلا واحدا متجانسا فلسفيا . واستتبع ذلك الإغراء بالركون إلى إرضاء الذات بالراحة التامة . وان بوسع أى مدرس حديث للفلسفة أن يفخر دون مغالاة قائلا : « أعتقد أن القرن الثالث عشر قد حقق حالة من التوازن الثابت ، وأن تفاؤل الناس الخارق للعادة قد جعلهم يصدقون بأنهم وصلوا إلى مرتبة قريبة من الكمال . » (٢) لهذا إذا أردنا حتى ذلك الحين تعريف الفكر الوسيط مع تقريبه إلى الحقيقة بأى صورة في عبارة واحدة ، فربما أمكن تعريفه بأنه صراع في سبيل الوحدة وعبادتها ، إلى حد

---

(١) هذه ترجمة حرفية ، والمقصود بها « أن يتفانوا في خدمة جميع الناس » .

(٢) M. de Wulf, Philosophy and Civilisation in the Mid. Ages, 208 cf. 18 (كولتون) .

كادمه ترقى معه إلى مرتبة الوثنية ويمكن أن نطبق عـلى القرون الوسطى هذه العبارة نصف الحقيقية التي تعكس جانبا واحـدا من جوانب الثورة الفرنسية الا وهى : « كن أخا لى وإلا قتلتك ! » وبنفس هذه الحقيقة النصفية يمكن القول بلسان المفكر الوسيط : « اتحد معى وإلا أحرقتك . » وربما كنا على استعداد أكثر من اللازم لأخذ الأمور المختلفة قضية مسلم بها ، أو حتى لنجعل لها قيمة أيا كانت : ولكن التلهف على الوحدة الخارجية كان أحد القوى الرئيسية فى عملية التجديد وإعادة البناء فى العصور الوسطى . وكان هذا التلهف أوضح حلقة فى الاتحاد بين الكنيسة والدولة . ولقـد أبدع الدكتور ماك تاجارت Dr. Mc-Taggart فى تعريف المتصوف بأنه الشخص الذى يشعر باتحاد فى الكون أعظم من الوحدة المعترف بها فى الحياة العادية ، والذى يعتقد أن بوسعه إدراك هذه الوحدة من طريق مباشر يزيد قليلا عن إدراكها فى الفكر العادى المشتت . لذلك يلوح أن كل الأفكار البناءة يتعين عليها أن ترتكز عـلى عنصر تصوفى قوى ، وهذا مايبرر الدعوة الحديثة للاهتمام بالقرون الوسطى : ولنا أن نفهم أن المجتمع الحديث يتميز بوحدة حقيقية كامنة وراء الخلافات الخارجية ، ومع ذلك يمكن أن ندرك بأن أمامنا حقيقة نتعلمها من أولئك الذين كافحوا أشد مما نكافح نحن فى سبيل الوحدة الخارجية . وعلى أية حال ، فقد كان ذلك بالنسبة لهم أحد الضروريات التى يستلزمها وضعهم ، حيث كان يبدو لعدة قرون أنه المخرج الوحيد من تلك الفوضى التى حلت بالدولة أو بالكنيسة .

وأمامنا هنا الدليل الدامغ على ظاهرة شائعة فى فترة أخرى من التاريخ . ومما لاشك فيه أن الناس سوف يتشبثون بأية فرصة للهرب من الفوضى . وإذا كان النظام القديم « ancien régime » قد عمر الى هذا الحد ، فانما يرجع ذلك إلى تعاقب أمرين هما استبداد مـــلاك الأراضي وطغيانهم من ناحية ، والفوضى الميئوس منها التى كان يعيش فيهـــا عامة الشعب الذى كانت تنقصه القيادة السليمة والحنكة السياسية من ناحية أخرى ؛ ولقد لقى نابليون ترحيبا حقيقيا بوصفه البديل الذى جاء عقب حكم الغوغاء ، هذا الحـكم الذى كان لا يزال يعوزه الكثير من الوعى السياسى ليتعلم ويستفيد قبل ان يحرز النجاح ، وكما كان الفلاحون فى العصور المظلمة يفرحون بوجه عام بتجمعهم حـــول أقرب محارب ، بل ويستودعونه حرياتهم ، كذلك كانوا يفـــرحون بتجمعهم حول الكاهن . ومن ثم عمدت الكنيسة بما تتجمـل به من وعى قـــومى قوى بالتضامن الاجتماعى إلى إحاطتهم بعنـاية كبيرة من حسن الجـــوار والحماسة الدينية دون كثير عناء أو سؤال . وقد دل تعليمها وقدرتها ، حتى بعد استخلاص كل النتـائج الضرورية ، على المحبة والاخاء بصفة قاطعة . حقا لقـــد كانت أسمى الآمال التي تطلعت اليهـــا الـكنيسة فوق مستوى إدراك الرجل العادى فى أغلب الاحيان . ومع ذلك يوجد هنـا بعض الرشح الحقيقى . فالأمثلة على الحـماسة التصوفية الرفيعة بين غير المتعلمين لم تكـن قليلة . أما عن طقـــوس الكنيسة العادية وكثير من معتقداتها ، فقد قابلها المجموع بارتياح واطمئنان طالما كانت نابعة من عامة الشعب . وجدير بالذكر أن الهرطقة فى العصـــور المظلمة كانت فيما يبدو محقوتة من الشعب . فكثيرا ما كان المراطقة يعدمون دون سلطة القانون ، وأحيانا كما يبدو دون لقاء الكاهن قبل الاعدام . وكان الشعار السائد هو « أى شىء ما عدا الفوضى » . وكان الرجل العادى يفضل

النظر تماما عن كرهه دون فهم منه لكل ما هو غريب وعجيب ، يدرك أن هذه الخلافات لم تكن من القوة بحيث تكفى سواء من الناحية العددية أو الفردية ، لإعادة بناء الكنيسة أو الدولة إذا ما حل الدمار باحداهما أو بالأخرى .

ومع تقدم الحضارة وازدياد المعرفة واتساع نطاق التفكير عند الرجل العادى ، أصبح هذا الرجل أشد حساسية فى نقده لهيئة لم يكن لها من المرونة ما يسمح لها بمسايرة ركب المجتمع فى نهضته الشاملة : ومن أسباب القوة فى المذهب المدرسى الوسيط هو أنه يرتكز ، فى الغالب ، على أسس من العقيدة الشعبية . ولكنه فى تمام اكتماله وكماله وعدم قابلية بنائه للسقوط كما كان مقدراً له ، كان عرضة لأن يجد نفسه أخيراً فى نزاع مع الشعور الشعبى ، ذلك الشعور الذى هو فى جوهر طبيعته متقلب وبطىء فى تقدمه ، هذا ، وليس هناك أخطر من أن نصدق أننا قد وصلنا إلى حالة قريبة من الكمال . إن ثمة إدراكا سليما فى أعماق الإجابة الساخرة التى نطق بها اللورد بلفور Balfour ردا على صديقه الذى دله على مبنى ولورث Woolworth Building فى نيويورك ، وامتدحه فى ذات الوقت على أنه غير قابل للحريق من القمة الى القاع . وكانت الصعوبة الكبرى فى اختبار الحقيقة النصفية تكمن دائماً فى ضرورة أن يتقبلها فيلسوف حتى يصل بها الى نتائجها المنطقية . وقد كان توما الأكوينى فيما وصل اليه من استنتاجات قبلتها السلطة الدينية كما قبلها العلمانيون، منطقيا معصوما من الخطأ فى إثباته أنه من واجب المسيحى أن يستأصل شأفة المنشقين عن الكنيسة بأى ثمن، ولو أدى الأمر الى تعليقهم على الخازوق ولكن الاعدام دون محاكمة قانونية فى ثورة الحماس الدينى ، والقتل بمنطق العنف لدى آخر . ولم تتمتع محاكم التفتيش بأى شعبية ، حتى بين أولئك الناس الذين

ألقى أسلافهم بأيديهم جماعات المراطقة فى أتون من النار . وازدادت عدم شعبيتها عندما اتضح مبلغ ما امتلأت به خزائنها من الغرامات والمصادرات التى وقعت على الأغنياء من الهراطقة . كما تبين كيف أنها ، كما حدث فى حالتى جماعة الفرسان الداوية وجان دارك ، قد أقبلت طواعية على التخصص فى الشئون السياسية البحتة . فضلاً عن أن معظم المثقفين المتمسكين بالدين تمسكا لا تشوبه شائبة ، قد اعترفوا أحيانا بأن أحد المبادىء الأساسية للهراطقة ، وهو اعتراضهم على حلف اليمين ، لم يكن يصادف وجهاً للادانة أمام كلمات المسيح الصريحة . لذلك كانت أعمال القسوة والمظالم الكبرى الصادرة عن محاكم التفتيش شديدة الوطأة . وحتى بعد أن نفضنا عن التاريخ كل عوامل المبالغة ، كانت محاكم التفتيش لا تزال تجاوز حدودها كما هو الحال بالنسبة للحكم الذى وجدناه مسجلا ضد أحد الهراطقة فى تولوز سنة ١٣٤٧ ، وهاك نصه : « لقد قال هذا الرجل المسمى بطرس إنه إذا كان بوسعه أن يتصور أن الله قد أنقذ واحدا ولعن الباقين من بين ألف من الرجال الذين خلقهم ، فانه سوف يمزقه شر ممزق بسن ومسمار باعتباره خائنا ، ويصمه بأنه كاذب ومخادع ، وأنه سوف يبصق فى وجهه . » وإن موجة التصوف الشعبى التى يبدو أنها بدأت فى الدوائر الدومينيكية فى الراين الأولى فى نهاية القرن الثالث عشر ، وانتقلت عن طريق التجارة إلى الراين الأدنى وانجلترا ، قد كشفت ضمن مشاهدات أخرى عن اتجاه قوى للهرطقة فى علم اللاهوت المتزمت . وقد وضع هذا العلم كما هو مدروس ومفهوم عنه دون أى مبالغة فى كلمات هذا الرجل المدعو بطرس . ويمكن ملاحظة هذا الجهد الانسانى فى ثلاثة من معاصرى تشوسر هم : رولمان مرسوين أوف شتراسبورج Rulman Merswin of Strassburg ، وجوليانا

الراهبة النرويجية Juliana the Anchoress of Norwich ، ومؤلف أو مؤلفو قصيدة بطرس الفلاح Piers Plowman .

وتفوق القصيدة المذكورة فى قيمتها أى مستند آخر فى العصور الوسطى ، باعتبارها نصا يتناول بحثا فى أفكار الناس العاديين فى أخريات تلك العصور . حقا ان أحدا لا يستطيع تفهم الحياة فى القرون الوسطى ما لم يكن قد قرأ كتاب الكوميديا الالهية لدانتى . ومع ذلك فان قصيدة بطرس الفلاح تعتبر دليلا يفضل الكوميديا الالهية فى الكشف عن أفكار العامة ومداركهم . ففى هذه القصيدة نجد صورة لكافة الطبقات بما فيها أشدها عوزا وفقرا ، كما انعكست فى الأفكار اليومية لأهالى لندن المثقفين فى القرن الرابع عشر وهم فى أحسن أحوالهم . وإن ما تتسم به القصيدة من افتقار إلى التناسق والتماسك ، إنما هو فى حد ذاته ، فيما نحن بصدده ، أحد مزاياها . فالمؤلف يفكر دائما بصوت عال ، وهو يكشف عن خواطره وأحواله النفسية والعقلية دون أن يعتريه الخوف من أن يناقض نفسه . ويصور بأمانة ما يطرأ من تشويش فى الفكر العادى للانسان . ثم نراه يلقى الضوء على خاصية مميزة كانت متمشية طيلة القرون الوسطى ، وظلت سارية بعد ذلك مع عوامل عديدة أخرى وسيطة فى مجتمعات مماثلة للنظام القديم كان ذلك هو الإصرار على الحقوق والامتيازات في ظل القانون ، بل يمكن القول الإصرار على هذه الحقوق والامتيازات باعتبارها فى الغالب فوق القانون نفسه . وهو إصرار لم يصادف أى اعتراض جدى عليه، بل كان يتم تدعيمه وتعزيزه على أيدى أولئك الذين يريدون تذكيرنا بأن الامتيازات فى العصر الوسيط كانت جزءا من القانون وقتذاك . ولما كان مؤلف القصيدة رجلا متطرفا فى الشئون الدينية والسياسية ، فقد قبل التمييز بين

الطبقات كما قضت بذلك مشيئة الله ؛ ولم يكن ذلك لأن الطبقات العليا كانت فى مأمن تام من الطبقات الدنيا ، ولكن لعدم توقع حدوث أى تغيير فى ظل الأوضاع السائدة وفى الظروف العادية : ويعتبر المؤلف أن تعيين أبناء العبيد أساقفة ، وأن يصبح بالعوالصابون أو أبناؤهم فرسانا فضيحة اجتماعية. ولكن حقيقة الأمر أن الحالات التى من هذا القبيل ، والتى سجلها تاريخ القرون الوسطى قاطبة قليلة جدا . ومن هنا كانت تعتبر بلا شك أكبر فضيحة تؤذى المفكر العادى فى شعوره . وإلى جانب ذلك ، كان ثمة أمور كثيرة يتعين تدريب عقلية اللندنى عليها فى هذا القرن الرابع عشر . ويرى المؤلف أن حرب المائة عام (١) والموت الأسود (٢) قد هزا المجتمع الغربى الوسيط بعنف فمن ناحية نجد جنودا قدماء وفلاحين انتهزوا فرصة

---

(١) للمزيد من المعلومات عن حرب المائة عام أنظر فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٣١٤ — ٣٤٣ ؛ وكذلك Kitchin, Hist. of France I, 414 sqq

(٢) هو طاعون دملى شاهدته أوروبا سنة ١٣٤٧ ،بعد أن انتقل من موطنه الأصلى بالشرق الأقصى إلى القارة الأوروبية عبر طرق التجارة الدولية وقتذاك ، وقد حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح ، وأوجد فوضى أخلاقية واضطرابات اجتماعية خطيرة . واعتقد الأوروبيون أن هذا الطاعون مكيدة مدبرة من الجنس السامى للقضاء على الكاثوليكية . وكان من أثر ذلك قيام كثير من المدن الأوروبية وبخاصة المانيا باضطهاد اليهود بعد اتهامهم بتدبير هذه الكارثة . ولكن بابا افنيون كليمنت السادس أصدر إعلانا بابويا فى ذلك الوقت لحماية اليهود مما قد ينزل بهم من الأذى . أنظر فشر : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٢٠-٢٢١ ؛ Lodge, E. C., The End of the Middle Ages (1273 –1453), 94, 144.

انتشار الطامعون للمطالبة بمزيد من الأجور مع الاقلال من أيام العمل ، على الرغم مما قاله القديس بولس « ان كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا . » (١) ومن ناحية أخرى نجد ملكا صغيرا منقادا لمستشارين أشرار ، هم عبارة عن نبلاء وكبار ملاك الأرض ، مما حدا إلى مقاومة مظالمهم بموجب التماسات رفعها بيس Peace رسميا إلى البرلمان باسم الفقراء والعامة الذين أبدوا رغبتهم فى أن يضعوا أيديهم على الحكومة ، هذا لو أنهم اجترأوا على ربط الجرس فى رقبة القط (٢)

وفى غمرة هذا الاضطراب الاجتماعي لم ينل المؤلف سوى القليل من العطف ، على الرغم من أنه فقير لا يكاد يجد ما يقيم أوده ، وأخذ الناس يصفونه بالجنون لأنه لا يقبل الخضوع لكبار القوم من ذوى المناصب العالية أو غيرهم ممن يتدثرون بالحرير والفرو . وكان من أحد مبادئه الرئيسية الاعتزاز بالفقر والعمل المتجملين بالنزاهة والأمانة . وهو يقول إن بطرس الفلاح يستطيع أن يقودنا فى طريق مباشر إلى السماء ، كما لو فعل ذلك كاهن الأبرشية نفسه . ولكن هذا الأمر إنما يتم على أية حال

---

(١) أنظر العهد الجديد — رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكى — الاصحاح ٣ : ١٠ انظر أيضا ص٢٨٨ ح٢ من هذه الترجمة .

(٢) يشير إلى استحالة وضع أعضاء مجلس العموم أيديهم على الحكومة وقتذاك ، متمثلا بقصة الفأر الذى اقترح على زملائه أن يضع أحدهم جرسا فى رقبة القط ، حتى إذا دنا منهم رن الجرس إيذانا لهم بالهرب . فرد عليه فأر حكيم قائلا : « ومن الذى سيعلق الجرس فى رقبة القط ؟ » .

عبر الطريق الضيق القديم . ومؤداه : « فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحيوة والذين عملوا السيآت الى قيامة الدينونة : » (١) والى أن يحين ذلك فلنعلم أن العالم الذى يجب علينا أن نلتمس فيه طريقنا من المهد الى اللحد ، إنما هو عالم ملتو لا تناسق فيه . إن المال يتحكم فى كل شىء ، والرجل الذى يستطيع أن يقدم الرشوة هو الرجل الذى يصل الى أسمى المراتب . أما العدالة فانها تشترى وتباع . وأما البيوت الكبرى فى المدن فيبنيها ويسكنها تجار الجملة الذين يتجرون فى الفضلات والمواد البالية التى « تسمم فى الغالب وبطريقة غير ملحوظة ذلك الشعب المسكين الذى يقبل على شرائها . » ان الحيـاة الدنيا سباق عنيف فى سبيل النجاح فيها ؛ « ولم يسمع غالبية الناس الذين يسيرون فوق هذه الأرض أى حديث عن وجود جنة أخرى سواها . »

ومع ذلك لم يتزعزع إيمان مؤلفنا . فهو لم يزل قوى الثقة فى الأمل الأكبر : وليس ذلك لأنه يرى طريقه واضحا سهلا ، وانما نجد القصيدة كلها زاخرة بالمشكلات اللاهوتية التى يواجهها ، ولا يستطيع مع ذلك أن يجد لها حلا . وحتى كاهن الأبرشية لا يسعه هو الآخر أن يحلها له . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا عن الراهب ، مع كل ما فى وجهه من شحم وحمرة ، ومع طلاقة لسانه وجرأته . إذ تركه هو الآخر فى حيرة

---

(١) انظر العهد الجديد ـ انجيل يوحنا ـ الاصحاح ٥ : ٢٩ ـ وجاء فى انجيل متى (الاصحاح ٢٥ : ٤٦) : « فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدى والابرار الى الحيوة أبدية » .

بادية . ويرى مؤلف القصيدة كذلك انه يجب على المسيحيين جميعـا بوصفهم رعايا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، أن يؤمنوا بالغفران البابوى . ولـكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الايمان وبين القيم العليا للاعمال الطيبة ؟ وكيف يمكن التوفيق بين القدر المحتوم وبين الارادة الحـرة ؟ ولماذا يفرض على الذرية أن تتحمل العنـاء من أجـل خطيئة آدم ؟ إن شاعرنا نفسه يعالج فى كفـاح وقـسور هذه القضايا . ولـكنه يحدثنا عن شعب عظيم تدور مناقشات ابنائه حول المائدة بعد فترة الغذاء فيها لا يخرج قط عن دائرة الورع والاحترام .

يقول الشاعر : «كان الناس عند الغذاء فى أوقات مرحهم ومع وجود المغنين يروون عن الثالوث قصة أو اثنتين . ويبدون لذلك سببا قـويا ، ويتخذون برنارد شاهدا . وهكذا يتخبطون فى سبيل معرفة الله فى أحاديث قوامها اللغو ونافلة القول . وانهم ليعضون فى الله بحلاقهم فى حين أن بطونهم مليئة بالطعام ... »

ولقد سمعت عن رجال عظام يتناولون الطعـام على المائدة وسط ضجيج من الخصام والمشاجرة . ويتحدثون كذلك عن المسيح ومعجزاته ، وينسبون أخطاء الى الله الذى خلقنا جميعا ... فهم يقـولون : « لماذا وجب على مخلصنا أن يعـانى مثل هذا العذاب فى جسده الطاهر ؟ إن ذلك قد خدع المرأة والرجل من بعدها . فكان من أثر هذا الخداع وهذا الـكلام أن ذهبا (أى الرجل والمرأة) إلى الجحيم ! ... ولماذا يتعين علينا ، نحن الذين نعيش الآن على الأرض ، أن نعانى من الانحلال أو أن نتحمل العذاب بسبب ما صنعه آدم ؟ إن العقل لا يرضى بذلك ، ولا يمكن أن يسلم به .

وإن مثل هذه الدوافع إنما يثيرهـــا هؤلاء السادة وهم فى أوج مجـــدهم ، ويحملون الناس على نبـــذ الايمان بكل ما يدعـــو إلى التـــأمل العميق فى كلامهم . »

ولكن كل هذه الشكوك التى لا مفر منها لأى إنسان مفـكر فى أى عصر من العصور ، قد اجتذبت شاعرنا شيئا فشيئا إلى داخل المحـــراب الكامن فى ذاته . فهو نفسه على ثقة من بعض المسائل الأساسية إن الصدق عظيم ، وإن الصدق هو الله القادر على كل شيء . ولكن الصدق لا يكمن فقط فى القـــوة المدركة . فأن تتعلم معناه أن « تعمل جيدا » ، وأن تعلم معنـــاه أن « تعمل أحسن » ، أما « أن تمتاز فى عملك » فذلك معناه الحب . إن السماء ليست من أجـــل الحكيم كما يفهم الناس الحكمة ، ولكنها من أجل ذوى النيات الحسنة الطيبة. وربما كان سليمان الحكيم الآن نزيل جهنم . ولكن ثمة أناسا بسطاء يعانون من الفقر يمكنهم بالصلاة غزو الجنة بأسرها . وأهم من هذا وذاك أننا إذا لم يكن لنا مكان آخر ، فلنتأمل حياة المسيح وأعماله . انه مات ... انه يحكم . : وإذا نحن كافحنا كفاحا طيبا فسنسعد معه . هذه هى الفـكرة الأساسية فى جميع الأبيات الأخيرة من القصيدة . ومع ذلك فان كلمة «ثابر على الكفاح» لا تزال هى الشعار » حقا إن المسيح فى السماء ، وحقا أيضا اننا هنا على الأرض . وحقا كذلك ان عندنا البابا خليفة المسيح الممثل فى شخص بطرس . ومع كل ذلك فان تاريخ الكنيسة كان قصة حزينة ، لأن الشيطان سرعان ما زحف إليه بعد الصعود على الجبل ، وقد « لون له الأشياء بصـورة يلفها من التشنيع » منذ ذلك الحين « ما جعل أفاضل الناس يرتج عليهم ، حتى أنهم ساروا الينا يفكرون » ففى انجلترا كان جمهرة المسيحيين الذين يفسرون

القداس فى الكنيسة فى عهد تشوسر يوصفون بأنهم قطيع من الغنم لا راعى لهم. لقد كانوا « يهيمون كحيوانات هاربة إلى الشواطىء والتلال ، لمسافات طويلة ولأوقات متأخرة » وقد دل محترف الحج على خيبة أمله الكاملة ، عندما كانت تلك الجماهير التى أدركها العناء من ذلك الانحلال الذى أصاب هيئة رجال الدين ، قد أخذت تسأل عن الطريق الى قديس جديد . أما اسم هذا القديس المنشود فهو « الصدق » وكل ما استطاع أن يرد به على هذا النداء هو أنه هز رأسه . كان ذلك القديس قديسا مجهولا بالنسبة لهم . والآن والمسيح الدجال يستعد لهجوم آخر أشد عنفا يشنه على المسيحيين الذين كانوا يحفرون بأنفسهم فى الماضى المغاور والكهوف جهد طاقتهم ، قد أصبحوا تحت سلطان الكنيسة ورحمتها . وأصبح رجال الدين هم أنفسهم أسوأ الخونة وكان أولهم فى الخيانة هم القساوسة ، ويليهم الإخوان الرهبان . ثم ها هو ذا العدو ينقض على المسيحيين بمزيد من القسوة . فأين هو الضمير الذى وجد فى الإنسان ليحرس بوابة الكنيسة المقدسة ؟ ويقول بيس : « ان الضمير يكذب ويحلم وهكذا يفعل الكثيرون . أما الراهب بما لديه من وسائل العلاج الروحى ، سرعان ما اجتذبهم اليه منتزعا من قلوبهم عوامل الشر ، بحيث أنهم لن يخشوا من أية خطيئة . » (١)

---

(١) يصف مؤلف قصيدة بطرس الفلاح الحالة السيئة التى وصلت اليها الكنيسة والبابوية فى ذلك الحين ، وكيف استشرى الفساد فى كل شىء بما فى ذلك الجهاز الكنسى البابوى ، وأصبح الشعب مغلوبا على أمره ، وباتت الأمور فى أمس الحاجة الى الإصلاح قبل أن يفلت الزمام و يجرف تيار التدهور =

ويبدو من الأبيات السبعة الأخيرة من القصيدة أنه لا مجال للوصول إلى النتيجة المرجوة . ومع ذلك فإن عقيدة المؤلف نفسه هي الدليل عند كل الصدمات التي تسببها خيبة الأمل . انه واحد أولئك المفكرين الأفذاذ الذين كافحوا كفاحا عنيدا في سبيل الأفكار المعتدلة . وهو يستخدم كل الوسائل للوصول الى روح نواعة متقدة الحماس يساندها الإدراك السليم ، على حد قول جوسيران Jusserand فاذا كانت العاصفة قد اقتلعت سلطان الكنيسة على هذا النحو ، فلننفض إذن عن أقدامنا ما خلفته العاصفة من رماد ، ولنشد الرحال قدما كحجاج ونادي عشر عن الله في طول الأرض وعرضها ، طالما كان للدنيا وجود . وهو ما يعبر عنه الشاعر بما يلي :

باسم المسيح (ويقول الضمير عندئذ) سأصبح حاجا ،

وسوف أذرع الأرض طولا وعرضا طالما الدنيا باقية ،

لأبحث عن بطرس الفلاح (١)

إن هذا الفخر قد يتحطم ،

والانهيار في طريقه كل شيء : ومع ذلك يلاحظ أن مؤلف القصيدة كان قوي الإيمان في أن تحدث المعجزة ويتم الإصلاح . انظر أيضا ص ٢٨ - ٣٠ و ١٢٧ ح ٢ من هذه الترجمة .

(١) أي طبيعة الناسوت في المسيح . وقد عاني بطرس الفلاح في هذه القصيدة نفس التحول الروحي الذي عاناه بياتريس في الكوميديا الالهية لدانتي . فهو يبدأ كفلاح قديس ، ثم يصبح تدريجيا النموذج الإنساني في ذروة كماله ، ونعني بذلك طبيعة الإنسان في المسيح : واتجنب المزيد من التفسيرات والإيضاحات ، فقد حاولنا قدر الاستطاعة تبسيط الأسلوب في هذه القطعة (كولتون) .

أما الإخوة الرهبان فانهم يتملقون خصوصي سعيا وراء الكسب والجزاء .
ويقول الضمير : الآن ستنتقم لى الطبيعة ،
وستبعث إلى بتمنياتها بالسعادة والصحة ، إلى أن أعثر على طرس الفلاح !
وعندئذ أخذ الضمير يئن بعد أن كان مرحا . ثم صحــوت من غفوتى .

وتبين القصيدة المدعمة ببيانات دسمة مستقاة من مصادر أخرى ، نشأة دين تصوفى بسيط بين الناس . وكان هذا يسير جنبــا إلى جنب مع النهضة العلمية المعروفة بين طلاب العلم والنبلاء والتجار ، والتى كان يصاحبها لهف شديد عام للقضاء على المساوىء الخلقية ؛ فضلا عن العوامل الاقتصادية التى ساعدت على تغيير الفكر الوسيط إلى فكر حديث : ولقد نبــه كبــار رجال الكنيسة صراحة ، منذ أجيال سابقة ، إلى أنه لو لم توجد الوسائل اللازمــة لإصلاح الكنيسة من الرأس إلى القدم ، أى ابتداء من المحكمـة الرومانية حتى القس العادى ورؤسائه الابرشيين ـــ إذ أصبحت الدعوة الى الاصلاح الدينى شاملة رأس الكنيسة وأعضاءها هى الصيحة العامة ـ لولا ذلك كله لما أمـــكن تجنب الثورة . فقد كانت هذه الثورة متوقعة منذ زمن بعيد، تماما كما كانت الثورة الفرنسية متوقعة سنة ١٧٨٩ . وأخيرا وقع ما لم يـــكن منه بد . إذ أحدثته هذه الثورة ـ شأنها شأن كل الثورات ـ موجة من التخريب والقلاقل وعدم الاستقرار ؛ الا أنها بخيرها وشرها قد صنعت أوروبا الحديثة . وكان التعصب الدينى لا يزال هو القاعدة لأجيال عديدة لاحقة : ويمـــكن القول مع شيء من صدق الدلالة بأن ذلك التعصب كان أيضا عنيفــا بين أطـراف الخصوم جميعا . بيد أنه بمرور الزمن نجحت تلك الجماعات المتخـاصمة فى أن تبث روح التسامح حتى فى أشد الأذهـان كرهـا لـها : وقـد اثبتت الحقائق ما سبق أن دل عليه العقل فى تؤدة وبصــورة مناسبـة ، من أنه

لا رجاء لأى طرف من أن يستأصل شأفة الطرف الآخر، ومن ثم تعين على الجميع أن ينظموا أنفسهم بحيث يعيشون معا متفاهمين فى هذا العـــالم الذى تتضارب فيه الأذواق والأفكار المختلفة المتنوعة . أما فيما يتعلق بموضـوع التسامح، وهو من أهم الموضوعات التى تهم تقدم البشرية ، فيمكن القول بأن العالم قد تحول إلى الأبد عن ذلك الفكر الذى كان يعتبر أمرا طبيعيا فى اوروبا فى العصور الوسطى .

بعض المراجع للفصل الحادي عشر

Bulfinch, T., Mythology. New York, 1913.

Chadwick, D., Social Life in the Days of Piers Plowman. Cambridge, 1922.

Ferres-Howell, A., S. Bernardino of Siena. London, 1913.

Fleming, W. K., Mysticism in Christianity. London, 1913.

Grimm, J., Deutsche Mythologie. 1876.

Inge, W. R., Christian Mysticism London, 1912.

Jones, R. M., Studies in Mystical Religion. New York, 1909.

Ker, W. P., Essays on Medieval Literature. London, 1905.

Lawrence, W. W., Mediaeval Story. New York, 1912.

Ludlow, J. M., Popular Epics of the Middle Ages of the Norse-German and Carlovingian Cycles. 2 vols. London, 1865.

Manning, B., The People's Faith in the Time of Wyclif. Cambridge, 1919.

McLaughlin, E. T., Studies in Mediaeval Life and Literature. New York, 1894.

Owst, G., Preaching in Medieval England. London, 1909.

Spence, L., A Dictionary of Medieval Romance and Romance Writers. London, 1913.

Underhill, E.,

1- Mysticism : a Study in the Nature and Development of Man's Spiritual Consciousness. New York, 1912.

2 - The Mystics of the Church. New York, 1926.

المراجع التى اعتمد عليها المترجم
والوارد ذكرها فى حواشى الكتاب

أولا – المخطوطات(١)

« برلام ويواصف ، ومهامر لانسطاسيوس وثوذاس وذهبي الفم للصوم الكبير ، وبستان الرهبان . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٠٦ — ١٧٥ ورقة ـ القرن الثانى عشر ـ مقاس ٢١٫٥ × ١٣٫٥ سم.

---

(١) المخطوطات المذكورة أعلاه توجد بمكتبة دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء . فقد أتيحت لى فرصة زيارة الدير المذكور مرتين عندما قامت كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى أخريات عام ١٩٦٣ بالاشتراك مع بعثتي جامعتي متشيجان وبرنستون بأمريكا ببعض الدراسات التاريخية والفنية فى الدير المذكور . وكانت الزيارة الأولى فى الفترة من ٣ إلى ١٤ أكتوبر والثانية من ٢١ إلى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣ : وقد أمضيت الجانب الأكبر من هاتين الزيارتين بين جدران مكتبة الدير التى تحوى الآلاف من المخطوطات والوثائق العربية التى لم تنشر بعد ، والتى يرجع تاريخ كثير منها إلى عدة قرون مضت . هذا فضلا عن آلاف المخطوطات باللغات الأخرى كاليونانية القديمة والجورجيانية والسلافونية والسريانية والحبشية والتركية . والمكتبة غنية بالمخطوطات التى تتعلق بسير الآباء والرسل والقديسين الأول ، والتى أوردنا بعضا منها هنا لما تتضمنه من معلومات قيمة تتصل بصفة خاصة بموضوع الرهبنة والديرية فى العصور الوسطى .

« برلام ، يواصف ، ونياحة العذراء ، وسيرة تادرس من دير سابا ، ومرقس الترمقاني ، وميامر ذهبي الفم ، وسير مكسيموس ودماديوس ونفريوس وغيرهم من القديسين . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٣٨ - ٣٧٦ ورقة - بتاريخ ١٢١١ م - مقاس ٢٦ × ١٧ سم .

« بستان الرهبان ، وسيرتا انطونيوس وباخوميوس . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٢٦ - ٤٠٢ ورقة - بتاريخ ١٢٧٧ م - مقاس ٢١٫٥ × ١٣ سم .

« سيرة ابيفانوس ، وسيرة يوحنا فم الذهب، واستشهاد بطرس بطريرك الاسكندرية . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٢١ - ١٤٦ ورقة - القرن الحادى عشر - مقاس ١٩ × ١٤ سم :

« سيرة أنبا باخوميوس ومواضيع أخرى . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٤١١-٢٠٨ ورقة - بتاريخ ١٢٨٧م - مقاس ١٨٫٥ × ١٤ سم.

« سيرة باخوميوس . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٤١ - ١٠٧ ورقة - القرن الثالث عشر - مقاس ٢١٫٥ × ١٤٫٥ سم :

« قصص يوحنا ذهبى الفم وايريني القديسة . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٢٩ - ٣٢٢ ورقة - القرن الثالث عشر - مقاس ٢١ × ١٤ سم .

« مختصر من القوانين — قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٩٨ - ١٠٨ ورقة - القرن الثالث عشر - مقاس ٥ر٢٤ × ١٧ سم .

« ميامر مقاريوس الطوبانى ، وسيرتا انطونيوس وباخوميوس . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٣٥٦ - ٢١٦ ورقة - بتاريخ ١١٨٦ - مقاس ٥ر٢٥ × ٥ر١٧ سم .

« ميمر الذهبي الفم ، وقصة مريم المغنية ، وخبر يوحنا فم الذهب ، وشهادات بقطر وآخرين . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٥٢٠ - ٢٧٦ ورقة - القرن العاشر - مقاس ٥ر١٧ × ٥ر١٤ سم .

ثانيا - الكتب العربية والمعربة

ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية - القاهرة ١٩٦٣ .

بتشر (ا. ل.) : كتاب تاريخ الأمة القبطية — ترجمة تادرس شنوده المنقبادى - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٠٠ - ١٩١٠ .

بور (ايلين) : نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق حسين - بيروت ١٩٥٧ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط - قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل — القاهرة ١٩٦٠ .

٣ — العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى - الاسكندرية ١٩٦٣ .

٤ — « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ٦٢ - ١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ - ٢١١) .

دانتي اليجيري: الكوميديا الإلهية - المطهر - ترجمة وتعليق الدكتور حسن عثمان - القاهرة ١٩٦٤ .

ديفز (ه . و) : اوربا فى العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود - الاسكندرية ١٩٥٨ .

راغب عبد النور (الدكتور) وآخرون : صورة من تاريخ القبط — رسالة مار مينا الرابعة - الاسكندرية ١٩٥ .

عبد الرحمن بدوى (الدكتور) : فلسفة العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٢ .

عزيز سوريال عطية (الدكتور) :

١ — نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس — مستخرج من رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - الاسكندرية ١٩٤٨ .

٢ - رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - الرسالة الثالثة - الاسكندرية ١٩٤٨ .

فشر (ه . ا . ل .) : تاريخ اوربا فى العصور الوسطى — جزءان — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني والدكتور ابراهيم احمد العدوى - القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

كوبلاند (ج . و .) وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب اوربا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٨ .

لانجر (وليم) : موسوعة تاريخ العالم - أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - ٣ جـ - القاهرة ١٩٥٩ و ١٩٦٢ .

نجيب ميخائيل ابراهيم (الدكتور) : مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثالث : سورية - القاهرة ١٩٥٩ .

نظير حسان سعداوى (الدكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى - القاهرة ١٩٥٨ .

هارتمان (ل . م .) و باراكلاف (ج) . الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى - ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف - الاسكندرية ١٩٦٦ .

هرنشو (ف . ج . س.) : علم التاريخ - ترجمة الاستاذ عبد الحميد العبادى - القاهرة ١٩٣٧ .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط - القاهرة ١٩٥٧ .

ثالثا ـ الكتب الافرنجية

Atiya, A. S.,

1 - The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 - Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Baldwin, M. W, The Mediaeval Church. New York, 1960.

Barrow, R. H., The Romans. London, 1945.

Baynes, N. & Moss, H. (eds.), Byzantium. An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

Bell, H. L., Cults and Creeds in Grèco-Roman Egypt. Liverpool, 1953.

Bevan, E., A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927.

Blakeney, E. H. (ed.), Smaller Classical Dictionary. London, 1949.

Bloch, M., Feudal Society. Trans. from the French by L. A. Manyon. London, 1961.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Trans. by S. G. C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

Calmette, J., Atlas historique, T. II : Le moyen âge. Paris, 1941.

Cantor, N. F. (ed.), The Medieval World : 300 — 1300. New York, 1963.

Carcopino, J., Daily Life in Ancient Rome. Ed. by H. T. Rowell. Trans. from the French by E. O. Lorimer. Aylesbery, 1956.

Cerny, J., Ancient Egyptian Religion. London, 1957.

Coulton, G. G.,

1 - Medieval Panorama. New York, 1955.

2 - Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

Cragg, G. R, The Church and the Age of Reason, (1648 - 1789). Vol. IV. Bristol, 1960.

Crombie, A. C., Augustine to Galileo. Vol. 1 : Science in the Middle Ages (V--XIII Centuries). London, 1961.

Crump, C. G., & Jacob, E. F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

Dante, The Devine Comedy - II : Purgatory. Trans. by D. L. Sayers. Edinburgh, 1959.

Dill, S., Roman Society in the Last Century of the Western Empire. New York, 1960.

Downs, N. (ed), Basic Documents in Medieval History. New York, 1959.

Eyre, E. (ed.), European Civilisation — Its Origin and Development. Vol III : The Middle Ages. London, 1935.

Fowler, W. & Charlesworth, M., Rome. London, 1957.

French, R. M., The Eastern Orthodox Church. London, 1951.

Haskins, C. H., The Rise of Universities. New York, 1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge, 1961.

Heer, F., The Medieval World (Europe 1100-1350) Trans from the German by J. Sondheimer. London, 1962.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

Joinville, J. de,

1 - Memoirs of Louis XI, King of France. An English trans. by Colonel Johnes of Hafod Cf. Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. pp. 346—556. London, 1848.

2 - Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe siècle, accompagné d'une traduction en francais moderne par Natalis de Wailly. Paris, 1874.

Jones, A. H. M., Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitchin, G. W., A History of France. Vol. I (B. C. 58 - A. D. 1453). Oxford, 1899.

LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lodge, E. C., The End of the Middle Ages. (1273-1453). London, 1924.

Lopez, R. S. and Raymond, I. W. (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World. New York, 1955.

McKisack, M. The Fourteenth Century (1307 — 1399). Oxford 1959.

Molinier, A., Les sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie (1494). IV : Les Valois, 1328—1461. Paris, 1904.

Mommsen, T. E., Medieval and Renaissance Studies. Ed. by E. F. Rice. Ithaca, 1959

Monroe, P., A Text-Book in the History of Education New York, 1914.

Myers, A. R., England in the Late Middle Ages (1307-1536) London, 1953.

Painter, S., French Chivalry Chivalric Ideas and Practices in Mediaeval France New York, 1961

Paris, M., English History From the year 1235 to 1273. Trans. from the Latin by J. A. Giles 2 vols. London, 1852-4

Pirenne, H.,

1. Economic and Social History of Medieval Europe Trans form the French by I. E. Clegg. London, 1961
2. Medieval Cities Trans. From the French by F. D. Halsey New York, 1948

Plumb, J. H. England in the Eighteenth Century (1714-1815). London 1953

Power, E., Medieval People. London, 1954.

Previté-Orton, C. W., The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Rose, H. J.,

1- Ancient Greek Religion. London, 1946.

2- Ancient Roman Religion London, 1948

Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Seyffert, O., A Dictionary of Classical Antiquities (Mythology, Religion, Literature & Art). Eds. H Nettleship & J. E. Sandys. London, 1901.

Stenton, D. M., English Society in the Early Middle Ages (1066--1307). Middlesex, 1952.

Stephenson, C., Medieval Feudalism. New York, 1942.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Tollington, R B., Clement of Alexandria. 2 vols London, 1914.

Trevelyan, G. M., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Whitelock, D., The Beginnings of English Society (The Anglo-Saxon Period). London, 1954.

Woodward, E. L., History of England. London, 1957.

Youssef, J. N.,

1- «The Crusade of Louis IX on Syria (1250-1254 A D.)». Cf. Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XVII – 1963. Alexandria, 1964. (pp. 57 — 69).

2- «Prophetologion — An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai, no. 588 — A Survey and Critical Study, » Cahiers d'Alexandrie, Série 4, no. 4, 1966. (pp 1—10).

اللوحات والرسوم

اللوحات

الرسوم

فهـــرس عـام

(ر)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(هـ)

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الفصل التاسع

صفحة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢	٩	اوروبا من ٢١٠٠ الى ١٢٥٠	اوروبا من ١١٠٠ الى ١٣٥٠
٤١	١٤	fidleitas	fidelitas
٥٥	٢٠	الاصحاح ٢٠٨ : ٤	الاصحاح ١٨ : ٤
٥٨	١٣	عن ٥٠ سنة	عن ٥٥ سنة
٥٨	١٥	(١٢٨٠ - ١١٢٩)	(١٢٨٠ - ١٢٣٩)
٧٤	٧	البدانى	البدائى
٧٨	١	الاساسية	السياسية
١٤٦	٢١	مساحة فسيحة	ساحة فسيحة
١٥٠	٩	Sir Betrand	Sir Bertrand
١٥٩	١٢	إلا فانفسحى	ألا فلنضحى
١٧٨	١٧	لاقول	القول
١٩٢	٤	Fgypt	Egypt
٢١٤	١٦	وكان ثناه	وكان ثنا
٢٤٠	١٠	Greet	Great
٢٥٠	٥١	يدعو الى	يدعو الكنيسة الى
٢٥٥	١٧	زواج	للزواج